لطائف المعارف

فيما لمواسم العام من الوظائف

تأليف: الإمام الحافظ زين الدين أبي الفرج
عبدالرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي الدمشقي (
736-795هـ)

بسم الله الرحمن الرحيم
وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب
الحمد لله الملك القهار، العزيز الجبار، الرحيم الغفار، مقلب القلوب والأبصار، مقدر الأمور كما يشاء ويختار، مكور النهار على الليل، ومكور الليل على النهار، أسبل ذيل الليل فأظلم للسكون والاستتار، وأنار منار النهار، فأضاء للحركة والانتشار، وجعلهما مواقيت للأعمال ومقادير للأعمار، وسخر الشمس والقمر يجريان بحسبان ومقدار، ويعتقبان في دارة الفلك الدوار على تعاقب الأدوار، وجعلهما معالم تعلم بهما أوقات الليالي

والأيام والشهور والأعوام في هذه الدار، ويهتدى بهما في ميقات الصلاة، والزكاة، والحج، والصيام، والإفطار، حجة قائمة قاطعة للأعذار، وحكمة بالغة من حكيم عليم ذي اقتدار.

أحمده وحلاوة محامده تزداد مع التكرار، وأشكره وفضله على من شكر مدرار، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، شهادة تبرئ قائلها من الشرك بصحة الإقرار، وتبوئ قائلها دار القرار. وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، البدر جبينه إذا سر استنار، واليمّ يمينه فإذا سئل أعطى عطاء من لا يخشى الإقتار، والحنيفية دينه الدين القيم المختار، رفع الله ببعثته عن أمته الأغلال والآصار، وكشف بدعوته أذى البصائر وقذى الأبصار، وفرق بشريعته بين المتقين والفجار، حتى امتاز أهل اليمين من أهل اليسار، وانفتحت أقفال القلوب فانشرحت بالعلم والوقار، وزال عن الأسماع أثقال الوقار، صلى الله عليه وعلى آله أولي الإقدام والأقدار، وعلى أصحابه أقطاب القطار، صلاة تبلغهم في تلك الأوطان نهاية الأوطار، وسلم تسليما.

أما بعد، فقد قال الله عز وجل (وجعلنا الليل والنهار آيتين، فمحونا آية وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب)، وقال الله تعالى (هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) فأخبر سبحانه وتعالى انه علق معرفة السنين والحساب على تقدير القمر منازل، واليوم والأسبوع يعرف بالشمس، وبهما يتم الحساب.

وقوله تعالى:(لتعلموا عدد السنين) لما كان الشهر الهلالي لا يحتاج إلى عد لتوفيته بما بين الهلالين، لم يقل لتعلموا عدد الشهور، فإن الشهر لا يحتاج إلى عدة إلا إذا غمّ آخره، فيكمل عدده بالاتفاق، إلا في شهر شعبان إذا غم آخره، بالنسبة إلى صوم رمضان خاصة، فإن فيه اختلافا مشهورا.

وأما السنة فلا بد من عددها، إذ ليس لها حد ظاهر في السماء فيحتاج إلى عددها بالشهور، ولاسيما مع تطاول السنين وتعددها.

وجعل الله السنة اثني عشر شهرا، كما قال تعالى)إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله) وذلك بعدد البروج التي تكمل بدور الشمس فيها السن الشمسية، فإذا دار القمر فيها كلها كملت دورته السنوية.

وإنما جعل الله الاعتبار بدور القمر، لان ظهوره في السماء لا يحتاج إلى حساب ولا كتاب، بل هو أمر ظاهر يشاهد بالبصر، بخلاف سير الشمس، فإنه تحتاج معرفته إلى حساب وكتاب، فلم يحوجنا إلى ذلك، كما قال النبي (إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب، الشهر هكذا وهكذا وهكذا، وأشار بأصابعه العشر، وخنس إبهامه في الثالثة، صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن غم عليكم فأكملوا العدة).

وإنما علق الله تعالى على الشمس أحكام اليوم من الصلاة والصيام، حيث كان ذلك أيضا مشاهدا بالبصر لا يحتاج إلى حساب ولا كتاب، فالصلاة تتعلق بطلوع الفجر إلى غروب الشمس. وقوله تعالى:

(والحساب)، يعني بالحساب حساب ما يحتاج إليه الناس من مصالح دينهم ودنياهم، كصيامهم وفطرهم، وحجهم، وزكاتهم ونذورهم، وكفاراتهم، وعِدد نسائهم، ومدد إيلائهم، ومدد إيجاراتهم وحلول آجال ديونهم، وغير ذلك مما يتوقت بالشهور والسنين. وقد قال الله عز وجل:)يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج)، فأخبر أن الأهلة مواقيت للناس عموما، وخص الحج من بين ما يوقت به، للاهتمام به، وجعل الله سبحانه وتعالى في كل يوم وليلة لعباده المؤمنين وظائف موظفة عليهم من وظائف طاعته. فمنها ما هو مفترض كالصلوات الخمس، ومنا ما يندبون إليه من غير افتراض، كنوافل الصلاة والذكر وغير ذلك .

وجعل في شهور الأهلة وظائف موظفة أيضا على عباده، كالصيام، والزكاة، والحج. ومنه فرض مفروض عليهم، كصيام رمضان، وحجة الإسلام. ومنه ما هو مندوب، كصيام شعبان، وشوال، والشهر الحرم. وجعل الله سبحانه لبعض الشهور فضلا على بعض، كما قال تعالى:(منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم)، وقال الله تعالى:

(الحج أشهر معلومات)، وقال الله تعالى:(شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن).

كما جعل بعض الأيام والليالي أفضل من بعض، وجعل ليلة القدر خيرا من ألف شهر، وأقسم بالعشر، وهو عشر ذي الحجة على الصحيح، كما سنذكره في موضعه إن شاء الله تعالى. وما من هذه المواسم الفاضلة موسم إلا ولله تعالى فيه وظيفة من وظائف طاعته، يتقرب بها إليه، ولله فيه لطيفة من لطائف نفحاته يصيب بها من يعود بفضله ورحمته عليه. فالسعيد من اغتنم مواسم الشهور والأيام والساعات، وتقرب فيها إلى مولاه بما فيها من وظائف الطاعات، فعسى أن تصيبه نفحة من تلك النفحات، فيسعد بها سعادة يأمن بعدها النار وما فيها من اللفحات.

وقد خرج ابن أبي الدنيا والطبراني وغيرهما، من حديث أبي هريرة مرفوعا (أطلبوا الخير دهركم كله، وتعرضوا لنفحات ربكم، فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده، وسلوا الله أن يستر عوراتكم ويؤمن روعاتكم). وفي رواية للطبراني من حديث محمد بن مسلمة مرفوعا: (إن لله في أيام الدهر نفحات فتعرضوا لها، فلعل أحدكم أن تصيبه نفحة فلا يشقى بعدها أبدا). وفي مسند الإمام أحمد عن عقبة بن عامر عن النبي قال:(ليس من عمل يوم إلا يختم عليه)، وروى ابن أبي الدنيا بإسناده عن مجاهد، قال: ما من يوم إلا يقول: ابن آدم! قد دخلت عليك اليوم ولن أرجع إليك بعد اليوم، فانظر ماذا تعمل فيّ، فإذا انقضى طواه، ثم يختم عليه فلا يفك حتى يكون الله هو الذي يفض ذلك الخاتم يوم القيامة، ويقول اليوم حين ينقضي: الحمد لله الذي أراحني من الدنيا وأهلها، ولا ليلة تدخل على الناس إلا قالت كذلك.

وبإسناده عن مالك بن دينار، قال: كان عيسى عليه السلام، يقول: إن هذا الليل والنهار خزانتان، فانظروا ما تضعون فيهما. وكان يقول: اعملوا الليل لما خلق له ، واعملوا النهار لما خلق له. وعن الحسن قال: ليس يوم من أيام الدنيا إلا يتكلم، يقول: يأيها الناس ! إني يوم جديد وإني على ما يعمل في شهيد،

وإني لو قد غربت الشمس لم أرجع إليكم إلى يوم القيامة. وعنه كان يقول: يابن آدم! اليوم ضيفك، والضيف مرتحل، يحمدك أو يذمك، وكذلك ليلتك.

وبإسناده عن بكر المزني أنه قال: ما من يوم أخرجه الله إلى أهل الدنيا إلا ينادي: ابن آدم ! اغتنمني لعله لا يوم لك بعدي. ولا ليلة إلا تنادي: ابن آدم ! اغتنمني لعله لا ليلة لك بعدي. وعن عمر بن ذر أنه كان يقول:اعملوا لأنفسكم رحمكم الله في هذا الليل وسواده، فإن المغبون من غبن خير الليل والنهار، والمحروم من حرم خيرهما، إنما جعلا سبيلا للمؤمنين إلى طاعة ربهم، ووبالا على الآخرين للغفلة عن أنفسهم، فأحيوا لله أنفسكم بذكره، فإنما تحيا القلوب بذكر الله عز وجل.

عن أبي موسى رضي الله عنه قال قال رسول الله :(مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه، مثل الحي والميت). كم من قائم لله في هذا الليل قد اغتبط بقيامه في ظلمة حفرته، وكم من نائم في هذا الليل قد ندم على طول نومه، عندما يرى من كرامة الله عز وجل للعابدين غدا. فاغتنموا ممر الساعات والليالي والأيام، رحمكم الله. وعن داوود الطائي أنه قال: إنما الليل والنهار مراحل، ينزلها الناس مرحلة مرحلة، حتى ينتهي بهم ذلك على آخر سفرهم، فإن استطعت أن تقدم ذلك في كل مرحلة زادا لما بين يديها فافعل، فإن انقطاع السفر عن قريب ما هو، والأمر أعجل من ذلك. فتزود لسفرك، واقض ما أنت قاض من أمرك، فكأنك بالأمر قد بغتك.

قال ابن أبي الدنيا: وأنشدنا محمود بن الحسين:

مضى امسك وأعقبه يوم عليك
فيومك إن أغنيته عليك وماضي
فإن كنت بالأمس فثن بإحسان
فلا ترج فعل لعل غدا يأتي

وفي(تفسير عبد بن حميد) وغيره من التفاسير المسندة عن الحسن في قول الله تعالى (وهو الذي جعل الليل والنهار خِلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا)، قال: من عجز بالليل كان له في أول النهار مستعتب، ومن عجز عن النهار كان له في الليل

مستعتب. وعن قتادة قال: إن المؤمن قد ينسى بالليل ويذكر بالنهار، وينسى بالنهار ويذكر بالليل. قال: وجاء رجل إلى سلمان ، قال: إني لا أستطيع قيام الليل. قال له: فلا تعجز بالنهار.

قال قتادة: فأدوا إلى الله من أعمالكم خيرا في هذا الليل والنهار، فإنهما مطيتان تقحمان الناس إلى آجالهم، يقربان كل بعيد، ويبليان كل جديد، ويجيئان بكل موعود إلى يوم القيامة.

وقد استخرت الله تعالى في أن أجمع في هذا الكتاب وظائف شهور العام، وما يختص بالشهور ومواسمها من الطاعات كالصلاة والصيام والذكر والشكر وبذل الطعام، وإفشاء السلام، وغير ذلك من خصال البررة الكرام، ليكون ذلك عونا على نفسي ولأخواني على التزود للمعاد، والتأهب للموت قبل قدومه، والاستعداد. وأفوض أمري إلى الله، إن الله بصير بالعباد. ويكون أيضا صالحا لمن يريد الانتصاب للمواعظ من المذكرين، فإن من أفضل الأعمال عند الله لمن أراد به وجه الله إيقاظ الراقدين وتنبيه الغافلين، قال الله تعالى:(وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين). ووعد من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس يبتغي بها وجه الله أجرا عظيما، وأخبر نبيه [illegible]) ، وكفى بذلك فضلا عميما. وقد جعلت هذه الوظائف المتعلقة بالشهور مجالس مجالس، مرتبة على ترتيب شهور السنة الهلالية، فأبدأ بالمحرم، وأختم بذي الحجة، وأذكر في كل شهر ما فيه من هذه الوظائف، وما لم يكن له وظيفة خاصة لم أذكر فيه شيئا.

وختمت ذلك كله بوظائف فصول السنة الشمسية، وهي ثلاثة مجالس: في ذكر الربيع، والشتاء، والصيف، وختمت الكتاب كله بمجلس في التوبة والمبادرة بها قبل انقضاء العمر، فإن التوبة وظيفة العمر كله، وأبدأ قبل ذكر وظائف الشهور بمجلس في فضل التذكير بالله يتضمن ذكر بعض ما في مجالس التذكير من الفضل، وسميته ‹‹لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف››. والله

تعالى المسؤول أن يجعله خالصا لوجهه الكريم، ومقربا إليه وإلى داره، دار السلام والنعيم المقيم، وأن ينفعنا به وعباده المؤمنين، وأن يوفقنا لما يحب ويرضى، ويختم لنا بخير وعافية، فإنه أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين، آمين.

وهذا أوان الشروع فيما أردناه والبداءة بالمجلس الأول كما شرطناه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

بسم الله الرحمن الرحيم

ـ مجلس في فضل التذكير بالله تعالى، ومجالس الوعظ.

خرج الإمام أحمد والترمذي وابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلنا يا رسول الله ما لنا إذا كنا عندك رقت قلوبنا، وزهدنا في الدنيا وكنا من أهل الآخرة، فإذا خرجنا من عندك فآنسنا أهلنا وشممنا أولادنا أنكرنا أنفسنا ؟ فقال رسول الله : (لو أنكم إذا خرجتم من عندي على حالكم ذلكم لزارتكم الملائكة في بيوتكم، ولو لم تذنبوا لجاء الله بخلق جديد حتى يذنبوا فيغفر لهم. قلت يا رسول الله! مم خلق الخلق ؟ قال: من الماء قلت: الجنة ما بناؤها ؟ قال: لبنة من ذهب ولبنة من فضة وملاطها المسك الأذفر وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت وتربتها الزعفران من يدخلها ينعم لا يبأس ويخلد لا يموت لا تبلى ثيابهم، ولا يفنى شبابهم).

كانت مجالس النبي مع أصحابه عامتها مجالس تذكير بالله وترغيب وترهيب، إما بتلاوة القرآن أوبما آتاه الله من الحكمة والموعظة الحسنة وتعليم ما ينفع في الدين كما أمره الله تعالى في كتابه أن يذكر ويعظ ويقص وأن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة وأن يبشر وينذر، وسماه الله (مبشرا ونذيرا * وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا) فقيل: سراجا للمؤمنين في الدنيا، ومنيرا للمذنبين يوم القيامة بالشفاعة، وسمي سراجا لأن السراج الواحد يوقد منه ألف سراج ولا ينتقص من نوره شيء، كذلك خلق الله الأنبياء من نور محمد ولم ينقص من نوره شيء، قال العلماء رضي الله عنهم:

والسرج خمسة: واحد في الدنيا وواحد في الدين وواحد في السماء وواحد في الجنة وواحد في القلب، ففي الدنيا: النار، وفي السماء: الشمس، وفي الدين: محمد ، وواحد في الجنة: عمر سراج أهل الجنة، وفي القلب: المعرفة، والتبشير والإنذار: هو الترغيب والترهيب فلذلك كانت تلك المجالس توجب لأصحابه ـ كما ذكره أبو هريرة رضي الله عنه في هذا الحديث ـ رقة القلب والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة.

الكلام في المواعظ ورقة القلب

فأما رقة القلوب فتنشأ عن الذكر، فإن ذكر الله يوجب خشوع القلب وصلاحه ورقته ويذهب بالغفلة عنه قال الله تعالى: (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب) وقال الله عز وجل: (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون) وقال تعالى: (وبشر المخبتين * الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) وقال الله تعالى: (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) وقال تعالى: (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله)

وقال العرباض بن سارية: وعظنا رسول الله موعظة بليغة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون. وقال ابن مسعود: نعم المجالس المجلس الذي تنشر فيه الحكمة وترجى فيه الرحمة هي مجالس الذكر.

وشكا رجل إلى الحسن قساوة قلبه فقال: أدنه من الذكر، وقال: مجلس الذكر محياة العلم، ويحدث في القلب الخشوع .

القلوب الميتة تحيا بالذكر كما تحيا الأرض الميتة بالقطر:

بذكر الله ترتاح ودنيانا بذكراه

وأما الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة فبما

يحصل في مجالس الذكر من ذكر عيوب الدنيا وذمها، والتزهيد فيها وذكر فضل الجنة ومدحها والترغيب فيها، وذكر النار وأهوالها والترهيب منها، وفي مجالس الذكر تنزل الرحمة وتغشى السكينة وتحف الملائكة ويذكر الله أهلها فيمن عنده وهم قوم لا يشقى بهم جليسهم، فربما رحم معهم من جلس إليهم، وإن كان مذنبا وربما بكى فيهم باك من خشية الله فوهب، أهل المجلس كلهم له، وهي رياض الجنة.

قال النبي (إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قالوا: وما رياض الجنة ؟ قال: مجالس الذكر). فإذا انقضى مجلس الذكر فأهله بعد ذلك على أقسام:

أقسام أهل الذكر

فمنهم من يرجع إلى هواه فلا يتعلق بشيء مما سمعه في مجلس الذكر ولا يزداد هدى ولا يرتدع عن رديء، وهؤلاء شر الأقسام، ويكون ما سمعوه حجة عليهم فتزداد به عقوبتهم وهؤلاء الظالمون لأنفسهم: (أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون). النحل/108

ومنهم من ينتفع بما سمعه، وهم على أقسام:

فمنهم من يرده ما سمعه عن المحرمات ويوجب له التزام الواجبات، وهؤلاء المقتصدون أصحاب اليمين.

ومنهم من يرتقي عن ذلك إلى التشمير في نوافل الطاعات، والتورع عن دقائق المكروهات، ويشتاق إلى اتباع آثار من سلف من السادات، وهؤلاء السابقون المقربون.

وينقسم المنتفعون بسماع مجلس الذكر في استحضار ما سمعوه في المجلس والغفلة عنه إلى ثلاثة أقسام:

فقسم يرجعون إلى مصالح دنياهم المباحة، فيشتغلون بها فتذهل بذلك قلوبهم عما كانوا يجدونه في مجلس الذكر، من استحضار عظمة الله وجلاله وكبريائه ووعده ووعيده وثوابه وعقابه، وهذا هو الذي شكاه الصحابة إلى النبي ا– وخشوا، لكمال معرفتهم وشدة خوفهم أن يكون نفاقا فأعلمهم النبي ا– أنه ليس نفاق وفي صحيح مسلم

عن حنظلة أنه قال: يا رسول الله نافق حنظلة قال: وما ذاك قال: نكون عندك تذكرنا بالجنة والنار كأنها رأي عين، فإذا رجعنا من عندك عافسنا الأزواج والضيعة ونسينا كثيرا، فقال: لو تدومون على الحال التي تقومون بها من عندي لصافحتكم الملائكة في مجالسكم وفي طرقكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة) ثلاث مرات. وفي رواية له أيضا: (لو كانت تكون قلوبكم كما تكون عند الذكر لصافحتكم الملائكة حتى تسلم عليكم في الطرق) ومعنى هذا: أن استحضار ذكر الآخرة بالقلب في جميع الأحوال عزيز جدا، ولا يقدر كثير من الناس أو أكثرهم عليه فيكتفي منهم بذكر ذلك أحيانا وإن وقعت الغفلة عنه في حال التلبس بمصالح الدنيا المباحة ولكن المؤمن لا يرضى من نفسه بذلك بل يلوم نفسه عليه ويحزنه ذلك من نفسه العارف يتأسف في وقت الكدر على زمن الصفا ويحن إلى زمان القرب والوصال في حال الجفا.

ما أكدر عيشنا الذي إلا وجف القلب

واها لزماننا الذي هل يرجع بعد فوته

وقسم آخرون يستمرون على استحضار حال مجلس سماع الذكر، فلا يزال تذكر ذلك بقلوبهم ملازما لهم، وهؤلاء على قسمين:

أحدهما: من يشغله ذلك عن مصالح دنياه المباحة، فينقطع عن الخلق فلا يقوى على مخالطتهم ولا القيام بوفاء حقوقهم، وكان كثير من السلف على هذه الحال، فمنهم من كان لا يضحك أبدا، ومنهم من كان يقول: لو فارق ذكر الموت قلبي ساعة لفسد.

والثاني: من يستحضر ذكر الله وعظمته وثوابه وعقابه بقلبه، ويدخل ببدنه في مصالح دنياه من اكتساب الحلال والقيام على العيال ويخالط الخلق فيما يوصل إليهم به النفع مما هو عبادة في نفسه كتعلم العلم والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهؤلاء أشرف القسمين وهم خلفاء الرسل، وهم الذين قال فيهم علي رضي الله عنه: صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى.

وقد كان حال النبي عند الذكر يتغير، ثم يرجع بعد

انقضائه إلى مخالطة الناس والقيام بحقوقهم، ففي مسند البزار ومعجم الطبراني عن جابر رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا نزل عليه الوحي، قلتَ: نذير قوم فإذا سري عنه، فأكثر الناس ضحكا وأحسنهم خلقا).

وفي مسند الإمام أحمد، عن علي أو الزبير قال: (كان رسول الله ﷺ يخطبنا فيذكرنا بأيام الله حتى نعرف ذلك في وجهه وكأنه نذير جيش يصبحهم الأمر غدوة، وكان إذا كان حديث عهد بجبريل لم يتبسم ضاحكا حتى يرتفع عنه).

وفي صحيح مسلم عن جابر: أن النبي ﷺ كان إذا خطب وذكر الساعة اشتد غضبه وعلا صوته حتى كأنه منذر جيش يقول صبحكم ومساكم)

وفي الصحيحين عن عدي بن حاتم أن النبي ا– قال: اتقوا النار وأشاح ثم قال: اتقوا النار ثم أعرض وأشاح ثلاثا، حتى ظننا أنه ينظر إليها ثم قال: اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكلمة طيبة) وسئلت عائشة كيف كان رسول الله ا– إذا خلا مع نسائه ؟ قالت: (كان كرجل من رجالكم إلا أنه: كان أكرم الناس وأحسن الناس خلقا وكان ضحاكا بساما) فهذه الطبقة خلفاء الرسل عاملوا الله بقلوبهم، وعاشروا الخلق بأبدانهم، كما قالت رابعة:

ولقد جعلتك في | وأبحت جسمي من
فالجسم مني | وحبيب قلبي في

المواعظ سياط تضرب القلوب فتؤثر في القلوب كتأثير السياط في البدن والضرب لا يؤثر بعد انقضائه كتأثيره في حال وجوده، لكن يبقى أثر التألم بحسب قوته وضعفه، فكلما قوي الضرب كانت مدة بقاء الألم أكثر، كان كثير من السلف إذا خرجوا من مجلس سماع الذكر خرجوا عليهم السكينة والوقار.

فمنهم من كان لا يستطيع أن يأكل طعاما عقب ذلك، ومنهم من كان يعمل بمقتضى ما سمعه مدة.

أفضل الصدقة: تعليم جاهل أو إيقاظ غافل، ما وُصل المستثقِل في نوم الغفلة بأفضل من ضربه

بسياط الموعظة ليستيقظ.

المواعظ كالسياط تقع على نياط القلوب فمن آلمته فصاح فلا جناح، ومن زاد ألمه فمات فدمه مباح.

قضى الله في ... ولكن دماء

وعظ عبد الواحد بن زيد يوماً فصاح به رجل: يا أبا عبيدة كف فقد كشفت بالموعظة قناع قلبي، فأتم عبد الواحد موعظته فمات الرجل.

صاح رجل في حلقة الشبلي فمات، فاستعدى أهله على الشبلي إلى الخليفة فقال الشبلي: نفس رقت، فحنت، فدعيت، فأجابت، فما ذنب الشبلي!؟.

فكر في أفعاله ثم ... لا خير في الحب بغير

قد جئتكم مستأمنا ... لا تقتلوني قد رميت

إنما يصلح التأديب بالسوط من صحيح البدن ثابت القلب قوي الذراعين فيؤلم ضربه فيردع، فأما من هو سقيم البدن لا قوة له، فماذا ينفع تأديبه بالضرب!.

كان الحسن إذا خرج إلى الناس كأنه رجل عاين الآخرة ثم جاء يخبر عنها. وكانوا إذا خرجوا من عنده خرجوا وهم لا يعدون الدنيا شيئا.

وكان سفيان الثوري يتعزى بمجالسه عن الدنيا، وكان أحمد لا تذكر الدنيا في مجلسه ولا تذكر عنده.

قال بعضهم: لا تنفع الموعظة إلا إذا خرجت من القلب فإنها تصل إلى القلب فأما إذا خرجت من اللسان فإنها تدخل من الأذن ثم تخرج من الأخرى .

قال بعض السلف: إن العالم إذا لم يرد بموعظة وجه الله زلت موعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفا.

كان يحيى بن معاذ ينشد في مجالسه:

مواعظ الواعظ لن ... حتى يعيها قلبه أولا

يا قوم من أظلم ... قد خالف ما قاله في

أظهر بين الناس ... وبارز الرحمن لما خلا

العالم الذي لا يعمل بعلمه كمثل المصباح يضيء للناس ويحرق نفسه، قال أبوالعتاهية:

وبخت غيرك بصرا وأنت محسن
وفتيلة المصباح وتضيء للأعشى

المواعظ دريَاق الذنوب: فلا ينبغي أن يسقي الدرياق إلا طبيب حاذق معافى، فأما لذيع الهوى فهو إلى شرب الدرياق أحوج من أن يسقيه لغيره.

في بعض الكتب السالفة: إذا أردت أن تعظ الناس فعظ نفسك فإن اتعظت وإلا فاستحي مني:

وغير تقي يأمر طبيب يداوي الناس
يا أيها الرجل المعلم هلا لنفسك كان ذا
فابدأ بنفسك فانهها فإن انتهت عنه
فهناك يقبل ما بالقول منك وينفع
لا تنه عن خلق عار عليك إذا فعلت

لما جلس عبد الواحد بن زيد للوعظ أتته امرأة من الصالحات فأنشدته:

يا واعظا قام يزجر قوما عن
تنهى وأنت المريب هذا من المنكر
لو كنت أصلحت قبل عيبك أو تبت من
كان لما قلت يا موقع صدق من
تنهى عن الغي وأنت في النهي

لما حاسب المتقون أنفسهم خافوا من عاقبة الوعظ والتذكير، قال رجل لابن عباس: أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، فقال له ابن عباس: إن لم تخش أن تفضحك هذه الآيات الثلاث فافعل، وإلا فابدأ بنفسك ثم تلا: (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم) وقوله تعالى: (لم تقولون ما لا تفعلون * كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) وقوله تعالى حكاية عن شعيب عليه السلام: (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) قال النخعي كانوا يكرهون القصص لهذه الآيات الثلاث.

قيل لمطرف: ألا تعظ أصحابك ؟ قال: أكره أن أقول ما لا أفعل. تقدم بعض التابعين ليصلي بالناس إماما فالتفت إلى المأمومين يعدل الصفوف وقال: استووا فغشي عليه، فسئل عن

سبب ذلك؟ فقال: لما قلت لهم استقيموا فكرت في نفسي فقلت لها فأنت هل استقمت مع الله طرفة عين.

ما كل من وصف ولا كل من وصف
وصفت التقى حتى وريح الخطايا من

ومع هذا كله فلا بد للإنسان من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والوعظ والتذكير، ولو لم يعظ الناس إلا معصوم من الزلل، لم يعظ الناس بعد رسول الله ﷺ أحد لأنه لا عصمة لأحد بعده:

لئن لم يعظ فمن يعظ العاصين

وروى ابن أبي الدنيا بإسناد فيه ضعف، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال:(مروا بالمعروف وإن لم تعملوا به كله، وانهوا عن المنكر وإن لم تتناهوا عنه كله)، وقيل للحسن: إن فلانا لا يعظ ويقول: أخاف أن أقول مالا أفعل فقال الحسن: وأينا يفعل ما يقول، ود الشيطان أنه ظفر بهذا فلم يأمر أحد بمعروفن، ولم ينه عن منكر، وقال مالك عن ربيعة: قال سعيد بن جبير: لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء ما أمر أحد بمعروف ولا نهى عن منكر، قال مالك: وصدق ومن ذا الذي ليس فيه شيء:

من ذا الذي ما ساء ومن له الحسنى

خطب عمر بن عبد العزيز رحمه الله يوما فقال في موعظته: إني لأقول هذه المقالة وما أعلم عند أحد من الذنوب أكثر مما أعلم عندي، فاستغفر الله وأتوب إليه.

وكتب إلى بعض نوابه على بعض الأمصار كتابا يعظه فيه وقال في آخره: وإني لأعظك بهذا وإني لكثير الإسراف على نفسي غير محكم لكثير من أمري ولو أن المرء لا يعظ أخاه حتى يحكم نفسه إذا لتواكل الخير، وإذا لرفع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإذا لاستحلت المحارم وقل الواعظون والساعون لله بالنصيحة في الأرض والشيطان وأعوانه يودون أن لا يأمر أحد بمعروف ولا ينهى عن منكر، وإذا أمرهم أحد أو نهاهم عابوه بما فيه وبما ليس فيه كما قيل:

وأعلنت الفواحش وصار الناس أعوان
إذا ما عبتم عابوا لما في القوم من
وودوا لوكففنا فصار الناس
وكنا نستطب إذا فصار هلاكنا بيد

وكان بعض العلماء المشهورين له مجلس للوعظ، فجلس يوما فنظر إلى من حوله وهم خلق كثير، وما منهم إلا من قد رق قلبه أو دمعت عينه فقال لنفسه فيما بينه وبينها: كيف بك إن نجا هؤلاء وهلكت أنت ثم قال في نفسه: اللهم إن قضيت علي غدا بالعذاب فلا تعلم هؤلاء بعذابي صيانة لكرمك لا لأجلي لئلا يقال: عذب من كان في الدنيا يدل عليه، إلهي قد قيل لنبيك : اقتل ابن أبي المنافق فقال: (لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه) فامتنع من عقابه لما كان في الظاهر ينسب إليه وأنا على كل حال فإليك أنسب.

زوّر رجل شفاعة إلى بعض الملوك على لسان بعض أكابر الدولة فاطلع المزور عليه على الحال فسعى عند الملك في قضاء تلك الحاجة واجتهد حتى قضيت، ثم قال للمزور عليه: ما كنا نخيب من علق أمله بنا ورجى النفع من جهتنا، إلهي فأنت أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين فلا تخيب من علق أمله ورجاءه بك وانتسب إليك ودعا عبادك إلى بابك، وإن كان متطفلا على كرمك، ولم يكن أهلا للسمسرة بينك وبين عبادك، لكنه طمع في سعة جودك وكرمك، فأنت أهل الجود والكرم، وربما استحيا الكريم من رد من تطفل على سماط كرمه.

إن كنت لا أصلح فشأنكم صفح عن

وقوله : (لو لم تذنبوا لجاء الله بخلق جديد حتى يذنبوا فيغفر لهم)، وخرجه مسلم من وجه آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي قال:(لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ثم لجاء بقوم يذنبون ثم يستغفرون فيغفر لهم).

وفي حديث أبي أيوب عن النبي قال:(لولا أنكم تذنبون لخلق الله خلقا يذنبون ثم يغفر لهم) وفي

رواية له أيضا: (لو لم يكن لكم ذنوب يغفرها الله لجاء الله بقوم لهم ذنوب فيغفر لهم) والمراد بهذا: أن لله تعالى حكمة في إلقاء الغفلة على قلوب عباده أحيانا، حتى تقع منهم بعض الذنوب، فإنه لو استمرت لهم اليقظة التي يكونون عليها في حال سماع الذكر لما وقع منهم ذنب.

وفي إيقاعهم في الذنوب أحيانا فائدتان عظيمتان:

فائدتان عظيمتان في إيقاع الخلق في الذنوب أحيانا

أحدهما: اعتراف المذنبين بذنوبهم وتقصيرهم في حق مولاهم، وتنكيس رؤوس عجبهم، وهذا أحب إلى الله من فعل كثير من الطاعات، فإن دوام الطاعات قد توجب لصاحبها العجب، وفي الحديث: (لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أشد من ذلك العجب).

قال الحسن:لو أن ابن آدم كلما قال أصاب وكلما عمل أحسن أوشك أن يجن من العجب. قال بعضهم: ذنب أفتقر به إليه أحب إلي من طاعة أدل بها عليه، أنين المذنبين أحب إليه من زجل المسبحين، لأن زجل المسبحين ربما شابه الافتخار، وأنين المذنبين يزينه الانكسار والافتقار، في حديث: (إن الله لينفع العبد بالذنب يذنبه) قال الحسن: إن العبد ليعمل الذنب فلا ينساه، ولا يزال متخوفا منه حتى يدخل الجنة.

المقصود من زلل المؤمن ندمه، ومن تفريطه أسفه، ومن اعوجاجه تقويمه، ومن تأخره تقديمه، ومن زلقه في هوة الهوى أن يؤخذ بيده فينجى إلى نجوة النجاة.

قرة عيني لا بد أوحش بيني
قرة عيني أنا كف غريق

الفائدة الثانية: حصول المغفرة، والعفو من الله لعبده، فإن الله يحب أن يعفو ويغفر، ومن أسمائه الغفار والعفو والتواب فلو عصم الخلق فلمن كان العفو والمغفرة.

قال بعض السلف: أول ما خلق الله القلم فكتب: إني أنا التواب أتوب على من تاب، قال أبو الجلد:

قال رجل من العاملين لله بالطاعة: اللهم أصلحني صلاحا لا فساد علي بعده، فأوحى الله تعالى إليه: إن عبادي المؤمنين كلهم يسألوني مثل ما سألت، فإذا أصلحت عبادي كلهم فعلى من أتفضل وعلى من أعود بمغفرتي.

كان بعض السلف يقول: لو أعلم أحب الأعمال إلى الله لأجهدت نفسي فيها فرأى في منامه قائلا يقول له: إنك تريد مالا يكون، إن الله يحب أن يغفره، قال يحيى بن معاذ: لو لم يكن العفو أحب الأشياء إليه لم يبتل بالذنب أكرم الخلق عليه.

يا رب أنت رجائي وفيك حسنت ظني
يا رب فاغفر ذنوبي وعافني واعف
العفو منك إلهي والذنب قد جاء مني
والظن فيك جميل حقق بحقك ظني

ذكر الخلق ومادته

(وقوله لأبي هريرة لما سأله: مم خلق الخلق؟ فقال له: من الماء. يدل على أن الماء أصل جميع المخلوقات ومادتها وجميع المخلوقات خلقت منه).

وفي المسند من وجه آخر عن أبي هريرة قال: قلت يا رسول الله إذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني فأنبئني عن كل شيء ؟ فقال:(كل شيء خلق من ماء) وقد حكى ابن جرير وغيره عن ابن مسعود وطائفة من السلف أن أول المخلوقات الماء.

وروى الجوزجاني بإسناده عن عبد الله بن عمرو أنه سئل عن بدء الخلق ؟ فقال: من تراب وماء وطين ومن نار وظلمة، فقيل له: فما بدء الخلق الذي ذكرت ؟ قال: من ماء من ينبوع وقد أخبر الله تعالى في كتابه أن الماء كان موجودا قبل خلق السماوات والأرض، فقال تعالى: (وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء)

وفي صحيح البخاري عن عمران بن حصين عن النبي قال: (كان الله ولم يكن شيء قبله) وفي رواية: (معه وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء ثم خلق السماوات والأرض)

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو عن النبي قال: (إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء) وروى ابن جرير وغيره عن ابن عباس: (أن الله عز وجل كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئا غير ما خلق قبل الماء، فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخانا فارتفع فوق الماء، فسمى عليه فسمى سماء ثم أيبس الماء فجعله أرضا واحدة ثم فتقها فجعلها سبع أرضين، ثم استوى إلى السماء وهي دخان، وكان ذلك الدخان من نفس الماء حين تنفس ثم جعلها سماء واحدة، ثم فتقها فجعلها سبع سموات).

وعن وهب: أن العرش كان قبل أن تخلق السموات والأرض على الماء، فلما أراد الله أن يخلق السماوات والأرض قبض من صفات الماء قبضة، ثم فتح القبضة فارتفعت دخانا، ثم قضاهن سبع سموات في يومين، ثم أخذ طينة من الماء فوضعها في مكان البيت، ثم دحا الأرض منها.

وقال بعضهم: خلق الله الأرض أولا ثم خلق السماء، ثم دحا الأرض بعد أن خلق السماء، وقيل: خلق الله تعالى زمردة خضراء كغلظ السماوات والأرض ثم نظر إليها نظر العظمة فانماعت ـ يعني ذابت ـ فصارت ماء فمن ثم يرى الماء دائما يتحرك من تلك الهيبة، ثم إن الله تعالى رفع من البحر بخارا، وهو الدخان الذي ذكره في قوله: (ثم استوى إلى السماء وهي دخان) فخلق السماء من الدخان، وخلق الأرض من الماء، والجبال من موج الماء.

وقال وهب: أول ما خلق الله تعالى مكانا مظلما، ثم خلق جوهرة فأضاءت ذلك المكان، ثم نظر إلى الجوهرة نظرة الهيبة فصارت ماء، فارتفع بخارها وزبدها فخلق من البخار السماوات ومن الزبد الأرضين.

وروى عبد الله بن عمرو عن النبي أنه قال: إن الله عز وجل خلق خلقه من ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره فمن أصابه يومئذ من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل) وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه

لكعب الأحبار: ما أول شيء ابتدأ الله تعالى من خلقه ؟ قال كعب: كتب الله كتابا لم يكتبه قلم ولا دواة أي مداد كتابه الزبرجد واللؤلؤ والياقوت: إنني أنا الله لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي وأن محمدا عبدي ورسولي سبقت رحمتي غضبي قال كعب: فإذا كان يوم القيامة أخرج الله ذلك الكتاب فيخرج من النار مثلي عدد أهل الجنة فيدخلهم الجنة وقال سلمان وعبد الله بن عمرو: إن لله تعالى مائة رحمة كما بين السماء والأرض فأنزل منها رحمة واحدة إلى أهل الدنيا فيها يتراحم الجن والإنس وطير السماء وحيتان الماء وما بين الهواء ودواب الأرض وهوامها وادخر عنده تسعة وتسعين رحمة فإذا كان يوم القيامة أنزل تلك الرحمة إلى ما عنده فيرحم بها عباده والآثار في هذا الباب كثيرة

وهذا كله يبين أن السموات والأرض خلقت من الماء والخلاف في أن الماء هل هو أول المخلوقات أم لا ؟ مشهور وحديث أبي هريرة يدل على أن الماء مادة جميع المخلوقات وقد دل القرآن على أن الماء مادة جميع الحيوانات قال الله تعالى: (وجعلنا من الماء كل شيء حي) وقال تعالى: (والله خلق كل دابة من ماء) وقول من قال: أن المراد بالماء النطفة التي يخلق منها الحيوانات بعيد لوجهين أحدهما: أن النطفة لا تسمى ماء مطلقا بل مقيدا لقوله تعالى: (خلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب) وقوله تعالى: (ألم نخلقكم من ماء مهين) والثاني: أن من الحيوانات ما يتولد من غير نطفة كدود الخل والفاكهة ونحو ذلك فليس كل حيوان مخلوقا من نطفة والقرآن دل على خلق جميع ما يدب وما فيه حياة من ماء فعلم بذلك أن أصل جميعها الماء المطلق ولا ينافي هذا قوله تعالى: (والجان خلقناه من قبل من نار السموم) وقول النبي ﷺ: (خلقت الملائكة من نور) فإن حديث أبي هريرة دل على أن أصل النور والنار الماء كما أن أصل التراب الذي خلق منه آدم الماء فإن آدم خلق من طين والطين تراب مختلط بماء أو التراب خلق من الماء كما تقدم عن ابن عباس وغيره وزعم مقاتل: أن الماء خلق من

النور وهو مردود بحديث أبي هريرة هذا وغيره ولا يستنكر خلق النار من الماء فإن الله عز وجل جمع بقدرته بين الماء والنار في الشجر الأخضر وجعل ذلك من أدلة القدرة على البعث وذكر الطبائعيون أن الماء بانحداره يصير بخارا والبخار ينقلب هواء والهواء ينقلب نارا والله أعلم

ذكر وصف الجنة

(وقوله لأبي هريرة حين سأله عن بناء الجنة فقال: لبنة من ذهب ولبنة من فضة، وملاطها المسك الأذفر وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت وتربتها الزعفران) وقد روي هذا عن النبي من حديث ابن عمر مرفوعا أخرجه الطبراني، فهذه أربعة أشياء:

أحدها: بناء الجنة: ويحتمل أن المراد بنيان قصورها ودورها، ويحتمل أن يراد بناء حائطها وسورها المحيط بها وهو أشبه وقد روي من وجه آخر عن أبي هريرة مرفوعا وموقوفا وهو أشبه: حائط الجنة لبنة من فضة ولبنة من ذهب ودرجها الياقوت واللؤلؤ. قال: وكنا نتحدث: أن رضراض أنهارها اللؤلؤ وترابها الزعفران) وفي مسند البزار عن أبي سعيد مرفوعا: خلق الله الجنة لبنة من فضة ولبنة من ذهب وملاطها المسك فقال لها: تكلمي فقالت قد أفلح المؤمنون فقالت الملائكة: طوبى لك منزل الملوك) ومما يبين أن المراد ببناء الجنة في هذه الأحاديث بناء سورها المحيط بها ما في الصحيحين عن أبي موسى عن النبي قال: جنتان من ذهب وآنيتهما وما فيهما وجنتان من فضة وآنيتهما وما فيهما) و (قد روي عن أبي موسى مرفوعا وموقوفا: (جنتان من ذهب للمقربين وجنتان من فضة لأصحاب اليمين) وفي الصحيح أيضا عن النبي أنه قال: (إنها جنان كثيرة) وقد روي: (أن بناء بعضها من در وياقوت). وخرّج ابن لأبي الدنيا من حديث أنس مرفوعا: خلق الله جنة عدن بيده لبنة بيضاء ولبنة من

ياقوتة حمراء ولبنة من زبرجد خضراء ملاطها المسك وحصباؤها اللؤلؤ وحشيشها الزعفران ثم قال لها: انطقي قالت: قد أفلح المؤمنون قال وعزتي لا يجاورني فيك بخيل).

وروى عطية عن أبي سعيد قال: إن الله خلق جنة عدن من ياقوتة حمراء ثم قال لها: تزيني فتزينت ثم قال لها: تكلمي فقالت: طوبى لمن رضيت عنه، ثم أطبقها وعلقها بالعرش، فهي تفتح في كل سحر فذلك برد السحر) وعن ابن عباس قال: كان عرش الله على الماء ثم اتخذ دونها أخرى وطبقهما بلؤلؤة واحدة لا تعلم الخلائق ما فيهما وهما اللتان لا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون. وذكر صفوان بن عمرو عن بعض مشايخه قال: الجنة مائة درجة أولها: درجة فضة أرضها فضة ومساكنها فضة وترابها المسك، والثانية: ذهب وأرضها ذهب وآنيتها ذهب وترابها المسك، والثالثة: لؤلؤ وأرضها لؤلؤ وآنيتها لؤلؤ وترابها المسك وسبع وتسعون بعد ذلك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ثم تلا (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون).

وفي(صحيح مسلم) عن المغيرة بن شعبة يرفعه: سأل موسى ربه قال: يا رب ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ قال: هو رجل يجيء بعدما أدخل أهل الجنة الجنة، فيقال له: ادخل الجنة فيقول: يا رب كيف وقد أخذ الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم ؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا ؟ فيقول رضيت يا رب، فيقول لك ذلك ومثله ومثله ومثله، فقال له في الخامسة: رضيت يا رب، فيقال: هذا لك وعشرة أمثاله ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك، فيقول: رضيت يا رب، قال: فأعلاهم منزلة ؟ قال: أولئك الذين أردت غرست كرامتهم بيدي، وختمت عليها، فلم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر، قال: ومصداقه في كتاب الله: (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين).

الثاني: ملاط الجنة: وأنه المسك الأذفر، وقد تقدم مثل ذلك في غير حديث، والملاط: هو الطين، ويقال: الطين الذي يبنى منه البنيان والأذفر

الخالص.

ففي الصحيحين عن أنس عن النبي قال: دخلت الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك) والجنابذ: مثل القباب، وقد قيل: إنه أراد بترابها ما خالطه الماء، وهو طينها، كما في صحيح البخاري عن أنس عن النبي أنه قال في الكوثر: طينه المسك الأذفر.

وقد قيل في تأويل قوله تعالى: (ختامه مسك): إن المراد بالختام: ما يبقى في سفل الشراب من التفل وهذا يدل على أن أنهارها تجري على المسك ولذلك يرسب منه في الإناء في آخر الشراب كما يرسب الطين في آنية الماء في الدنيا

الثالث: حصباء الجنة: وأنه اللؤلؤ والياقوت والحصباء: الحصى الصغار وهو الرضراض، وفي المسند عن أنس عن النبي في ذكر الكوثر: أن رضراضه اللؤلؤ) وفي رواية: (حصباؤه اللؤلؤ)، وفي الترمذي من حديث ابن عمر عن النبي : أن مجراه على الدر والياقوت) وفي الطبراني من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي قال: حاله المسك الأبيض ورضراضه الجوهر وحصباؤه اللؤلؤ) وفي المسند من حديث ابن مسعود عن النبي قال: حاله المسك ورضراضه التوم) والتوم: الجوهر والحال: الطين قال أبوالعالية: قرأت في بعض الكتب: يا معشر الربانيين من أمة محمد انتدبوا لدار أرضها زبرجد أخضر تجري عليها أنهار الجنة فيها الدر واللؤلؤ والياقوت، وسورها زبرجد أخضر متدليا عليها أشجار الجنة بثمارها.

الرابع: تراب الجنة: وأنه الزعفران وقد سبق في رواية أخرى: (الزعفران والورس) وقد قيل: إن المراد بالتراب ههنا: تربة الأرض التي لا ماء عليها، فأما ما كان عليه ماء، فإنه مسك كما سبق.

وسبق أيضا في بعض الروايات حشيشها الزعفران، وهو نبات أرضها وترابها فأما حديث ترابها المسك: فقد قيل: إنه محمول على تراب

يخالطه الماء، كما تقدم. وقيل: إن المراد: أن ريح ترابها ريح مسك، ولونه لون الزعفران. ويشهد لهذا حديث الكوثر: (إن حاله المسك الأبيض)، فريحه ريح المسك، ولونه مشرق لا يشبه لون مسك الدنيا بل هو أبيض، وقد يكون منه أبيض ومنه أصفر، والله أعلم.

وفي صحيح مسلم من حديث أبي سعيد: أن النبي سأل ابن الصياد عن تربة الجنة: فقال: درمكة بيضاء مسك خالص فصدقه النبي) وفي رواية: أن ابن صياد سأل النبي وصدقه. وفي المسند والترمذي، عن البراء بن عازب أن النبي قال:(تربة الجنة درمكة ثم سأل اليهود ؟ فقالوا: خبزة فقال: الخبز من الدرمك) والتي تجتمع به هذه الأحاديث كلها أن تربة الجنة في لونها بيضاء، ومنها ما يشبه لون الزعفران في بهجته وإشراقه، وريحها ريح المسك الأذفر الخالص وطعمها طعم الخبز الحواري الخالص، وقد يختص هذا بالأبيض منها، فقد اجتمعت لها الفضائل كلها لا حرمنا الله ذلك برحمته وكرمه.

وقوله : من يدخلها ينعم لا يبأس ويخلد لا يموت لا تبلى ثيابهم ولا يفنى شبابهم) إشارة إلى بقاء الجنة وبقاء جميع ما فيها من النعيم، وإن صفات أهلها الكاملة من الشباب لا تتغير أبدا، وملابسهم التي عليهم من الثياب لا تبلى أبدا، وقد دل القرآن على مثل هذا في مواضع كثيرة،كقوله:(وجنات لهم فيها نعيم مقيم) وقوله تعالى: (أكلها دائم وظلها)، وقوله تعالى: (خالدين فيها أبدا) في مواضع كثيرة، وفي (صحيح مسلم) عن أبي هريرة عن النبي قال:من يدخل الجنة ينعم، لا يبأس، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه)، وفيه أيضا عن النبي قال: (إذا دخل أهل الجنة الجنة، نادى مناد: أن لكم أن تنعموا ولا تبأسوا أبدا، وأن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا، وأن لكم أن تشبوا ولا تهرموا أبدا (ونودوا أن تلكم الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون) وفي رواية لغيره زيادة: (وأن تحيوا فلا تموتوا أبدا) وفي الترمذي

مرفوعا: (أهل الجنة جرد مرد كحل لا يفنى شبابهم ولا تبلى ثيابهم)، وعن أبي سعيد مرفوعا: (يدخل أهل الجنة أبناء ثلاثين لا يزيدون عليها أبدا)، ومن حديث علي مرفوعا: (إن في الجنة مجتمعا للحور العين يرفعن بأصوات لم يسمع الخلائق مثلها يقلن: نحن الخالدات فلا نبيد، ونحن الناعمات فلا نبأس، ونحن الراضيات فلا نسخط، طوبى لمن كان لنا وكنا له) وخرج الطبراني من حديث ابن عمر مرفوعا: (إن مما يتغنين به الحور العين: نحن الخالدات فلا نمتنه نحن الآمنات فلا نخفنه نحن المقيمات فلا نظعنه) ومن حديث أم سلمة مرفوعا: (أن نساء أهل الجنة يقلن: نحن الخالدات فلا نموت أبدا، ونحن الناعمات فلا نبأس أبدا، ونحن المقيمات فلا نظعن أبدا، ونحن الراضيات فلا نسخط أبدا، طوبى لمن كنا له وكان لنا) وفيما ذكره في صفة من يدخل الجنة تعريض بذم الدنيا الفانية، فإنه من يدخلها وإن نعم فيها فإنه يبأس، ومن أقام فيها فإنه يموت ولا يخلدو ويفنى شبابهم وتبلى ثيابهم وتبلى أجسامهم.

وفي القرآن نظير هذا وهذا التعريض بذم الدنيا وفنائها مع مدح الآخرة وذكر كمالها وبقائها، كما قال تعالى: (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب * قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد) وقال الله تعالى: (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها) الآية ثم قال: (والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم * للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) وقال الله تعالى: (وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة) الآية، وقال الله تعالى: (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض

فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا * المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا)، وقال الله تعالى: (وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وأن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون)، وقال الله تعالى: (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته) إلى قوله: (سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله) وقال الله تعالى: (بل تؤثرون الحياة الدنيا * والآخرة خير وأبقى) وقال الله تعالى: (أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل)، وقال الله تعالى عن مؤمن آل فرعون أنه قال لقومه: (يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار) والمتاع: هو ما يتمتع به صاحبه برهة ثم ينقطع ويفنى، فما عيبت الدنيا بأكثر من ذكر فنائها وتقلب أحوالها،وهو أدل دليل على انقضائها وزوالها، فتتبدل صحتها بالسقم ووجودها بالعدم وشبيبتها بالهرم، ونعيمها بالبؤس، وحياتها بالموت، فتفارق الأجسام النفوس، وعمارتها بالخراب، واجتماعها بفرقة الأحباب، وكل ما فوق التراب تراب، قال بعض السلف في يوم عيد وقد نظر إلى كثرة الناس وزينة لباسهم: هل ترون إلا خرقا تبلى أو لحما يأكله الدود غدا؟. كان الإمام أحمد رضي الله عنه يقول: يا دار تخربين ويموت سكانك وفي الحديث: (عجبا لمن رأى الدنيا وسرعة تقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها). قال الحسن: إن الموت قد فضح الدنيا فلم يدع لذي لب بها فرحا. وقال مطرف: إن هذا الموت قد أفسد على أهل النعيم نعيمهم، فالتمسوا نعيما لا موت فيه. وقال يونس بن عبيد: ما ترك ذكر الموت لنا قرة عين في أهل ولا مال. وقال يزيد الهاشمي: أمن أهل الجنة الموت فطاب لهم العيش وأمنوا الأسقام، فهنيئا لهم في جوار الله طول المقام.

عيوب الدنيا بادية وهي بعبرها ومواعظها منادية، لكن حبها يعمي ويصم فلا يسمع محبها نداءها، ولا

يرى كشفها للغير وإيذاءها.

قد نادت الدنيا لوكان في ... كم واثق بالعمر وجامع بددت ما

كم قد تبدل نعيمها بالضر والبؤس كم أصبح من هو واثق بملكها، وأمسى وهو منها قنوط بؤوس. قالت بعض بنات ملوك العرب الذين نكبوا: أصبحنا وما في الأرض أحد إلا وهو يحسدنا ويخشانا، وأمسينا وما في العرب أحد إلا وهو يرحمنا.

دخلت أم جعفر بن يحيى البرمكي على قوم في عيد أضحى تطلب جلد كبش تلبسه وقالت: هجم علي مثل هذا العيد وعلى رأسي أربعمائة وصيفة قائمة، وأنا أزعم أن ابني جعفرا عاق لي.

كانت أخت أحمد بن طولون صاحب مصر كثيرة السرف في إنفاق المال حتى أنها زوجت بعض لعبها فأنفقت على وليمة عرسها مائة ألف دينار، فما مضى إلا قليل حتى رئيت في سوق من أسواق بغداد وهي تسأل الناس. اجتاز بعض الصالحين بدار فيها فرح وقائلة تقول في غنائها:

ألا يا دار لا ولا يزري ...

ثم اجتاز بها عن قريب وإذا الباب مسود، وفي الدار بكاء وصراخ، فسأل عنهم ؟ فقيل: مات رب الدار فطرق الباب وقال: سمعت من هذه الدار قائلة تقول: كذا وكذا، فبكت امرأة وقالت: يا عبد الله إن الله يغيِّر ولا يتغيَّر، والموت غاية كل مخلوق فانصرف من عندهم باكيا، بعث أبوبكر الصديق رضي الله عنه في خلافته وفدا إلى اليمن، فاجتازوا في طريقهم بماء من مياه العرب عنده قصور مشيدة، وهناك مواش عظيمة، ورقيق كثير، ورأوا نسوة كثيرة مجتمعات في عرس لهن، وجارية بيدها دف، تقول:

معاشرِ الحساد كذا نكون ما بقينا ...

فنزلوا بقربهم فأكرمهم سيد الماء، واعتذر إليهم باشتغاله بالعرس، فدعوا له وارتحلوا، ثم إن بعض أولئك الوفد، أرسلهم معاوية إلى اليمن فمروا بالقرب من ذلك الماء، فعدلوا إليه لينزلوا فيه، فإذا القصور المشيدة قد خربت كلها، وليس هناك ماء ولا

أنيس، ولم يبق من تلك الآثار إلا تل خراب، فذهبوا إليه، فإذا عجوز عمياء تأوي إلى نقب في ذلك التل فسألوها عن أهل ذلك الماء، فقالت: هلكوا كلهم فسألوها عن ذلك العرس المتقدم، فقالت: كانت العروس أختي، وأنا كنت صاحبة الدف، فطلبوا أن يحملوها معهم، فأبت وقالت: عزيز علي أن أفارق هذه العظام البالية حتى أصير إلى ما صارت إليه، فبينما هي تحدثهم إذ مالت فنزعت نزعا يسيرا، ثم ماتت، فدفنوها وانطلقوا.

حمل إلى سليمان بن عبد الملك في خلافته من خراسان ستة أحمال مسك إلى الشام، فأدخلت على ابنه أيوب وهو ولي عهده، فدخل عليه الرسول بها في داره، فدخل إلى دار بيضاء، وفيها غلمان عليهم ثياب بياض، وحليتهم فضة، ثم دخل إلى دار صفراء، فيها غلمان عليهم ثياب صفر، وحليتهم الذهب، ثم دخل إلى دار خضراء، فيها غلمان عليهم ثياب خضر وحليتهم الزمرد، ثم دخل على أيوب، وهو وجاريته على سرير، فلم يعرف أحدهما من الآخر لقرب شبههما، فوضع المسك بين يديه، فانتهبه كله الغلمان، ثم خرج الرسول فغاب بضعة عشر يوما، ثم رجع فمر بدار أيوب، وهي بلاقع، فسأل عنهم ؟ فقيل له: أصابهم الطاعون فماتوا .

كان يزيد بن عبد الملك ـ وهو الذي انتهت إليه الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز ـ له جارية تسمى حبابة، وكان شديد الشغف بها، ولم يقدر على تحصيلها إلا بعد جهد شديد، فلما وصلت إليه، خلى بها يوما في بستان وقد طار عقله فرحا بها، فبينما هو يلاعبها ويضاحكها، إذ رماها بحبة رمان، أو حبة عنب وهي تضحك، فدخلت في فيها فشرقت بها فماتت، فما سمحت نفسه بدفنها حتى أراحت، فعوتب على ذلك فدفنها، ويقال: إنه نبشها بعد دفنها، ويروى: إنه دخل بعد موتها إلى خزائنها ومقاصيرها ومعها جارية لها فتمثلت الجارية ببيت:

كفى حزنا بالواله منازل من يهوى

فصاح وخر مغشيا عليه، فلم يفق إلى أن مضى هويُ من الليل ثم أفاق، فبكى بقية ليلته ومن الغد،

فدخلوا عليه فوجدوه ميتا.

قال بعض السلف: ما من حبرة إلا يتبعها عبرة * وما كان ضحك في الدنيا إلا كان بعده بكاء ، من عرف الدنيا حق معرفتها حقرها وأبغضها، كما قيل

أما لو بيعت الدنيا أنفت لعاقل أن

ومن عرف الآخرة وعظمتها ورغب فيها، عباد الله هلموا إلى دار لا يموت سكانها ولا يخرب بنيانها، ولا يهرم شبابها ولا يتغير حسنها وإحسانها، هواؤها النسيم وماؤها التسنيم، يتقلب أهلها في رحمة أرحم الراحمين، ويتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم كل حين: (دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين).

قال عون بن عبد الله بن عتبة: بنى ملك ممن كان قبلنا مدينة فتنوق في بنائها ثم صنع طعاما ودعا الناس إليه، وأقعد على أبوابها ناسا يسألون كل من خرج هل رأيتم عيبا ؟ فيقولون لا، حتى جاء في آخر الناس قوم عليهم أكسية فسألوهم: هل رأيتم عيبا ؟ فقالوا: عيبين فأدخلوهم على الملك فقال: هل رأيتم عيبا ؟ فقالوا عيبين قال: وما هما ؟ قالوا: تخرب ويموت صاحبها، قال: فتعلمون دار لا تخرب ولا يموت صاحبها ؟ قالوا نعم، فدعوه، فاستجاب لهم وانخلع من ملكه وتعبد معهم، فحدث عون بهذا الحديث عمر بن عبد العزيز فوقع منه موقعا حتى هم أن يخلع نفسه من الملك، فأتاه ابن عمه مسلمة فقال: اتق الله يا أمير المؤمنين في أمة محمد فوالله لئن فعلت ليقتتلن بأسيافهم قال: ويحك يا مسلمة حملت ما لا أطيق وجعل يرددها ومسلمة يناشده حتى سكن.

وظائف شهر الله المحرم

ويشتمل على مجالس: المجلس الأول في فضل شهر الله المحرم وعشره الأول

خرج مسلم، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي قال:(أفضل الصيام بعد شهر رمضان، شهر الله الذي تدعونه المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة قيام الليل). الكلام على هذا الحديث في فصلين في أفضل التطوع: بالصيام وأفضل التطوع

بالقيام.

الفصل الأول: أفضل التطوع بالصيام

وهذا الحديث صريح في أن أفضل ما تطوع به من الصيام بعد رمضان صوم شهر الله المحرم، وقد يحتمل أن يراد: أنه أفضل شهر تطوع بصيامه كاملا بعد رمضان، فأما بعض التطوع ببعض شهر فقد يكون أفضل من بعض أيامه كصيام يوم عرفه أو عشر ذي الحجة أو ستة أيام من شوال ونحو ذلك. ويشهد لهذا ما خرجه الترمذي من حديث علي أن رجلا أتى النبي فقال: يا رسول الله أخبرني بشهر أصومه بعد شهر رمضان ؟ قال رسول الله : إن كنت صائما شهرا بعد رمضان فصم المحرم، فإنه شهر الله، وفيه يوم تاب الله فيه على قوم ويتوب على آخرين). وفي إسناده مقال، ولكن يقال: أن النبي كان يصوم شهر شعبان ولم ينقل أنه كان يصوم المحرم، إنما كان يصوم عاشوراء. وقوله في آخر سنة: (لئن عشت إلى قابل لأصومنّ التاسع) يدل على أنه كان يصوم التاسع قبل ذلك.وقد أجاب الناس عن هذا السؤال بأجوبة فيها ضعف، والذي ظهر لي والله أعلم أن التطوع بالصيام نوعان:

أحدهما: التطوع المطلق بالصوم فهذا أفضله المحرم كما أن أفضل التطوع المطلق بالصلاة قيام الليل.

والثاني: ما صيامه تبع لصيام رمضان قبله وبعده، فهذا ليس من التطوع المطلق بل صيامه تبع لصيام رمضان، وهو ملتحق بصيام رمضان. ولهذا قيل: إن صيام ستة أيام من شهر شوال يلتحق بصيام رمضان، ويكتب بذلك لمن صامها مع رمضان صيام الدهر فرضا، وقد روي أن أسامة بن زيد كان يصوم الأشهر الحرم، فأمره النبي بصيام شوال فترك الأشهر الحرم وصام شوالا. وسنذكر ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى.

فهذا النوع من الصيام ملتحق برمضان وصيامه أفضل التطوع مطلقا، فأما التطوع المطلق فأفضله

صيام الأشهر الحرم، وقد روي عن النبي أنه أمر رجلا أن يصوم الأشهر الحرم، وسنذكره في موضع آخر إن شاء الله تعالى. وأفضل صيام الأشهر الحرم شهر الله المحرم ويشهد لهذا أنه قال في هذا الحديث: (وأفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل) ومراده بعد المكتوبة: ولواحقها من سننها الرواتب، فإن الرواتب قبل الفرائض وبعدها أفضل من قيام الليل عند جمهور العلماء، لالتحاقها بالفرائض، وإنما خالف في ذلك بعض الشافعية، فكذلك الصيام قبل رمضان وبعده ملتحق برمضان وصيامه أفضل من صيام الأشهر الحرم، وأفضل التطوع المطلق بالصيام صيام المحرم.

وقد اختلف العلماء في أي الأشهر الحرم أفضل؟ فقال الحسن وغيره أفضلها شهر الله المحرم، ورجحه طائفة من المتأخرين. وروى وهب بن جرير عن قرة بن خالد عن الحسن قال: إن الله افتتح السنة بشهر حرام، وختمها بشهر حرام، فليس شهر في السنة بعد شهر رمضان أعظم عند الله من المحرم. وكان يسمى شهر الله الأصم من شدة تحريمه. وقد روي عنه مرفوعا ومرسلا، قال آدم بن أبي إياس: حدثنا أبو الهلال الراسبي عن الحسن قال: قال رسول الله : (أفضل الصلاة بعد المكتوبة الصلاة في جوف الليل الأوسط، وأفضل الشهور بعد شهر رمضان المحرم، وهو شهر الله الأصم)، وخرج النسائي من حديث أبي ذر قال: سألت النبي : أي الليل خير وأي الأشهر أفضل ؟ فقال: (خير الليل جوفه وأفضل الأشهر شهر الله الذي تدعونه المحرم). وإطلاقه في هذا الحديث أفضل الأشهر محمول على ما بعد رمضان، كما في رواية الحسن المرسلة، وقال سعيد بن جبير وغيره:(أفضل الأشهر الحرم ذو القعدة أو ذو الحجة)، بل قد قيل: إنه أفضل الأشهر مطلقا، وسنذكره في موضعه إن شاء الله تعالى. وزعم بعض الشافعية أن أفضل الأشهر الحرم رجب، وهو قول مردود.

وأفضل شهر الله المحرم عشره الأول، وقد زعم

يمان بن رآب: أنه العشر الذي أقسم الله به في كتابه، ولكن الصحيح أن العشر المقسم به عشر ذي الحجة، كما سيأتي في موضعه إن شاء الله تعالى.
وقال أبو عثمان النهدي: كانوا يعظمون ثلاث عشرات، العشر الأخير من رمضان، والعشر الأول من ذي الحجة، والعشر الأول من محرم. وقد وقع هذا في بعض نسخ (كتاب فضائل العشر) لابن أبي الدنيا، عن أبي عثمان عن أبي ذر عن النبي : (أنه كان يعظم هذه العشرات الثلاث) وليس ذلك بمحفوظ، وقد قيل: إن العشر الذي أتم الله به ميقات موسى عليه السلام أربعين ليلة، وإن التكلم وقع في عاشره. وروي عن وهب بن منبه قال: أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام أن مر قومك أن يتوبوا إلي في أول عشر المحرم، فإذا كان يوم العاشر فليخرجوا إلي أغفر لهم. وعن قتادة أن الفجر الذي أقسم الله به في أول سورة الفجر هو فجر أول يوم من المحرم تنفجر منه السنة.

ولما كانت الأشهر الحرم أفضل الأشهر بعد رمضان أو مطلقا، وكان صيامها كلها مندوبا إليه، كما أمر به النبي ا– وكان بعضها ختام السنة الهلالية، وبعضها مفتاحا لها، فمن صام شهر ذي الحجة سوى الأيام المحرم صيامها منه وصام المحرم فقد ختم السنة بالطاعة وافتتحها بالطاعة، فيرجى أن تكتب له سنته كلها طاعة، فإن من كان أول عمله طاعة وآخره طاعة، فهو في حكم من استغرق بالطاعة ما بين العملين. وفي حديث مرفوع: (ما من حافظين يرفعان إلى الله صحيفة فيرى في أولها وفي آخرها خيرا إلا قال الله لملائكته أشهدكم أني غفرت لعبدي ما بين طرفيها)خرجه الطبراني وغيره. وهو موجود في بعض نسخ كتاب الترمذي. وفي حديث آخر مرفوع: (ابن آدم اذكرني من أول النهار ساعة ومن آخر النهار ساعة أغفر لك مابين ذلك إلا الكبائر أو تتوب منها) وقال ابن مبارك: من ختم نهاره بذكر،كتب نهاره كله ذكرا. يشير إلى أن الأعمال بالخواتيم، فإذا كان البداءة والختام ذكرا فهو أولى أن يكون

حكم الذكر شاملا للجميع، ويتعين افتتاح العام بتوبة نصوح تمحو ما سلف من الذنوب السالفة في الأيام الخالية.

قطعت شهور العام ولم تحترم فيما
فلا رجبا وافيت فيه ولا صمت شهر
ولا في ليالي عشر مضى كنت قواما
فهل لك أن تمحو وتبكي عليها
وتستقبل العام لعلك أن تمحوبها

وقد سمى النبي ﷺ المحرم شهر الله، وإضافته إلى الله تدل على شرفه وفضله، فإن الله تعالى لا يضيف إليه إلا خواص مخلوقاته، كما نسب محمدا وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وغيرهم من الأنبياء صلوات الله عليهم إلى عبوديته، ونسب إليه بيته وناقته. ولما كان هذا الشهر مختصا بإضافته إلى الله تعالى، وكان الصيام من بين الأعمال مضافا إلى الله تعالى، فإنه له من بين الأعمال ناسب أن يختص هذا الشهر المضاف إلى الله بالعمل المضاف إليه المختص به وهو الصيام. وقد قيل في معنى إضافة هذا الشهر إلى الله عز وجل: إنه إشارة إلى أن تحريمه إلى الله عز وجل ليس لأحد تبديله،كما كانت الجاهلية يحلونه ويحرمون مكانه صفرا، فأشار إلى شهر الله الذي حرمه فليس لأحد من خلقه تبديل ذلك وتغييره:

شهر الحرام مبارك والصوم فيه
وثواب صائمه لوجه في الخلد عند

الصيام سر بين العبد وبين ربه، ولهذا يقول الله تبارك وتعالى: (كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، إنه ترك شهوته وطعامه وشرابه من أجلي). وفي الجنة باب يقال له: الريان لا يدخل منه إلا الصائمون، فإذا دخلوا أغلق فلم يدخل منه غيرهم، وهو جنة للعبد من النار، كجنة أحدكم من القتال. وفي المسند عن النبي ﷺ قال: من صام يوما ابتغاء وجه الله تعالى بعّده الله من نار جهنم كبعد غراب طار وهو فرخ حتى مات هرما) وفيه أن أبا

أمامة قال للنبي ﷺ: أوصني ؟ قال: (عليك بالصوم فإنه عدل له) فكان أبو أمامة وأهله يصومون فإذا رؤي في بيتهم دخان بالنهار، علم أنه قد نزل بهم ضيف، وممن سرد الصوم: عمر وأبو طلحة وعائشة وغيرهم من الصحابة وخلق كثير من السلف، وممن صام الأشهر الحرم كلها ابن عمر والحسن البصري وغيرهما.

قال بعضهم: إنما هوغداء وعشاء، فإن أخرت غداءك إلى عشائك أمسيت وقد كتبت في ديوان الصائمين.

(للصائم فرحتان فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه) إذا وجد ثواب صيامه مدخورا، سمع بعضهم مناديا ينادي على السحور في رمضان: يا ما خبأنا للصوام، فانتبه لذلك وسرد الصوم وروي: أن الصائمين توضع لهم مائدة تحت العرش، فيأكلون والناس في الحساب، فيقول الناس: ما بال هؤلاء يأكلون ونحن نحاسب ؟ فيقال: كانوا يصومون وأنتم تفطرون. وروي: أنهم يحكمون في ثمار الجنة، والناس في الحساب، روى ذلك ابن أبي الدنيا في (كتاب الجوع)، قال الله تعالى: (والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما) وقال تعالى: (كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية). قال مجاهد وغيره: نزلت في الصوم، من ترك لله طعامه وشرابه وشهوته عوضه الله خيرا من ذلك طعاما وشرابا لا ينفذ وأزواجا لا تموت، وفي التوراة: طوبى لمن جوع نفسه ليوم الشبع الأكبر، طوبى لمن ظمأ نفسه اليوم ليوم الري الأكبر، طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لموعد غيب لم يره، طوبى لمن ترك طعاما ينفذ في دار لدار (أكلها دائم وظلها).

من يرد ملك الجنان فليذر عنه التواني
وليقم في ظلمة يل إلى نور القرآن
وليصل صوما إنِ هذا العيش

إنما العيش جوار الله في دار الأمان

كان بعض الصالحين يكثر الصوم، فرأى في منامه كأنه دخل الجنة، فنودي من ورائه يا فلان تذكر أنك صمت لله يوما قط ؟ قال: إي والله يوم ويوم ويوم فإذا صواني النثار قد أخذته يمنة ويسرة.كان بعض الصالحين قد صام حتى انحنى وانقطع صوته فمات فرأى بعض أصحابه في المنام فسئل عن حاله؟ فقال:

قد كسي حلة البهاء وطافت بالأباريق

ثم حلي وقيل يا فلعمري لقد براك

صام بعض التابعين حتى اسوّد من طول صيامه. وصام الأسود بن يزيد حتى اخضر جسمه واصفر، فكان إذا عوتب في رفقه بجسده، يقول: كرامة هذا الجسد أريد. وصام بعضهم حتى وجد طعم دماغه في حلقه. كان بعضهم يسرد الصوم فمرض وهو صائم، فقالوا له: افطر فقال: ليس هذا وقت ترك الصيام. وقيل لآخر منهم وهو مريض: افطر، فقال: كيف وأنا أسير لا أدري ما يفعل بي. مات عامر بن عبد الله بن الزبير وهو صائم ما أفطر. ودخلوا على أبي بكر بن أبي مريم وهو في النزع وهو صائم فعرضوا عليه ماء ليفطر، فقال: أغربت الشمس ؟ قالوا: لا، فأبى أن يفطر، ثم أتوه بماء وقد اشتد نزعه فأومأ إليهم أغربت الشمس ؟ قالوا: نعم فقطروا في فيه قطرة من ماء ثم مات. واحتضر إبراهيم بن هانيء صاحب الإمام أحمد وهو صائم وطلب ماء وسأل أغربت الشمس ؟ فقالوا: لا، وقالوا له: قد رخص لك في الفرض وأنت متطوع! قال: أمهل، ثم قال: لمثل هذا فليعمل العاملون، ثم خرجت نفسه وما أفطر.

الدنيا كلها شهر صيام المتقين، وعيد فطرهم يوم لقاء ربهم، ومعظم نهار الصيام قد ذهب، وعيد اللقاء قد اقترب.

وقد صمت عن ويوم لقاكم ذاك

ولما كان الصيام سرا بين العبد وبين ربه اجتهد المخلصون في إخفائه بكل طريق حتى لا يطلع عليه أحد. قال بعض الصالحين: بلغنا عن عيسى بن مريم عليه السلام أنه قال: إذا كان يوم صوم أحدكم

فليدهن لحيته ويمسح شفتيه من دهنه، حتى ينظر إليه الناظر فيظن أنه ليس بصائم. وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: إذا أصبح أحدكم صائما فليترجل ـ يعني يسرح شعره ـ ويدهنه وإذا تصدق بصدقة عن يمينه فليخفها عن شماله، وإذا صلى تطوعا فليصل داخل بيته. وقال أبو التياح: أدركت أبي وشيخة الحي إذا صام أحدهم ادهن ولبس صالح ثيابه. صام بعض السلف أربعين سنة لا يعلم به أحد، كان له دكان فكان كل يوم يأخذ من بيته رغيفين ويخرج إلى دكانه فيتصدق بهما في طريقه، فيظن أهله أنه يأكلهما في السوق، ويظن أهل السوق أنه أكل في بيته قبل أن يجيء. اشتهر بعض الصالحين بكثرة الصيام فكان يقوم يوم الجمعة في مسجد الجامع، فيأخذ إبريق الماء فيضع بلبلته في فيه ويمتصها والناس ينظرون إليه، ولا يدخل حلقه منه شيء لينفي عن نفسه ما اشتهر به من الصوم.

كم يستر الصادقون أحوالهم وريح الصدق ينم عليهم، ما أسر أحد سريرة إلا ألبسه الله رداءها علانية.

كم اكتم حبكم عن ... والدمع يذيع في ...
كم أستركم ... من يخفي في ...

ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، فكلما اجتهد صاحبه على إخفائه فاح ريحه للقلوب، فتستنشقه الأرواح وربما ظهر بعد الموت ويوم القيامة.

فكاتم الحب يوم ... وصاحب الوجد لا ...

ولما دفن عبد الله بن غالب كان يفوح من تراب قبره رائحة المسك فرؤي في المنام فسئل عن تلك الرائحة التي توجد من قبره ؟ فقال: تلك رائحة التلاوة والظمأ. وجاء في حديث مرفوع: (يخرج الصائمون من قبورهم يعرفون بريح صيامهم، أفواههم أطيب من ريح المسك).

وهبني كتمت السر ... أتخفى على أهل ...
أبى ذاك أن السر ... وإن ضمير القلب ...

الفصل الثاني: في فضل قيام الليل

وقد دل حديث أبي هريرة رضي الله عنه هذا على

أنه أفضل الصلاة بعد المكتوبة، وهل هو أفضل من السنن الراتبة ؟ فيه خلاف سبق ذكره، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: فضل صلاة الليل على صلاة النهار كفضل صدقة السر على صدقة العلانية. وخرجه الطبراني عنه مرفوعا، والمحفوظ وقفه. وقال عمرو بن العاص: ركعة بالليل خير من عشر بالنهار. خرجه ابن أبي الدنيا. وإنما فضلت صلاة الليل على صلاة النهار لأنها أبلغ في الإسرار وأقرب إلى الإخلاص.

كان السلف يجتهدون على إخفاء تهجدهم، قال الحسن: كان الرجل يكون عنده زواره فيقوم من الليل يصلي لا يعلم به زواره وكانوا يجتهدون في الدعاء ولا يسمع لهم صوت، وكان الرجل ينام مع امرأته على وسادة، فيبكي طول ليلته وهي لا تشعر، وكان محمد بن واسع يصلي في طريق الحج طول ليله، ويأمر حاديه أن يرفع صوته ليشغل الناس عنه، وكان بعضهم يقوم من وسط الليل ولا يدرى به، فإذا كان قرب طلوع الفجر رفع صوته بالقرآن يوهم أنه قام تلك الساعة. ولأن صلاة الليل أشق على النفوس، فإن الليل محل النوم والراحة من التعب بالنهار، فترك النوم مع ميل النفس إليه مجاهدة عظيمة قال بعضهم: أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس، ولأن القراءة في صلاة الليل أقرب إلى التدبر، فإنه تنقطع الشواغل بالليل ويحضر القلب ويتواطأ هو واللسان على الفهم، كما قال تعالى: (إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا) ولهذا المعنى أمر بترتيل القرآن في قيام الليل ترتيلا، ولهذا كانت صلاة الليل تنهاه عن الإثم، كما يأتي في حديث خرجه الترمذي وفي المسند عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي قيل له: إن فلانا يصلي من الليل فإذا أصبح سرق ؟ فقال: سينهاه ما تقول) ولأن وقت التهجد من الليل أفضل أوقات التطوع بالصلاة وأقرب ما يكون العبد من ربه، وهو وقت فتح أبواب السماء، واستجابة الدعاء، واستعراض حوائج السائلين.

وقد مدح الله تعالى المستيقظين بالليل لذكره

ودعائه واستغفاره ومناجاته، فقال الله تعالى: (تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون * فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) وقال الله تعالى: (والمستغفرين بالأسحار) وقال الله تعالى: (كانوا قليلا من الليل ما يهجعون * وبالأسحار هم يستغفرون) وقال الله تعالى: (والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما) وقال الله تعالى: (أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) وقال تعالى: من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون) وقال لنبيه ﷺ: (ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) وقال تعالى: (ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا) وقال تعالى: (يا أيها المزّمّل * قم الليل إلا قليلا * نصفه أو انقص منه قليلا * أو زد عليه) قالت عائشة رضي الله عنها لرجل: (لا تدع قيام الليل، فإن رسول الله ﷺ كان لا يدعه. وكان إذا مرض أو قالت: كسل صلى قاعدا) وفي رواية أخرى عنها قالت: بلغني عن قوم يقولون: إن أدينا الفرائض لم نبال أن لا نزداد ولعمري لا يسألهم الله إلا عما افترض عليهم ولكنهم قوم يخطئون بالليل والنهار وما أنتم إلا من نبيكم وما نبيكم إلا منكم والله ما ترك رسول الله ﷺ قيام الليل ونزعت كل آية فيها قيام الليل فأشارت عائشة رضي الله عنها إلى قيام الليل فيه فائدتان عظيمتان: الإقتداء بسنة رسول الله ﷺ والتأسي به وقد قال الله عز وجل: (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) وتكفير الذنوب والخطايا فإن بني آدم يخطئون بالليل والنهار فيحتاجون إلى الاستكثار من مكفرات الخطايا وقيام الليل من أعظم المكفرات كما قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل: (قيام العبد في جوف الليل يكفر الخطيئة ثم تلا: (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) الآية. خرجه الإمام أحمد وغيره. وقد روي

أن المتهجدين يدخلون الجنة بغير حساب وروي عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد عن النبي قال: إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة جاء مناد ينادي بصوت يسمع الخلائق سيعلم الخلائق اليوم من أولى بالكرم ثم يرجع فينادي: أين الذين كانوا لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله؟ فيقومون وهم قليل، ثم يرجع فينادي: ليقم الذين كانوا يحمدون الله في السراء والضراء، فيقومون وهم قليل، ثم يحاسب سائر الناس) خرجه ابن أبي الدنيا وغيره. ويروى عن شهر بن حوشب عن ابن عباس رضي الله عنهما من قوله، ويروى أيضا من حديث أبي إسحاق عن عبد الله بن عطاء عن عقبة بن عامر مرفوعا وموقوفا، ويروى نحوه أيضا عن عبادة بن الصامت وربيعة الجرشي والحسن وكعب من قولهم قال بعض السلف: قيام الليل يهوّن طول القيام يوم القيامة، وإذا كان أهله يسبقون إلى الجنة بغير حساب، فقد استراح أهله من طول الموقف للحساب.

وفي حديث أبي أمامة وبلال المرفوع: (عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم، وإن قيام الليل قربة إلى الله تعالى وتكفير للسيئات ومنهاة عن الإثم، ومطردة للداء عن الجسد) خرجه الترمذي.

ففي هذا الحديث أن قيام الليل يوجب صحة الجسد ويطرد عنه الداء وكذلك صيام النهار، ففي الطبراني من حديث أبي هريرة مرفوعا: (صوموا تصحوا) وكما أن قيام الليل يكفر السيئات فهو يرفع الدرجات، وقد ذكرنا أن أهله من السابقين إلى الجنة بغير حساب.

وفي حديث المنام المشهور الذي خرجه الإمام أحمد والترمذي: (إن الملأ الأعلى يختصمون في الدرجات والكفارات) وفيه إن الدرجات إطعام الطعام وإفشاء السلام والصلاة بالليل والناس نيام، وفي المسند والترمذي وغيرهما عن النبي من وجوه: (إن في الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها و باطنها من ظاهرها وإنها لأهل هذه الخصال الثلاثة)، وفي (حديث عبد الله بن سلام المشهور المخرج في

السنن: أنه أول ما سمع النبي يقول عند قدومه المدينة: يا أيها الناس أطعموا الطعام، وافشوا السلام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام).

ومن فضائل التهجد: أن الله تعالى يحب أهله ويباهي بهم الملائكة، ويستجيب دعائهم روى الطبراني وغيره من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي قال: ثلاثة يحبهم الله ويضحك إليهم ويستبشر بهم ـ فذكر منهم الذي له امرأة حسناء وفراش حسن فيقوم من الليل، فيقول الله تعالى: يذر شهوته فيذكرني ولو شاء رقد، والذي إذا كان في سفر وكان معه ركب فسهروا ثم هجعوا فقام من السحر في سراء وضراء)، وخرج الإمام أحمد والترمذي والنسائي من حديث أبي ذر رضي الله عنه عن النبي قال:(ثلاثة يحبهم الله ـ فذكر منهم ـ وقوم ساروا ليلهم حتى إذا كان النوم أحب إليهم مما يعدل به فوضعوا رؤوسهم فقام يتملقني ويتلو آياتي) وصححه الترمذي. وفي المسند عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي قال: عجب ربنا من رجلين: رجل ثار عن وطائه ولحافه من بين أهله وحبه إلى صلاته، فيقول ربنا تبارك وتعالى: يا ملائكتي ! انظروا إلى عبدي ثار من فراشه ووطائه من بين حبه وأهله إلى صلاته رغبة فيما عندي، وشفقة مما عندي، ورجل غزا في سبيل الله عز وجل وانهزم أصحابه وعلم ما عليه في الانهزام وماله في الرجوع، فرجع حتى أهريق دمه فيقول الله عز وجل لملائكته: انظروا إلى عبدي رجع رجاء فيما عندي، وشفقة مما عندي حتى أهريق دمه) رواه أحمد وذكر بقية الحديث. وقوله ثار فيه إشارة إلى قيامه بنشاط وعزم، ويروى من حديث عطية عن أبي سعيد عن النبي قال: (إن الله يضحك إلى ثلاثة نفر رجل قام من جوف الليل، فأحسن الطهور فصلى، ورجل نام وهو ساجد، ورجل في كتيبة منهزمة فهو على فرس جواد، لو شاء أن يذهب لذهب) وخرجه ابن

ماجة من رواية مجالد عن أبي الوداك عن أبي سعيد عن النبي قال: (إن الله ليضحك إلى ثلاثة: الصف في الصلاة، والرجل يصلي في جوف الليل، والرجل يقاتل أراه قال: خلف الكتيبة).

وروينا من حديث أبان عن أنس عن ربيعة بن وقاص عن النبي قال: (ثلاث مواطن لا ترد فيها، دعوة رجل يكون في برية حيث لا يراه أحد فيقوم فيصلي فيقول الله لملائكته: أرى عبدي هذا يعلم أن له ربا يغفر الذنب فانظروا ما يطلب ؟ فتقول الملائكة: إي رب رضاك ومغفرتك فيقول: اشهدوا أني قد غفرت له ورجل يقوم من الليل فيقول الله عز وجل: أليس قد جعلت الليل سكنا والنوم سباتا فقام عبدي هذا يصلي ويعلم أن له ربا فيقول الله لملائكته: انظروا ما يطلب عبدي هذا ؟ فتقول الملائكة: يا رب رضاك ومغفرتك فيقول: اشهدوا أني قد غفرت له، وذكر الثالث: الذي يكون في فئة فيفر أصحابه ويثبت هو) وهو مذكور أيضا في كل الأحاديث المتقدمة.

وفي المسند وصحيح ابن حبان عن عقبة بن عامر عن النبي قال: (رجلان من أمتي يقوم أحدهما من الليل يعالج نفسه إلى الطهور وعليه عقد فيتوضأ، فإذا وضأ يديه انحلت عقدة، وإذا وضأ وجهه انحلت عقدة، وإذا مسح رأسه انحلت عقدة، وإذا وضأ رجليه انحلت عقدة، فيقول الرب عز وجل للذين وراء الحجاب: انظروا إلى عبدي هذا يعالج نفسه ما سألني عبدي هذا فهو له) وفي الصحيحين أن النبي قال: (نعم الرجل عبد الله ـ يعني ابن عمر ـ لو كان يصلي من الليل) فكان عبد الله لا ينام بعد ذلك من الليل إلا قليلا.

كان أبو ذر رضي الله عنه يقول للناس: أرأيتم لو أن أحدكم أراد سفرا أليس يتخذ من الزاد ما يصلحه ويبلغه ؟ قالوا: بلى، قال: فسفر طريق القيامة أبعد، فخذوا له ما يصلحكم حجوا حجة لعظائم الأمور، صوموا يوما شديدا حره لحر يوم النشور، صلوا ركعتين في ظلمة الليل لظلمة القبور،

تصدقوا بصدقة لشر يوم عسير، أين رجال الليل أين الحسن وسفيان؟ قال:

يترجل الليل جدوا رب داع لا يرد
ما يقوم الليل إلا من له عزم وجد
ليس شيء كصلاة الليل للقبر يعد

صلى كثير من السلف صلاة الصبح بوضوء العشاء عشرين سنة، ومنهم من صلى كذلك أربعين سنة، قال بعضهم: منذ أربعين سنة ما أحزنني إلا طلوع الفجر، قال ثابت: كابدت قيام الليل عشرين سنة وتنعمت به عشرين سنة أخرى.

أفضل قيام الليل وسطه قال النبي : (أفضل القيام قيام داود، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه) وكان رسول الله (إذا سمع الصارخ يقوم للصلاة) والصارخ: الديك وهو يصيح وسط الليل. وخرج النسائي عن أبي ذر قال: سألت النبي : أي الليل خير ؟ قال: جوفه) وخرج الإمام أحمد عن أبي ذر قال: سألت النبي : أي قيام الليل أفضل ؟ قال: (جوف الليل الغابر أو نصف الليل وقليل فاعله)، وخرج ابن أبي الدنيا من حديث أبي أمامة أن رجلا قال: يا رسول الله! أي الصلاة أفضل ؟ قال: (جوف الليل الأوسط) قال: أي الدعاء أسمع ؟ قال: (دبر المكتوبات) وخرجه الترمذي والنسائي ولفظهما: (أنه سأله: أي الدعاء أسمع ؟ قال: (جوف الليل الأخير ودبر الصلوات المكتوبات) وخرج الترمذي من حديث عمرو بن عبسة سمع النبي يقول: (أقرب ما يكون الرب من العبد في جوف الليل، فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة فكن) ويروى أن داود عليه السلام قال: يا رب أي وقت أقوم لك ؟ قال: لا تقم أول الليل ولا آخره، ولكن قم وسط الليل حتى تخلوا بي وأخلو بك، وارفع إلي حوائجك .

وفي الأثر المشهور: كذب من ادعى محبتي، فإذا جنه الليل نام عني، أليس كل محب يحب خلوة حبيبه ! فها أنا ذا مطلع على أحبابي إذا جنهم

الليل، جعلت أبصارهم في قلوبهم فخاطبوني على المشاهدة وكلموني على حضوري، غدا أقر أعين أحبابي في جناني.

إلليل لي ولأحبابي قد اصطفيتهم كي
لهم قلوب على ودادي وإرشادي
سروا فما وهنوا وواصلوا حبل

ما عند المحبين ألذ من أوقات الخلوة بمناجاة محبوبهم، هو شفاء قلوبهم ونهاية مطلوبهم.

كتمت اسم الحبيب ورددت الصبابة في
فيا شوقا إلى بلد لعلى اسم من أهوى

كان داود الطائي يقول في الليل: همك عطل علي الهموم، وحالف بيني وبين السهاد، وشوقي إلى النظر إليك أوثق مني اللذات، وحال بيني وبين الشهوات.

وكان عتبة الغلام يقول في مناجاته بالليل: إن تعذبني فإني لك محب، وإن ترحمني فإني لك محب.

لوأنك أبصرت أهل إذا غارت الأنجم
فهذا ينوح على وهذا يصلي وذا يركع

من لم يشاركهم في هواهم ويذوق حلاوة نجواهم، لم يدر ما الذي أبكاهم، من لم يشاهد جمال يوسف لم يدر ما الذي آلم قلب يعقوب.

من لم يبت والحب لم يدر كيف تفتت

كان أبو سليمان يقول: أهل الليل في ليلهم ألذّ من أهل اللهو في لهوهم، ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا، وسط الليل للمحبين للخلوة بمناجاة حبيبهم، والسحر للمذنبين للاستغفار من ذنوبهم، فوسط الليل خاص لخلوة الخواص، والسحر عام لرفع قصص الجميع، وبروز التواقيع لأهلها بقضاء الحوائج، فمن عجز عن مسابقة المحبين في ميدان مضمارهم فلا يعجز عن مشاركة المذنبين في استغفارهم واعتذارهم، صحائف التائبين خدودهم ومدادهم دموعهم.

قال بعضهم: إذا بكى الخائفون فقد كاتبوا الله بدموعهم رسائل الأسحار تحمل ولا يدري بها الفلك

وأجوبتها ترد إلى الأسرار ولا يعلم بها الملك.

صحائفنا إشارتنا وأكثر رسلنا الحرق
لأن الكتب قد تقرأ بغير الدمع لا تثق

لا تزال القصص تستعرض ويوقع بقضاء حوائج أهلها إلى أن يطلع الفجر، ينزل الله كل ليلة إلى السماء الدنيا فيقول: هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من داع فأجيب دعوته؟ إلى أن ينفجر الفجر. فلذلك كانوا يفضلون صلاة آخر الليل على أوله.

نحن الذين إذا أتانا نوليه إحسانا وحسن
ونقول في مستغفر لينال خير

الغنيمة تقسم على كل من حضر الوقعة، فيعطي منها الرجالة والأجراء والغلمان مع الأمراء والأبطال والشجعان والفرسان، فما يطلع فجر الأجر إلا وقد حاز القوم الغنيمة وفازوا بالفخر وحمدوا عند الصباح السرى، وما عند أهل الغفلة والنوم خبر مما جرى كان بعض الصالحين يقوم الليل، فإذا كان السحر نادى بأعلى صوته يا أيها الركب المعرسون! أكل هذا الليل ترقدون! ألا تقومون فترحلون، فإذا سمع الناس صوته وثبوا من فرشهم، فيسمع من هنا باك، ومن هنا داع، ومن هنا تال، ومن هنا متوضىء، فإذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته : عند الصباح يحمد القوم السرى.

يا نفس قومي فقد إن تصنعي الخير
وأنت يا عين دعي عند الصباح يحمد

يا قوام الليل اشفعوا في النوام، يا أحياء القلوب ترحموا على الأموات، قيل لابن مسعود رضي الله عنه: ما نستطيع قيام الليل ؟ قال: أقعدتكم ذنوبكم. وقيل للحسن: قد أعجزنا قيام الليل ؟ قال: قيدتكم خطاياكم، وقال الفضيل بن عياض: إذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار فاعلم أنك محروم كبلتك خطيئتك، قال الحسن: إن العبد ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل.

قال بعض السلف: أذنبت ذنبا فحرمت به قيام الليل ستة أشهر. ما يؤهل الملوك للخلوة بهم إلا من

أخلص في ودهم ومعاملتهم، فأما من كان من أهل المخالفة فلا يؤهلونه. في بعض الآثار: إن جبريل عليه السلام ينادي كل ليلة أقم فلانا وأنم فلانا.

قام بعض الصالحين في ليلة باردة وعليه ثياب،رثة، فضربه البرد فبكى، فهتف به هاتف أقمناك وأنمناهم ثم تبكي علينا!

يا حسنهم والليل ... ونورهم يفوق نور
ترنموا بالذكر في ... فعيشهم قد طاب
قلوبهم للذكر قد ... دموعهم كلؤلؤ منظم
أسحارهم بهم لهم ... وخلع الغفران خير

الليل منهل يرده أهل الإرادة كلهم، ويختلفون فيما يردون ويريدون، قد علم كل أناس مشربهم، فالمحب يتنعم بمناجاة محبوبه، والخائف يتضرع لطلب العفو ويبكي على ذنوبه، والراجي يلح في سؤال مطلوبه، والغافل المسكين أحسن الله عزاءه في حرمانه وفوات نصيبه، قال النبي ﷺ لعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: (لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل) مرضت رابعة مرة، فصارت تصلي وردها بالنهار فعوفيت وقد ألفت ذلك وانقطع عنها قيام الليل، فرأت ذات ليلة في نومها كأنها أدخلت إلى روضة خضراء عظيمة، وفتح لها فيها باب دار فسطع منها نور، حتى كاد يخطف بصرها فخرج منها،وصفاء كأن وجوههم اللؤلؤ، بأيديهم مجامر، فقالت لهم امرأة كانت مع رابعة: أين تريدون ؟ قالوا: نريد فلانا قتل شهيدا في البحر فنجمره، فقالت لهم: أفلا تجمرون هذه المرأة ـ تعني رابعة ـ فنظروا إليها وقالوا: قد كان لها حظ في ذلك فتركته، فالتفتت تلك المرأة إلى رابعة وأنشدت:

صلاتك نور والعباد ... ونومك ضد للصلاة

كان بعض العلماء يقوم السحر، فنام عن ذلك ليالي فرأى في منامه رجلين وقفا عليه، وقال أحدهما للآخر: هذا كان من المستغفرين بالأسحار فترك ذلك، يا من كان له قلب فانقلب! يا من كان له وقت مع الله فذهب! قيام السحر يستوحش لك، صيام النهار يسائل عنك، ليالي الوصال تعاتبك على

الجهر.

تغير تموعنا بصحبة وأظهرتم الهجران ما
وأقسمتموا أن لا فحلتم عن العهد
ليالي كنا نستقي وقلبي إلى تلك

قيل للنبي ﷺ: إن فلانا نام حتى أصبح ؟ فقال: (بال الشيطان في أذنه)،كان سري يقول: رأيت الفوائد ترد في ظلمة الليل ماذا فات من فاته خير الليل؟ لقد حصل أهل الغفلة والنوم على الحرمان والويل.

كان بعض السلف يقوم الليل فنام ليلة فأتاه آت في منامه فقال له: قم فصل، ثم قال له: أما علمت أن مفاتح الجنة مع أصحاب الليل هم خزانها، هم خزانها، وكان آخر يقوم الليل فنام ليلة فأتاه آت في منامه فقال: ما لك قصرت في الخطبة؟ أما علمت أن المتهجد إذا قام إلى تهجده قالت الملائكة: قام الخاطب إلى خطبته. ورأى بعضهم حوراء في نومه فقال لها: زوجيني نفسك قالت: أخطبني إلى ربي، وأمهرني، قال: ما مهرك ؟ قالت: طول التهجد.

نام ليلة أبو سليمان فأيقظته حوراء وقالت: يا أبا سليمان تنام وأنا أربىّ لك في الخدور من خمسمائة عام!. واشترى بعضهم من الله تعالى حوراء بصداق ثلاثين ختمة، فنام ليلة قبل أن يكمل الثلاثين فرآها في منامه تقول له:

أتخطب مثلي ونوم المحبين عني
لأنا خلقنا لكل كثير الصلاة براه

كان النبي ﷺ يطرق باب فاطمة وعلي ويقول: (ألا تصليان) وفي الحديث: (إذا استيقظ الرجل وأيقظ أهله فصليا ركعتين، كتبا من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات)

كانت امرأة حبيب توقظه بالليل وتقول ذهب الليل، وبين أيدينا طريق بعيد، وزادنا قليل، وقوافل الصالحين قد سارت قدامنا ونحن قد بقينا.

يا راقد الليل كم قم يا حبيبي قد دنا
وخذ من الليل وردا إذا ما هجع

من نام حتى لم يبلغ المنزل أو
قل لأولي الألباب قنطرة العرض لكم

المجلس الثاني في يوم عاشوراء

في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن يوم عاشوراء، فقال: ما رأيت رسول الله صام يوما يتحرى فضله على الأيام إلا هذا اليوم ـ يعني يوم عاشوراء ـ وهذا الشهر ـ يعني رمضان) يوم عاشوراء له فضيلة عظيمة، وحرمة قديمة، وصومه لفضله كان معروفا بين الأنبياء عليهم السلام، وقد صامه نوح وموسى عليهما السلام كما سنذكره إن شاء الله تعالى، وروي عن إبراهيم الهجري، عن أبي عياض عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي قال: (يوم عاشوراء كانت تصومه الأنبياء فصوموه أنتم) خرجه بقي بن مخلد في مسنده. وقد كان أهل الكتاب يصومونه وكذلك قريش في الجاهلية كانت تصومه، قال دلهم بن صالح: قلت لعكرمة: عاشوراء ما أمره ؟ قال: أذنبت قريش في الجاهلية ذنبا فتعاظم في صدورهم، فسألوا ما توبتهم ؟ قيل: صوم عاشوراء يوم العاشر من المحرم.

وكان للنبي في صيامه أربع حالات:

الحالة الأولى: أنه كان يصومه بمكة ولا يأمر الناس بالصوم، ففي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان عاشوراء يوما تصومه قريش في الجاهلية، وكان النبي يصومه، فلما قدم المدينة صامه وأمر بصيامه، فلما نزلت فريضة شهر رمضان كان رمضان هو الذي يصومه، فترك يوم عاشوراء، فمن شاء صامه ومن شاء أفطره) وفي رواية للبخاري وقال رسول الله : (من شاء فليصمه ومن شاء أفطر).

الحالة الثانية: أن النبي لما قدم المدينة ورأى صيام أهل الكتاب له، وتعظيمهم له وكان يحب

موافقتهم فيما لم يؤمر به صامه، وأمر الناس بصيامه، وأكد الأمر بصيامه والحث عليه حتى كانوا يصوّمونه أطفالهم، ففي الصحيحين عن ابن عباس قال: قدم رسول الله المدينة فوجد اليهود صياما يوم عاشوراء، فقال لهم رسول الله : (ما هذا اليوم الذي تصومونه ؟ قالوا: هذا يوم عظيم، أنجى الله فيه موسى وقومه، وأغرق فرعون وقومه، فصامه موسى شكرا فنحن نصومه، فقال رسول الله : (فنحن أحق وأولى بموسى منكم، فصامه رسول الله وأمر بصيامه) وفي مسند الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: مر النبي بأناس من اليهود قد صاموا عاشوراء فقال: (ما هذا من الصوم ؟ ! قالوا: هذا اليوم الذي نجى الله عز وجل موسى عليه السلام وبني إسرائيل من الغرق، وغرق فيه فرعون وهذا يوم استوت فيه السفينة على الجودي، فصام نوح وموسى عليهما السلام شكرا لله عز وجل، فقال النبي : (أنا أحق بموسى وأحق بصوم هذا اليوم، فأمر أصحابه بالصوم).وفي (الصحيحين) عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه أن النبي أمر رجلا من أسلم: أن أذن في الناس: (من أكل فليصم بقية يومه، ومن لم يكن أكل فليصم، فإن اليوم يوم عاشوراء (وفيهما أيضا) عن الربيع بنت معوذ قالت: أرسل رسول الله غداة عاشوراء إلى قرى الأنصار التي حول المدينة: (من كان أصبح صائما فليتم صومه، ومن كان أصبح مفطرا فليتم بقية يومه، فكنا بعد ذلك نصومه، ونصوّم صبياننا الصغار منهم، ونذهب إلى المسجد فنجعل لهم اللعبة من العهن، فإذا بكى أحدهم على الطعام أعطيناه إياها، حتى يكون عند الإفطار. وفي رواية: فإذا سألونا الطعام أعطيناهم اللعبة نلهيهم حتى يتموا صومهم، وفي الباب أحاديث كثيرة جدا. وخرج الطبراني بإسناد فيه جهالة أن النبي كان يدعو يوم عاشوراء برضعائه ورضعاء ابنته فاطمة، فيتفل في أفواههم ويقول

لأمهاتهم: لا ترضعوهم إلى الليل وكان ريقه يجزئهم .

وقد اختلف العلماء رضي الله عنهم هل كان صوم يوم عاشوراء قبل فرض شهر رمضان واجبا أم كان سنة متأكدة ؟ على قولين مشهورين، ومذهب أبي حنيفة: أنه كان واجبا حينئذ، وهو ظاهر كلام الإمام أحمد، وأبي بكر الأثرم. وقال الشافعي رحمه الله بل كان متأكد الاستحباب فقط وهو قول كثير من أصحابنا وغيرهم.

الحالة الثالثة: أنه لما فرض صيام شهر رمضان ترك النبي أمر الصحابة بصيام يوم عاشوراء وتأكيده فيه، وقد سبق حديث عائشة في ذلك وفي الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: صام النبي عاشوراء وأمر بصيامه فلما فرض رمضان ترك ذلك. وكان عبد الله لا يصومه إلا أن يوافق صومه. وفي رواية لمسلم: إن أهل الجاهلية كانوا يصومون يوم عاشوراء، وأن رسول الله صامه والمسلمون قبل أن يفرض رمضان، فلما فرض رمضان قال رسول الله : (إن عاشوراء يوم من أيام الله، فمن شاء صامه ومن شاء تركه) وفي رواية له أيضا: (فمن أحب منكم أن يومه فليصمه، ومن كره فليدعه) وفي الصحيحين أيضا عن معاوية قال: سمعت رسول الله يقول: (هذا يوم عاشوراء ولم يكتب الله عليكم صيامه وأنا صائم، فمن شاء فليصم ومن شاء فليفطر) وفي رواية لمسلم التصريح برفع آخره وفي رواية للنسائي أن آخره مدرج من قول معاوية وليس بمرفوع، وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود أنه قال في يوم عاشوراء: هو يوم كان رسول الله يصومه قبل أن ينزل رمضان، فلما نزل شهر رمضان ترك وفي رواية (أنه تركه) وفيه أيضا: عن جابر بن سمرة قال: كان رسول الله يأمرنا بصيام يوم عاشوراء ويحثنا عليه، ويتعاهدنا عنده فلما فرض رمضان لم يأمرنا ولم ينهنا عنه ولم

يتعاهدنا عنده.

وخرج الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه من حديث قيس بن سعد قال: أمرنا رسول الله بصيام عاشوراء قبل أن ينزل رمضان، فلما نزل رمضان لم يأمرنا ولم ينهنا) وفي رواية: ونحن نفعله. فهذه الأحاديث كلها تدل على أن النبي لم يجدد أمر الناس بصيامه بعد فرض صيام شهر رمضان، بل تركهم على ما كانوا عليه من غير نهي عن صيامه، فإن كان أمره بصيامه قبل فرض صيام شهر رمضان للوجوب، فإنه ينبني على أن الوجوب إذا نسخ فهل يبقى الاستحباب أم لا ؟ وفيه اختلاف مشهور بين العلماء رضي الله عنهم، وإن كان أمره للاستحباب المؤكد. فقد قيل: إنه زال التأكيد وبقي أصل الاستحباب، ولهذا قال قيس بن سعد: ونحن نفعله. وقد روي عن ابن مسعود وابن عمر رضي الله عنهما ما يدل على أن أصل استحباب صيامه زال.

وقال سعيد بن المسيب: لم يصم رسول الله عاشوراء. وروي عنه عن سعد بن أبي وقاص والمرسل أصح. قاله الدارقطني.وأكثر العلماء على استحباب صيامه من غير تأكيد.

وممن روي عنه صيامه من الصحابة عمر وعلي وعبد الرحمن بن عوف وأبو موسى وقيس بن سعد وابن عباس وغيرهم، ويدل على بقاء استحبابه قول ابن عباس رضي الله عنهما: لم أر رسول الله يصوم يوما يتحرى فضله على الأيام إلا يوم عاشوراء وشهر رمضان. وابن عباس إنما صحب النبي بآخرة وإنما عقل منه من آخر أمره، وفي صحيح مسلم عن أبي قتادة أن رجلا سأل النبي عن صيام عاشوراء ؟ فقال: أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله) وإنما سأله عن التطوع بصيامه، فإنه سأله أيضا عن صيام يوم عرفة وصيام الدهر، وصيام يوم وفطر يوم، وصيام يوم،وفطر يومين ، فعلم أنه إنما سأله عن صيام التطوع. وخرج الإمام أحمد

والنسائي من حديث حفصة بنت عمر أم المؤمنين رضي الله عنها: أن النبي لم يكن يدع صيام يوم عاشوراء، والعشر، وثلاثة أيام من كل شهر) وخرجه أبوداود إلا أن عنده عن بعض أزواج النبي غير مسماة.

الحالة الرابعة: أن النبي عزم في آخر عمره على أن لا يصومه مفردا بل يضم إليه يوما آخر مخالفة لأهل الكتاب في صيامه. ففي صحيح مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: حين صام رسول الله عاشوراء وأمر بصيامه قالوا: يا رسول الله! إنه يوم تعظمه اليهود والنصارى؟ فقال رسول الله : (فإذا كان العام المقبل إن شاء الله صمنا اليوم التاسع) قال: فلم يأت العام المقبل حتى توفي رسول الله . وفي رواية له أيضا عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله : (لئن بقيت إلى قابل لأصومن التاسع مع العاشر) يعني عاشوراء. وخرجه الطبراني ولفظه: (إن عشت إلى قابل صمت التاسع مخافة أن يفوتني عاشوراء). وفي مسند الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي قال: (صوموا يوم عاشوراء وخالفوا اليهود، صوموا قبله يوما وبعده يوما) وجاء في رواية: (أوبعده) فإما أن تكون (أو) للتخيير، أو يكون شكا من الراوي، هل قال قبله أو بعده. وروي هذا الحديث بلفظ آخر وهو: (لئن بقيت لآمرن بصيام يوم قبله ويوم بعده) يعني عاشوراء. وفي رواية أخرى: (لئن بقيت إلى قابل لأصومن التاسع، ولآمرن بصيام يوم قبله ويوم بعده) يعني عاشوراء أخرجهما الحافظ أبو موسى المديني.

وقد صح هذا عن ابن عباس من قوله من رواية ابن جريج قال: أخبرنا عطاء أنه سمع ابن عباس يقول في يوم عاشوراء: خالفوا اليهود صوموا التاسع والعاشر. قال الإمام أحمد: أنا أذهب إليه. وروي عن ابن عباس: أنه صام التاسع والعاشر، وعلل بخشية

فوات عاشوراء. وروى ابن أبي ذئب عن شعبة مولى ابن عباس، عن ابن عباس: أنه كان يصوم عاشوراء في السفر ويوالي بين اليومين خشية فواته. وكذلك روي عن أبي إسحاق أنه صام يوم عاشوراء ويوما قبله ويوما بعده وقال: إنما فعلت ذلك خشية أن يفوتني. وروي عن ابن سيرين أنه كان يصوم ثلاثة أيام عند الاختلاف في هلال الشهر احتياطا. وروي عن ابن عباس والضحاك أن يوم عاشوراء هو تاسع المحرم. قال ابن سيرين: كانوا لا يختلفون أنه اليوم العاشر إلا ابن عباس. فإنه قال: إنه التاسع. وقال الإمام أحمد في رواية الميموني: لا أدري هو التاسع أو العاشر ولكن نصومهما، فإن اختلف في الهلال صام ثلاثة أيام احتياطا. وابن سيرين يقول ذلك وممن رأى صيام التاسع والعاشر: الشافعي رضي الله عنه وأحمد وإسحاق وكره أبو حنيفة إفراد العاشر بالصوم.

وروى الطبراني من حديث ابن أبي الزناد، عن أبيه عن خارجة بن زيد عن أبيه قال: ليس يوم عاشوراء باليوم الذي يقول الناس: إنما كان يوما تستر فيه الكعبة، وتقلس فيه الحبشة عند النبي ﷺ. وكان يدور في السنة، فكان الناس يأتون فلانا اليهودي يسألونه، فلما مات اليهودي أتوا زيد بن ثابت فسألوه، وهذا فيه إشارة إلى أن عاشوراء ليس هو في المحرم، بل يحسب بحساب السنة الشمسية، كحساب أهل الكتاب. وهذا خلاف ما عليه عمل المسلمين قديما وحديثا.

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان يعد من هلال المحرم ثم يصبح يوم التاسع صائما. وابن أبي الزناد لا يعتمد على ما ينفرد به، وقد جعل الحديث كله عن زيد بن ثابت وآخره لا يصلح أن يكون من قول زيد، فلعله من قول من دونه، والله أعلم. وكان طائفة من السلف يصومون عاشوراء في السفر، منهم ابن عباس وأبو إسحاق والزهري. وقال: رمضان له عدة من أيام أخر، وعاشوراء يفوت. ونص أحمد على أن يصام عاشوراء في السفر. وروى عبد الرزاق في كتابه عن إسرائيل عن سماك بن

حرب عن معبد القرشي قال: كان النبي بقُديد، فأتاه رجل فقال له النبي : أطعمت اليوم شيئا ليوم عاشوراء ؟ قال لا إلا أني شربت ماء، قال: فلا تطعم شيئا حتى تغرب الشمس، وأمر من وراءك أن يصوموا هذا اليوم) ولعل المأمور كان من أهل قُديد. وروى بإسناده عن طاووس أنه كان يصوم عاشوراء في الحضر ولا يصومه في السفر.

ذكر صيام الوحش والهوام في عاشوراء

ومن أعجب ما ورد في عاشوراء أنه كان يصوم الوحش والهوام، وقد روي مرفوعا: (أن الصرد أول طير صام عاشوراء) خرجه الخطيب في تاريخه، وإسناده غريب. وقد روى ذلك عن أبي هريرة، وروي عن فتح بن شخرف قال: كنت أفت للنمل الخبز كل يوم، فلما كان عاشوراء لم يأكلوه، وروي عن القادر بالله الخليفة العباسي أنه جرى له مثل ذلك، وأنه عجب منه فسأل أبا الحسن القزويني الزاهد فذكر له أن يوم عاشوراء تصومه النمل. وروى أبو موسى المديني بإسناده عن قيس بن عباد قال: بلغني أن الوحش كانت تصوم عاشوراء. وبإسناد له عن رجل أتى البادية يوم عاشوراء فرأى قوما يذبحون ذبائح فسألهم عن ذلك فأخبروه أن الوحوش صائمة وقالوا: اذهب بنا نرك فذهبوا به إلى روضة فأوقفوه قال: فلما كان بعد العصر، جاءت الوحوش من كل وجه فأحاطت بالروضة رافعة رؤوسها إلى السماء ليس شيء منها يأكل حتى إذا غابت الشمس أسرعت جميعا فأكلت.

وبإسناده عن عبد الله بن عمرو قال: بين الهند والصين أرض كان بها بطة من نحاس على عمود من نحاس، فإذا كان يوم عاشوراء مدت منقارها فيفيض من منقارها ماء يكفيهم لزروعهم ومواشيهم إلى العام المقبل. ورئي بعض العلماء المتقدمين في المنام فسئل عن حاله فقال: غفر لي بصيام عاشوراء ستين سنة. وفي رواية: (ويوم قبله ويوم بعده). وذكر عبد الوهاب الخفاف في كتاب الصيام: قال سعيد، قال قتادة: كان يقال: صوم عاشوراء كفارة لما ضيع الرجل من زكاة ماله. وقد روي: إن

عاشوراء كان يوم الزينة الذي كان فيه ميعاد موسى لفرعون، وأنه كان عيدا لهم. ويروى أن موسى عليه السلام كان يلبس فيه الكتان ويكتحل فيه بالإثمد، وكان اليهود من أهل المدينة وخيبر في عهد رسول الله يتخذونه عيدا وكان أهل الجاهلية يقتدون بهم في ذلك وكانوا يسترون فيه الكعبة.

ولكن شرعنا ورد بخلاف ذلك، ففي الصحيحين عن أبي موسى قال: كان يوم عاشوراء يوما تعظمه اليهود وتتخذه عيدا، فقال رسول الله : (صوموه أنتم)، وفي رواية لمسلم: كان أهل خيبر يصومون يوم عاشوراء يتخذونه عيدا، ويلبسون نساءهم فيه حليهم وشارتهم فقال رسول الله : (فصوموه أنتم) وخرجه النسائي وابن حبان وعندهما فقال رسول الله : (خالفوهم فصوموه). وهذا يدل على النهي عن اتخاذه عيدا وعلى استحباب صيام أعياد المشركين، فإن الصوم ينافي اتخاذه عيدا، فيوافقون في صيامه مع صيام يوم آخر معه كما تقدم، فإن في ذلك مخالفة لهم في كيفية صيامه أيضا، فلا تبقى فيه موافقة لهم في شيء بالكلية. وعلى مثل هذا يحمل ما خرجه الإمام أحمد والنسائي وابن حبان من حديث أم سلمة أن النبي كان يصوم يوم السبت ويوم الأحد أكثر ما يصوم من الأيام، ويقول: (إنهما يوما عيد للمشركين فأنا أحب أن أخالفهم) فإنه إذا صام اليومين معا خرج بذلك عن مشابهة اليهود والنصارى في تعظيم كل طائفة ليومها منفردا، وصيامه فيه مخالفة لهم في اتخاذه عيدا، ويجمع بذلك بين هذا الحديث وبين حديث النهي عن صيام يوم السبت.

وكل ما رُوي في فضل الاكتحال في يوم عاشوراء والاختضاب والاغتسال فيه فموضوع لا يصح. وأما الصدقة فيه فقد روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: من صام عاشوراء فكأنما صام السنة، ومن تصدق فيه كان كصدقة السنة. أخرجه أبو موسى المديني.

وأما التوسعة فيه على العيال فقال حرب: سألت أحمد عن الحديث الذي جاء: من وسع على أهله يوم عاشوراء) فلم يره شيئا، وقال ابن منصور: قلت لأحمد: هل سمعت في الحديث: (من وسع على أهله يوم عاشوراء أوسع الله عليه سائر السنة) فقال: نعم رواه سفيان بن عيينة عن جعفر الأحمر عن إبراهيم بن محمد عن المنتشر وكان من أفضل أهل زمانه أنه بلغه: أنه من وسع على عياله يوم عاشوراء أوسع الله عليه سائر سنته. قال ابن عيينة: جربناه منذ خمسين سنة أو ستين سنة فما رأينا إلا خيرا. وقول حرب أن أحمد لم يره شيئا إنما أراد به الحديث الذي يروى مرفوعا إلى النبي ، فإنه لا يصح إسناده وقد روي من وجوه متعددة لا يصح منها شيء. وممن قال ذلك محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، وقال العقبلي: هو غير محفوظ وقد روي عن عمر من قوله وفي إسناده مجهول لا يعرف.

ذكر الرافضة في اتخاذ عاشوراء مأتما

وأما اتخاذه مأتما كما تفعله الرافضة لأجل قتل الحسين بن علي رضي الله عنهما فيه: فهو من عمل من ضل سعيه في الحياة الدنيا وهو يحسب أنه يحسن صنعا، ولم يأمر الله ولا رسوله باتخاذ أيام مصائب الأنبياء وموتهم مأتما فكيف بمن دونهم؟.

ومن فضائل يوم عاشوراء: أنه يوم تاب الله فيه على قوم، وقد سبق حديث علي الذي خرجه الترمذي أن النبي قال لرجل: (إن كنت صائما شهرا بعد رمضان فصم المحرم، فإن فيه يوما تاب الله على قوم، ويتوب فيه على آخرين)

وقد صح من حديث أبي إسحاق عن الأسود بن يزيد قال: سألت عبيد بن عمير عن صيام يوم عاشوراء: فقال المحرم شهر الله الأصم: فيه يوم تيب فيه على آدم فإن استطعت أن لا يمر بك إلا صمته كذا روي عن شعبة عن أبي إسحاق، ورواه إسرائيل عن أبي إسحاق ولفظه قال: إن قوما أذنبوا فتابوا فيه فتيب عليهم، فإن استطعت أن لا يمر بك إلا وأنت صائم فافعل). ورواه يونس عن أبي إسحاق ولفظه قال: إن المحرم شهر الله وهو رأس السنة تكتب فيه

الكتب، ويؤرخ فيه التاريخ، وفيه تضرب الورق، وفيه يوم تاب فيه قوم فتاب الله عليهم، فلا يمر بك إلا صمته) يعني يوم عاشوراء وروى أبو موسى المديني من حديث أبي موسى مرفوعا: هذا يوم تاب الله فيه على قوم فاجعلوه صلاة وصوما) يعني يوم عاشوراء وقال: حسن غريب، وليس كما قال وروى بإسناده عن علي قال: يوم عاشوراء هو اليوم الذي تيب فيه على قوم يونس.

وعن ابن عباس قال: هو اليوم الذي تيب فيه على آدم، وعن وهب: إن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام: أن مر قومك يتوبوا إلي في أول عشر المحرم، فإذا كان يوم العاشر فليخرجوا إليّ حتى أغفر لهم. وروى عبد الرزاق عن ابن جريج عن رجل عن عكرمة قال: هو يوم تاب الله فيه على آدم يوم عاشوراء. وروى عبد الوهاب الخفاف عن سعيد عن قتادة قال: كنا نتحدث اليوم الذي تيب فيه على آدم يوم عاشوراء، وهبط فيه آدم إلى الأرض يوم عاشوراء، وقوله في حديث علي ويتوب فيه على آخرين، حث للناس على تجديد التوبة النصوح في يوم عاشوراء، وترجيه لقبول التوبة، فمن تاب فيه إلى الله عز وجل من ذنوبه تاب الله عليه كما تاب فيه على من قبلهم.

ذكر آدم عليه السلام فضله وإخراجه وذريته وأن عاشوراء هو اليوم الذي تاب فيه الله عليه

وقد قال الله تعالى عن آدم: (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم) وأخبر عنه وعن زوجه أنهما قالا: (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين).كتب عمر بن عبد العزيز إلى الأمصار كتابا قال فيه: قولوا كما قال أبوكم آدم عليه السلام: (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) وقولوا كما قال نوح: (وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين) وقولوا كما قال موسى: (رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي) وقولوا كما قال ذو النون: (لا إله

إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين).

واعتراف المذنب بذنبه مع الندم عليه توبة مقبولة، قال الله عز وجل: (وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم).

قال النبي ﷺ: (إن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه). وفي دعاء الاستفتاح الذي كان النبي ﷺ يستفتح به: (اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت). وفي الدعاء الذي علمه النبي ﷺ للصديق أن يقوله في صلاته: (اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم) وفي حديث شداد بن أوس عن النبي ﷺ: (سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت)

الاعتراف يمحو الاقتراف كما قيل:

فإن اعتراف المرء كما أن إنكار الذنوب

لما أهبط آدم من الجنة بكى على تلك المعاهد فيما يروى ثلاثمائة عام وحق له ذلك كان في دار لا يجوع فيها ولا يعرى ولا يظمأ فيها ولا يضحى فلما نزل إلى الأرض أصابه ذلك كله فكان إذا رأى جبريل عليه السلام يتذكر برؤيته تلك المعاهد، فيشتد بكاؤه حتى يبكي جبريل عليه السلام لبكائه، ويقول له: ما هذا البكاء يا آدم فيقول: وكيف لا أبكي وقد أخرجت من دار النعمة إلى دار البؤس، فقال له بعض ولده: لقد آذيت أهل الأرض ببكائك فقال إنما أبكي على أصوات الملائكة حول العرش. وفي رواية قال: إنما أبكي على جوار ربي في دار تربتها طيبة، أسمع فيها أصوات الملائكة. وفي رواية قال: أبكي على دار لو رأيتها لزهقت نفسك شوقا إليها. وروي أنه قال لولده: كنا نسلا من نسل السماء، خلقنا كخلقهم وغذينا بغذائهم، فسبانا عدونا إبليس، فليس لنا فرحة ولا راحة إلا الهم والعناء حتى نرد

إلى الدار التي أخرجنا منها.

فحي على جنات منازلك الأولى وفيها ... ولكننا سبي العدو نعود إلى أوطاننا

لما التقى آدم وموسى عليهما السلام، عاتب موسى آدم على إخراجه نفسه وذريته من الجنة، فاحتج آدم بالقدر السابق، والاحتجاج بالقدر على المصائب حسن، كما قال النبي ﷺ: (إن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا كان كذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل).

وإلله لولا سابق لم تبعد قط داركم ... من قبل النأي جرية هل يمحوالعبد ما

لما ظهرت فضائل آدم عليه السلام على الخلائق بسجود الملائكة له، وبتعليمه أسماء كل شيء، وإخباره الملائكة بها وهم يستمعون له كاستماع المتعلم من معلمه، حتى أقروا بالعجز عن علمه، وأقروا له بالفضل، وأسكن هو وزوجته الجنة، ظهر الحسد من إبليس وسعى في الأذى، وما زالت الفضائل إذا ظهرت تحسد:

لا مات حسادك بل حتى يروا منك الذي ... لا زلت محسودا فإنما الكامل من

فما زال يحتال على آدم حتى تسبب في إخراجه من الجنة وما فهم الأبله أن آدم إذا خرج منها كملت فضائله ثم عاد إلى الجنة على أكمل من حاله الأول إنما أهلك إبليس العجب بنفسه ولذلك قال أنا خير منه وإنما كملت فضائل آدم باعترافه على نفسه: (قالا ربنا ظلمنا أنفسنا) كان إبليس كلما أوقد نار الحسد لآدم فاح بها ريح طيب آدم واحترق إبليس:

وإذا أراد الله نشر طويت أتاح لها لسان ... لولا اشتعال النار ما كان يعرف طيب

قال بعض السلف: آدم أخرج من الجنة بذنب واحد وأنتم تعلمون الذنوب وتكثرون منها وتريدون أن تدخلوا بها الجنة:

لا مات حسادك بل حتى يروا منك الذي ... لا زلت محسودا فإنما الكامل من

تصل الذنوب إلى درج الجنان بها وفوز
ونسيت أن الله منها إلى الدنيا بذنب

أحذروا هذا العدو الذي أخرج أباكم من الجنة، فإنه ساع في منعكم من العود إليها بكل سبيل، والعداوة بينكم وبينه قديمة، فإنه ما أخرج من الجنة وطرد عن الخدمة إلا بسبب تكبره على أبيكم، وامتناعه من السجود له لما أمر به وقد أيس من الرحمة وأيس من العود إلى الجنة، وتحقق خلوده في النار فهو يجتهد على أن يخلد معه في النار بني آدم بتحسين الشرك، فإن عجز قنع بما دونه من الفسوق والعصيان، وقد حذركم مولاكم منه، وقد أعذر من أنذر، فخذوا حذركم: (يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة)

العجب ممن عرف ربه ثم عصاه وعرف الشيطان ثم أطاعه: (أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا):

رعى الله من نهوى حفظنا له العهد
وصاحبت قوما كنت وحقك ما أبقيت

لما أهبط آدم إلى الأرض وعد العود إلى الجنة، هو ومن آمن من ذريته واتبع الرسل: (يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) فليبشر المؤمنون بالجنة هي إقطاعهم وقد وصل منشور الإقطاع مع جبريل إلى محمد ﷺ: (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار) إنما خرج الإقطاع عمن خرج عن الطاعة، فأما من تاب وآمن فالإقطاع مردود عليه، المؤمنون في دار الدنيا في سفر جهاد يجاهدون فيه النفوس والهوى، فإذا انقضى سفر الجهاد عادوا إلى وطنهم الأول الذي كانوا فيه في صلب آدم، تكفل الله للمجاهد في سبيله أن يرده إلى وطنه بما نال من أجر أو غنيمة.

وصلت إليكم معشر الأمة رسالة من أبيكم إبراهيم مع نبيكم محمد ﷺ، قال رسول الله ﷺ: (رأيت ليلة أسري بي إبراهيم فقال: يا محمد أقرىء أمتك

السلام وأخبرهم: أن الجنة عذبة الماء، طيبة التربة، وأنها قيعان، وأن غراسها: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر) وخرج النسائي والترمذي عن جابر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: من قال سبحان الله العظيم وبحمده غرست له نخلة في الجنة) وخرج ابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا: (من قال سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر يغرس له بكل واحدة شجرة في الجنة) وخرجه الطبراني من حديث ابن عباس مرفوعا، وخرجه ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة مرفوعا: (من قال سبحان الله العظيم بني له برج في الجنة) وروي موقوفا وعن الحسن قال: الملائكة يعملون لبني آدم في الجنان، يغرسون ويبنون فربما أمسكوا، فيقال لهم: قد أمسكتم ؟ فيقولون: حتى تأتينا النفقات. وقال الحسن: فأتعبوهم بأبي أنتم وأمي على العمل وقال بعض السلف: بلغني أن دور الجنة تبنى بالذكر فإذا أمسك عن الذكر أمسكوا عن البناء فيقال لهم: فيقولون: حتى تأتينا نفقة.

أرض الجنة اليوم قيعان، والأعمال الصالحة لها عمران، بها تبنى القصور وتغرس أرض الجنان، فإذا تكامل الغراس والبنيان انتقل إليه السكان.

رأى بعض الصالحين في منامه قائلا يقول له: قد أمرنا بالفراغ من بناء دارك، واسمها دار السرور، فأبشر وقد أمرنا بتنجيدها وتزيينها والفراغ منها إلى سبعة أيام، فلما كان بعد سبعة أيام مات، فرؤي في المنام فقال: أدخلت دار السرور فلا تسأل عما فيها لم ير مثل الكريم إذا حل به المطيع، رأى بعضهم كأنه أدخل الجنة وعرض عليه منازله وأزواجه، فلما أراد أن يخرج تعلق به أزواجه وقالوا له: بالله حسن عملك، فكلما حسنت عملك ازددنا نحن حسنا. العاملون اليوم يسلفون رؤوس أموال الأعمال فيما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين إلى أجل يوم المزيد في سوق الجنة فإذا حل الأجل دخلوا السوق فحملوا منه ما شاؤوا بغير نقد ثمن على ما قد سلف من تعجيل رأس مال السلف، لكن بغير مكيال ولا ميزان.

فيا من عزم أن يسلف اليوم إلى ذلك الموسم،

عجل بتقبيض رأس المال، فإن تأخير التقبيض يفسد العقد، فلله ذاك السوق الذي هو موعد المزيد لوفد الحب لوكنت منهم فما شئت منه، خذ بلا ثمن له فقد أسلف التجار فيه وأسلموا، في الحديث: (إن الجنة تقول: يا رب ائتني بأهلي وبما وعدتني فقد كثر حريري، وإستبرقي وسندسي ولؤلؤي ومرجاني وفضتي وذهبي، وأباريقي وخمري وعسلي ولبني، فأتني بأهلي وبما وعدتني). وفي الحديث أيضا: من سأل الله الجنة شفعت له الجنة إلى ربها وقالت: اللهم أدخله الجنة) وفي الحديث أيضا: (إن الجنة تفتح في كل سحر ويقال لها: ازدادي طيبا لأهلك، فتزداد طيبا، فذلك البرد الذي يجده الناس في السحر).

قلوب العارفين تستنشق أحيانا نسيم الجنة، قال أنس بن النضر يوم أحد: واها لريح الجنة، والله إني لأجد ريح الجنة من قبل أحد، ثم تقدم فقاتل حتى قتل:

تمرِ الصبا صبحا ويصدع قلبي أن يهب
قريبة عهد بالحبيب هوى كل نفس أين

كم لله من لطف وحكمه في إهباط آدم إلى الأرض، لولا نزوله لما ظهر جهاد المجاهدين واجتهاد العابدين المجتهدين، ولا صعدت زفرات أنفاس التائبين، ولا نزلت قطرات دموع المذنبين، يا آدم! إن كنت أهبطت من دار القرب: (فإني قريب أجيب دعوة الداع) إن كان حصل لك بالإخراج من الجنة كسر، فأنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي،إن كان حصل لك بالإخراج كسر، فانا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي، إن كان فاتك في السماء سماع زجل المسبحين، فقد تعوضت في الأرض بسماع أنين المذنبين. أنين المذنبين أحب إلينا من زجل المسبحين زجل المسبحين ربما يشوبه الافتخار، وأنين المذنبين يزينه الانكسار لو لم تذنبوا لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون ثم يستغفرون فيغفر لهم، سبحان من إذا لطف بعبده في المحن قلبها منحا، وإذا خذل عبدا لم ينفعه كثرة اجتهاده وعاد عليه وبالاً، لقن آدم حجته وألقى

إليه ما تقبل به توبته: (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه) وطرد إبليس بعد طول خدمته فصار عمله هباء منثورا: (قال فاخرج منها فإنك رجيم * وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين) إذا وضع عدله على عبد لم تبق له حسنة، وإذا بسط فضله على عبد لم تبق له سيئة.

يعطي ويمنع من وهباته ليست

لما ظهر فضل آدم على الخلائق بالعلم، وكان العلم لا يكمل بدون العمل بمقتضاه، والجنة ليست دار عمل ومجاهدة، وإنما دار نعيم ومشاهدة، قيل له: يا آدم اهبط إلى رباط الجهاد، وصابر جنود الهوى بالجد والاجتهاد، واذرف دموع الأسف على البعاد، فكأنك بالعيش الماضي، وقد عاد على أكمل من ذلك الوجه المعتاد:

عودوا إلى الوصل فالهجر صعب
لو ذاق طعم لكاد من وجده
قد حملوني عذاب يعجز عن حمله
قلت وقلبي أسير متيم في الجفا
أنتم لنا في الهوى ونحن في أسركم

المجلس الثالث في قدوم الحاج

في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي قال: (من حج هذا البيت ولم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه) مباني الإسلام الخمس، كل واحد منها يكفر الذنوب والخطايا ويهدمها، ولا إله إلا الله لا تبقي ذنبا ولا يسبقها عمل، والصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر، والصدقة تطفيء الخطيئة كما يطفيء الماء النار، والحج الذي لا رفث فيه ولا فسوق يرجع صاحبه من ذنوبه كيوم ولدته أمه، وقد استنبط معنى هذا الحديث من القرآن طائفة من العلماء وتأولوا قول الله تعالى: (فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى) بأن من قضى نسكه ورجع منه، فإن آثامه تسقط عنه إذا اتقى الله عز وجل في أداء نسكه، وسواء نفر في اليوم الأول من

يومي النفر متعجلا أو متأخرا إلى اليوم الثاني. وفي مسند أبي يعلى الموصلي عن النبي قال: (من قضى نسكه، وسلم المسلمون من لسانه ويده، غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر) وفي الصحيحين عن النبي قال: (الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة) وفي صحيح مسلم عنه قال: (الحج يهدم ما قبله).

فالحج المبرور: يكفر السيئات ويوجب دخول الجنات، وقد روي أنه سئل عن بر الحج ؟ فقال: (إطعام الطعام وطيب الكلام) فالحج المبرور ما اجتمع فيه أعمال البر مع اجتناب أعمال الإثم، فما دعا الحاج لنفسه ولا دعا له غيره بأحسن من الدعاء بأن يكون حجه مبرورا، ولهذا يشرع للحاج إذا فرغ من أعمال حجه وشرع في التحلل من إحرامه برمي جمرة العقبة يوم النحر أن يقول: (اللهم اجعله حجا مبرورا وسعيا مشكورا وذنبا مغفورا). وروي ذلك عن ابن مسعود وابن عمر من قولهما، وروي عنهما مرفوعا، وكذلك يدعى للقادم من الحج بأن يجعل الله حجه مبرورا. وفي الأثر: أن آدم عليه السلام لما حج البيت وقضى نسكه أتته الملائكة فقالوا له: يا آدم بر حجك لقد حججنا هذا البيت بألفي عام وكذلك كان السلف يدعون لمن رجع من حجه، لما حج خالد الحذاء ورجع قال له أبوقلابة: بر العمل معناه جعل الله عملك مبرورا.

علامات الحج المبرور

للحج المبرور علامات لا تخفى، قيل للحسن: الحج المبرور جزاؤه الجنة ؟ قال: آية ذلك: أن يرجع زاهدا في الدنيا راغبا في الآخرة، وقيل له: جزاء الحج المغفرة ؟ قال: آية ذلك: أن يدع سيء ما كان عليه من العمل. الحج المبرور مثل حج إبراهيم بن أدهم مع رفيقه الرجل الصالح الذي صحبه من بلخ، فرجع من حجه زاهدا في الدنيا راغبا في الآخرة وخرج عن ملكه وماله وأهله وعشيرته وبلاده، واختار بلاد الغربة وقنع بالأكل من عمل يده، إما من الحصاد أومن نظارة البساتين، حج مرة مع جماعة من أصحابه فشرط عليهم في ابتداء السفر

أن لا يتكلم أحدهم إلا لله تعالى، ولا ينظر إلا له، فلما وصلوا وطافوا بالبيت رأوا جماعة من أهل خراسان في الطواف معهم غلام جميل قد فتن الناس بالنظر إليه، فجعل إبراهيم يسارقه النظر ويبكي، فقال له بعض أصحابه: يا أبا إسحاق ألم تقل لنا: لا ننظر إلا لله تعالى ؟ فقال: ويحك هذا ولدي وهؤلاء خدمي وحشمي:

هجرت الخلق طرا وأيتمت العيال
فلوقطعتني في لما حن الفؤاد

قال بعض السلف: استلام الحجر الأسود هو أن لا يعود إلى معصية يشير إلى ما قاله ابن عباس رضي الله عنهما: أن الحجر الأسود يمين الله في الأرض، فمن استلمه وصافحه فكأنما صافح الله وقبّل يمينه. وقال عكرمة: الحجر الأسود يمين الله في الأرض، فمن لم يدرك بيعة رسول الله ا– فمسح الركن فقد بايع الله ورسوله. وورد في حديث: (أن الله لما استخرج من ظهر آدم ذريته وأخذ عليهم الميثاق كتب ذلك العهد في رق، ثم استودعه هذا الحجر فمن ثم يقول: (من يستلمه وفاء بعهدك فمستلم الحجر يبايع الله على اجتناب معاصيه والقيام بحقوقه) (فمن نكث فإنما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما) يا معاهدينا على التوبة بيننا وبينكم عهود أكيدة أولها: يوم (ألست بربكم) فقلتم بلى، والمقصود الأعظم من هذا العهد: أن لا تعبدوا إلا إياه، وتمام العمل بمقتضاه: أن اتقوا الله حق تقواه، وثانيها: يوم أرسل إليكم رسوله وأنزل عليه في كتابه: (وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم) قال سهل التستري: من قال لا إله إلا الله فقد بايع الله، فحرام عليه إذ بايعه أن يعصيه في شيء من أمره في السر والعلانية أو يوالي عدوه أو يعادي وليه:

يا بني الإسلام من بعد إذ عاهدتم
كل شيء في ما خلا الغدر

وثالثها: لمن حج إذا استلم الحجر فإنه يجدد البيعة، ويلتزم الوفاء بالعهد المتقدم: (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) الحر

الكريم لا ينقض العهد القديم:

أحسبتم أن عقد الهوى لا كان
يفنى الزمان وعلى محبتكم

إذا دعتك نفسك إلى نقض عهد مولاك، فقل لها: (معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون). اجتاز بعضهم على منظور مشتهى فهمت عينه أن تمتد فصاح:

حلفت بدين الحب لا وذلك عهد

تاب بعض من تقدم ثم نقض فهتف به هاتف بالليل:

سأترك ما بيني فإن عدت عدنا
تواصل قوماً لا وتترك مثلي

من تكرر منه نقض العهد لم يوثق بمعاهدته. دخل بعض السلف على مريض مكروب فقال له: عاهد الله على التوبة، لعله أن يقيلك صرعتك، فقال: كنت كلما مرضت عاهدت الله على التوبة فيقيلني، فلما كان هذه المرة ذهبت أعاهد كما كنت أعاهد، فهتف بي هاتف من ناحية البيت: قد أقلناك مرارا فوجدناك كذابا ثم مات عن قريب.

لا كان من نقض ما ينقض العهد إلا

غيره:

ترى الحي الالى على العهد كما
أم الدهر بهم خاننا ودهر المرء خوان
إذا عز بغير الله يوما معشر هانوا

من رجع من الحج فليحافظ على ما عاهد الله عليه عند استلام الحجر. حج بعض من تقدم فبات بمكة مع قوم، فدعته نفسه إلى معصية، فسمع هاتفا يقول: ويلك ألم تحج! فعصمه الله من ذلك، قبيح بمن كمل القيام بمباني الإسلام الخمس أن يشرع في نقض ما يبني بالمعاصي، في حديث مرسل خرجه ابن أبي الدنيا: (أن النبي ﷺ قال لرجل: يا فلان إنك تبني وتهدم ـ يعني تعمل الحسنات والسيئات ـ فقال يا رسول الله: سوف أبني ولا أهدم:

خذ في جد فقد كم ذا التفريط فقد
أقبل فعسى يقبل كم تبني كم تنقض

علامة قبول الطاعة أن توصل بطاعة بعدها، وعلامة ردها أن توصل بمعصية. ما أحسن الحسنة بعد الحسنة، وأقبح السيئة بعد الحسنة، ذنب بعد التوبة أقبح من سبعين قبلها، النكسة أصعب من المرض الأول، ما أوحش ذل المعصية بعد عز الطاعة، ارحموا عزيز قوم بالمعاصي ذل، وغني قوم بالذنوب افتقر. سلوا الله الثبات إلى الممات، وتعوذوا من الحور بعد الكور.

كان الإمام أحمد يدعو ويقول: اللهم أعزني بطاعتك ولا تذلني بمعصيتك. وكان عامة دعاء إبراهيم بن أدهم: اللهم انقلني من ذل المعصية إلى عز الطاعة. وفي بعض الآثار الإلهية يقول الله تبارك وتعالى: أنا العزيز فمن أراد العز فليطع العزيز.

ألا إنما التقوى هي وحبك للدنيا هو
وليس على عبد إذا حقق التقوى

الحاج إذا كان حجه مبرورا غفر له ولمن استغفر له، وشفع فيمن شفع فيه. وقد روي: (إن الله تعالى يقول لهم يوم عرفة: أفيضوا مغفورا لكم ولمن شفعتم فيه). وروى الإمام أحمد بإسناده عن أبي موسى الأشعري قال: إن الحاج ليشفع في أربعمائة بيت من قومه، ويبارك في أربعين من أمهات البعير الذي يحمله و ويخرج من خطاياه كيوم ولدته أمه، فإذا رجع من الحج المبرور، رجع وذنبه مغفور، ودعاؤه مستجاب، فذلك يستحب تلقيه والسلام عليه، وطلب الاستغفار منه).وتلقي الحاج مسنون.

وفي صحيح مسلم، عن عبد الله بن جعفر، قال: (كان النبي إذا قدم من سفر تلقى بصبيان أهل المدينة، وإنه قدم من سفر، فسبق بي إليه فحملني بين يديه، ثم جيء بأحد ابني فاطمة فأردفه خلفه، فأدخلنا المدينة ثلاثة على دابة). وقد ورد النهي عن ركوب ثلاثة على دابة في حديث مرسل، فإن صح: حمل على ركوب ثلاثة رجال فإن الدابة يشق عليها

حملها، بخلاف رجل وصغيرين.

وفي المسند وصحيح الحاكم عن عائشة قالت: أقبلنا من مكة في حج أو عمرة فتلقانا غلمان من الأنصار كانوا يتلقون أهاليهم إذا قدموا. وكذلك السلام على الحاج إذا قدم ومصافحته وطلب الدعاء منه. وفي المسند بإسناد فيه ضعف عن ابن عمر عن النبي قال: إذا لقيت الحاج فسلم عليه وصافحه، ومره أن يستغفر لك قبل أن يدخل بيته، فإنه مغفور له) وفيه أيضا عن حبيب بن أبي ثابت قال: خرجت مع أبي نتلقى الحاج ونسلم عليهم قبل أن يتدنسوا. وروى معاذ بن الحكم حدثنا موسى بن أعين عن الحسن قال: إذا خرج الحاج فشيعوهم وزودوهم الدعاء، وإذا قفلوا فالقوهم وصافحوهم قبل أن يخالطوا الذنوب، فإن البركة في أيديهم. وروى أبو الشيخ الأصبهاني وغيره من رواية ليث عن مجاهد قال: قال عمر: يغفر للحاج ولمن استغفر له الحاج بقية ذي الحجة، ومحرم، وصفر، وعشر من ربيع الأول. وفي مسند البزار وصحيح الحاكم من حديث أبي هريرة مرفوعا: اللهم اغفر للحاج ولمن استغفر له الحاج.

وروى أبو معاوية الضرير عن حجاج عن الحكم قال: قال ابن عباس: لو يعلم المقيمون ما للحاج عليهم من الحق لأتوهم حين يقدمون حتى يقيلوا رواحلهم، لأنهم وفد الله في جميع الناس، ما للمنقطع حيلة سوى التعلق بأذيال الواصلين:

هل الدهر يوما ... وأيامنا باللوى هل
زمان تقضى ... بنفس والله تلك
إلا قل لزوار دار ... هنيئا لكم في
أفيضوا علينا من ... فنحن عطاش وأنتم

أحب ما إلى المحب سؤال من قدم من ديار الحبيب:

عارضا بي ركب ... متى عهده بأيام
واستملا حديث من ... ولا تكتباه إلا بدمعي
فاتني أن أرى ... فلعلي أرى الديار

من معيد أيام جمع كان منها وأين أيام

لقاء الأحباب لقاح الألباب، وأخبار تلك الديار أحلى عند المحبين من الأسمار:

إذا قدم الركب أحيى الوجوه قدوما

واسألهم عن عقيق وعن أرض نجد ومن

حدثوني عن أنتم بالعقيق أقرب

ألا هل سمعتم على ساحة الخيف

فذكر المشاعر وذكر الصفا يطرد

أرواح القبول تفوح من المقبولين، وأنوار الوصول تلوح على الواصلين:

تفوح أرواح نجد عند القدوم لقرب

أهفو إلى الركب من الحمى في

يا راكبان قفا لي وحدثاني عن نجد

ما يؤهل للإكثار من التردد إلى تلك الآثار إلا محب مختار.

حج علي بن الموفق ستين حجة قال: فلما كان بعد ذلك جلست في الحجر أفكر في حالي، وكثرة ترددي إلى ذلك المكان ولا أدري، هل قبل مني حجي أم رد، ثم نمت فرأيت في منامي قائلا يقول لي: هل تدعو إلى بيتك إلا من تحب؟ قال: فاستيقظت وقد سري عني. ما كل من حج قبل، ولا كل من صلى وصل.

قيل لابن عمر: ما أكثر الحاج ؟ قال: ما أقلهم وقال: الركب كبير والحاج قليل.

حج بعض المتقدمين فتوفي في الطريق في رجوعه، فدفنه أصحابه ونسوا الفأس في قبره فنبشوه ليأخذوا الفأس فإذا عنقه ويداه قد جمعت في حلقة الفأس، فردوا عليه التراب ثم رجعوا إلى أهله فسألوهم عن حاله ؟ فقالوا: صحب رجلا، فأخذ ماله فكان يحج منه:

إذا حججت بمال فما حججت ولكن

لا يقبل الله إلا كل ما كل من حج بيت

من حجه مبرور قليل ولكن قد يوهب المسيء للمحسن. وقد روي: (أن الله تعالى يقول عشية عرفة: قد وهبت مسيئكم لمحسنكم). حج بعض

المتقدمين فنام ليلة فرأى ملكين نزلا من السماء فقال أحدهما للآخر: كم حج العام ؟ قال: ستمائة ألف فقال له: كم قبل منهم ؟ قال: ستة قال: فاستيقظ الرجل وهو قلق مما رأى، فرأى في الليلة الثانية كأنهما نزلا وأعادا القول، وقال أحدهما: إن الله وهب لكل واحد من الستة مائة ألف. كان بعض السلف يقول في دعائه: اللهم إن لم تقبلني فهبني لمن شئت من خلقك، من رد عليه عمله ولم يقبل منه، فقد يعوض ما يعوض المصاب فيرحم بذلك.

قال بعض السلف في دعائه بعرفة: اللهم إن كنت لم تقبل حجي وتعبي ونصبي، فلا تحرمني أجر المصيبة على تركك القبول مني. وقال آخر منهم: اللهم ارحمني فإن رحمتك قريب من المحسنين، فإن لم أكن محسنا فقد قلت: (وكان بالمؤمنين رحيما) فإن لم أكن كذلك فأنا شيء وقد قلت: (ورحمتي وسعت كل شيء)، فإن لم أكن شيئا فأنا مصاب برد عملي وتعبي ونصبي فلا تحرمني ما وعدت المصاب من الرحمة. قال هلال بن يسار: بلغني أن المسلم إذا دعا الله فلم يستجب له كتب له حسنة. خرجه ابن أبي شيبة، يعني جزاء المصيبة رده.

من كان في فكيف يكون إذا ما

قدوم الحاج يذكر بالقدوم على الله تعالى

قدوم الحاج يذكر بالقدوم على الله تعالى قدم مسافر فيما مضى على أهله، فسروا به وهناك امرأة من الصالحات فبكت وقالت: أذكرني هذا بقدومه القدوم على الله عز وجل فمن مسرور ومثبور. قال بعض الملوك لأبي حازم: كيف القدوم على الله تعالى ؟ فقال أبو حازم: أما قدوم الطائع على الله تعالى فكقدوم الغائب على أهله المشتاقين إليه، وأما قدوم العاصي فكقدوم العبد الآبق على سيده الغضبان.

لعلك غضبان سلام على الدارين

في بعض الآثار الإسرائيلية يقول الله عز وجل: ألا طال شوق الأبرار إلي، وأنا إلى لقائهم أشد شوقا. كم بين الذين (لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم

الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون) وبين (الذين يدعون إلى نار جهنم دعا). قال علي رضي الله عنه: تتلقاهم الملائكة على أبواب الجنة: (سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين). ويلقى كل غلمان صاحبهم يطيفون به فعل الولدان بالحميم جاء من الغيبة ويقولون: أبشر فقد أعد الله لك من الكرامة كذا وكذا، قد أعد الله لك من الكرامة كذا وكذا، وينطلق غلام من غلمانه إلى أزواجه من الحور العين فيقول: هذا فلان باسمه في الدنيا فيقلن: أنت رأيته ؟ فيقول: نعم فيستخفهن الفرح حتى يخرجن إلى أسكفّة الباب.

قال أبو سليمان الداراني تبعث الحوراء من الحور الوصيف من وصائفها فتقول: ويحك انظر ما فعل بولي الله ؟ فتستبطئه، فتبعث وصيفا آخر فيأتي الأول فيقول: تركته عند الميزان، ويأتي الثاني فيقول: تركته عند الصراط، ويأتي الثالث فيقول: قد دخل باب الجنة فيستخفها الفرح، فتقف على باب الجنة، فإذا أتاها اعتنقته، فيدخل خياشيمه من ريحها ما لا يخرج أبدا.

قد أزلفت جنة ... طوبى لقوم بربعها
أكوابهم عسجد ... والخمر والسلسبيل
والحور تلقاهم وقد ... عين الوجوه بها

وظيفة شهر صفر

في (الصحيحين) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي أنه قال:(لا عدوى ولا هامة ولا صفر، فقال أعرابي: يا رسول الله فما بال الإبل تكون في الرمل كأنها الظباء فيخالطها البعير الأجرب فيجربها ؟ فقال رسول الله : فمن أعدى الأول ؟ !)

أما العدوى: فمعناها أن المرض يتعدى من صاحبه إلى من يقارنه من الأصحاء، فيمرض بذلك. وكانت العرب تعتقد ذلك في أمراض كثيرة منها الجرب، ولذلك سأل الأعرابي عن الإبل الصحيحة يخالطها البعير الأجرب فتجرب ؟ فقال النبي : (فمن أعدى الأول) ومراده: أن الأول لم يجرب بالعدوى بل بقضاء الله وقدره، فكذلك الثاني وما بعده. وقد

وردت أحاديث أشكل على كثير من الناس فهمها، حتى ظن بعضهم أنها ناسخة لقوله: (لا عدوى) مثل ما في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي قال: لا يورد ممرض على مصح) والممرض: صاحب الإبل المريضة، والمصح: صاحب الإبل الصحيحة. والمراد: النهي عن إيراد الإبل المريضة على الصحيحة. ومثل قوله : (فرّ من المجذوم فرارك من الأسد) وقوله في الطاعون: (إذا سمعتم به بأرض فلا تدخلوها) ودخول النسخ في هذا كما تخيله بعضهم لا معنى له، فإن قوله: (لا عدوى) خبر محض لا يمكن نسخه إلا أن يقال: هو نهي عن اعتقاد العدوى لا نفي لها، ولكن يمكن أن يكون ناسخا للنهي في هذه الأحاديث الثلاثة وما في معناها

بيان معنى لا عدوى

والصحيح الذي عليه جمهور العلماء: أنه لا نسخ في ذلك كله، ولكن اختلفوا في معنى قوله: (لا عدوى)، وأظهر ما قيل في ذلك: أنه نفي لما كان يعتقده أهل الجاهلية من أن هذه الأمراض تعدي بطبعها من غير اعتقاد تقدير الله لذلك. ويدل على هذا قوله: (فمن أعدى الأول ؟) يشير إلى أن الأول إنما جرب بقضاء الله وقدره، فكذلك الثاني وما بعده.

وخرج الإمام أحمد والترمذي من حديث ابن مسعود قال: قال رسول الله : (لا يعدي شيء شيئا) قالها ثلاثا، فقال أعرابي: يا رسول الله النقبة من الجرب تكون بمشفر البعير أو بذنبه في الإبل العظيمة فتجرب كلها ؟ فقال رسول الله : فما أجرب الأول، لا عدوى ولا هامة ولا صفر، خلق الله كل نفس وكتب حياتها ومصابها ورزقها) فأخبر أن ذلك كله بقضاء الله وقدره كما دل عليه قوله تعالى: (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها)، فأما نهيه عن إيراد الممرض على المصح، وأمره بالفرار من المجذوم، ونهيه عن الدخول إلى موضع الطاعون، فإنه من باب اجتناب الأسباب التي خلقها الله تعالى، وجعلها أسبابا

للهلاك أو الأذى.والعبد مأمور باتقاء أسباب البلاء إذا كان عافية منها، فكما أنه يؤمر أن لا يلقي نفسه في الماء أوفي النار أو يدخل تحت الهدم ونحوه مما جرت العادة بأنه يهلك أو يؤذى، فكذلك اجتناب مقاربة المريض كالمجذوم أو القدوم على بلد الطاعون. فإن هذه كلها أسباب للمرض والتلف. والله تعالى هو خالق الأسباب ومسبباتها لا خالق غيره ولا مقدر غيره. وقد روي في حديث مرسل خرجه أبو داود في مراسيله أن النبي : مر بحائط مائل فأسرع وقال: (أخاف موت الفوات) وروي متصلا، والمرسل أصح. وهذه الأسباب التي جعلها الله أسبابا يخلق المسببات بها، كما دل عليه قوله تعالى: (حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت، فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات) وقالت طائفة: إنه يخلق المسببات عندها لا بها.

وأما إذا قوي التوكل على الله تعالى والإيمان بقضائه وقدره، فقويت النفس على مباشرة بعض هذه الأسباب اعتمادا على الله، ورجاء منه أن لا يحصل به ضرر. ففي هذه الحال تجوز مباشرة ذلك لا سيما إذا كان مصلحة عامة أو خاصة وعلى مثل هذا يحمل الحديث الذي خرجه أبوداود والترمذي أن النبي : أخذ بيد مجذوم فأدخلها معه في القصعة ثم قال: (كل باسم الله ثقة بالله وتوكلا عليه) وقد أخذ به الإمام أحمد، وقد روي نحو ذلك عن عمر وابنه عبد الله وسلمان رضي الله عنهم. ونظير ذلك ما روي عن خالد بن الوليد رضي الله عنه: من أكل السم. ومنه: مشى سعد بن أبي وقاص وأبي مسلم الخولاني بالجيوش على متن البحر. ومنه: أمر عمر رضي الله عنه لتميم حيث خرجت النار من الحرة أن يردها، فدخل إليها في الغار التي خرجت منه. فهذا كله لا يصلح إلا لخواص من الناس قوي إيمانهم بالله وقضائه وقدره، وتوكلهم عليه وثقتهم به.

ونظير ذلك دخول المغاور بغير زاد لمن قوي يقينه وتوكله خاصة وقد نص عليه أحمد وإسحاق وغيرهما من الأئمة. وكذلك ترك التكسب والتطبب، كل ذلك يجوز عند أحمد لمن قوي توكله. فإن التوكل أعظم

الأسباب التي تستجلب بها المنافع وتدفع بها المضار، كما قال الفضيل: لو علم الله إخراج المخلوقين من قلبك لأعطاك كل ما تريد.

وبذلك فسر الإمام أحمد التوكل فقال: هو قطع الاستشراف باليأس من المخلوقين. قيل له: فما الحجة فيه ؟ قال: قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما أُلقي في النار فعرض له جبريل عليه السلام فقال: ألك حاجة ؟ قال: أما إليك فلا.

فلا يشرع ترك الأسباب الظاهرة إلا لمن تعوض عنها بالسبب الباطن، وهو تحقيق التوكل عليه، فإنه أقوى من الأسباب الظاهرة لأهله وأنفع منها.

فالتوكل: علم وعمل، والعلم: معرفة القلب بتوحيد الله بالنفع والضر وعامة المؤمنين تعلم ذلك، والعمل: هو ثقة القلب بالله وفراغه من كل ما سواه، وهذا عزيز ويختص به خواص المؤمنين.

والأسباب نوعان:

أحدهما: أسباب الخير: فالمشروع أنه يفرح بها ويستبشر ولا يسكن إليها بل إلى خالقها ومسببها، وذلك هو تحقيق التوكل على الله والإيمان به كما قال تعالى في الإمداد بالملائكة: (وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله) ومن هذا الباب الاستبشار بالفأل: وهو الكلمة الصالحة يسمعها طالب الحاجة، وأكثر الناس يركن بقلبه إلى الأسباب وينسى المسبب لها، وقل من فعل ذلك إلا وكل إليها وخذل، فإن جميع النعم من الله وفضله كما قال تعالى: (ما أصابك من حسنة فمن الله) (وما بكم من نعمة فمن الله):

لا نلت خيرا ما بق يت ولا عداني الدهر
إن كنت أعا أن غي ر الله ينفع أويضر

ولا تضاف النعم إلى الأسباب بل إلى مسببها ومقدرها كما في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: (أنه صلى بهم الصبح في أثر سماء ثم قال: أتدرون ما قال ربكم الليلة ؟ قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما المؤمن فقال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما الكافر فقال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن

بالكواكب) وفي صحيح مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي قال: (لا عدوى ولا هامة ولا نوء ولا صفر). وهذا مما يدل على أن المراد نفي تأثير هذه الأسباب بنفسها من غير اعتقاد أنها بتقدير الله وقضائه، فمن أضاف شيئا من النعم إلى غير الله مع اعتقاده أنه ليس من الله فهو مشرك حقيقة ومع اعتقاد أنه من الله فهو نوع شرك خفي.

النوع الثاني: أسباب الشر: فلا تضاف إلا إلى الذنوب، لأن جميع المصائب إنما هي بسبب الذنوب كما قال تعالى: (وما أصابك من سيئة فمن نفسك) وقال تعالى: (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم). فلا تضاف إلى شيء من الأسباب سوى الذنوب: كالعدوى أو غيرها، والمشروع: اجتناب ما ظهر منها واتقاؤه بقدر ما وردت به الشريعة مثل: اتقاء المجذوم والمريض، والقدوم على مكان الطاعون، وأما ما خفي منها فلا يشرع اتقاؤه واجتنابه، فإن ذلك من الطيرة المنهي عنها.

بيان معنى لا طيرة

والطيرة من أعمال أهل الشرك والكفر، وقد حكاها الله تعالى في كتابه عن قوم فرعون وقوم صالح وأصحاب القرية التي جاءها المرسلون، وقد ثبت عن النبي أنه قال (لا طيرة) وفي حديث: (من ردته الطيرة فقد قارف الشرك) وفي حديث ابن مسعود المرفوع: (الطيرة من الشرك وما منا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل) والبحث عن أسباب الشر من النظر في النجوم ونحوها من الطيرة المنهي عنها، والباحثون عن ذلك غالبا لا يشتغلون بما يدفع البلاء من الطاعات، بل يأمرون بلزوم المنزل وترك الحركة، وهذا لا يمنع نفوذ القضاء والقدر ومنهم من يشتغل بالمعاصي، وهذا مما يقوي وقوع البلاء ونفوذه، والذي جاءت به الشريعة هو ترك البحث عن ذلك، والإعراض عنه والاشتغال بما يدفع البلاء من الدعاء والذكر والصدقة. وتحقيق التوكل على الله عز وجل والإيمان بقضائه وقدره.

وفي مسند ابن وهب أن عبد الله بن عمرو بن العاص التقى هو وكعب فقال عبد الله لكعب: علم النجوم ؟ فقال كعب: لا خير فيه، قال عبد الله: لم؟ قال ترى فيه ما تكره- يريد الطيرة- فقال كعب: فإن مضى وقال: اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك ولا رب غيرك، فقال عبد الله: ولا حول ولا قوة إلا بك، فقال كعب: جاء بها عبد الله، والذي نفسي بيده: إنها لرأس التوكل، وكنز العبد في الجنة، ولا يقولهن عبد عند ذلك ثم يمضي ألا لم يضره شيء. قال عبد الله: أرأيت إن لم يمض وقعد ؟ قال: طعم قلبه طعم الإشراك.

وفي مراسيل أبي داود أن النبي قال: (ليس عبد إلا سيدخل قلبه طيرة، فإذا أحس بذلك فليقل: أنا عبد الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله، لا يأتي بالحسنات إلا الله، ولا يذهب السيئات إلا الله، أشهد أن الله على كل شيء قدير ثم يمضي لوجهه).

وفي مسند الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر مرفوعا: (من رجعته الطيرة من حاجته فقد أشرك وكفارة ذلك أن يقول أحدهم: اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا إله غيرك). وخرج الإمام أحمد وأبو داود من حديث عروة بن عامر القرشي قال: ذكرت الطيرة عند النبي فقال: (أحسنها الفأل ولا ترد مسلما، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك) وخرجه أبو القاسم البغوي وعنده: (ولا تضر مسلما).

وفي صحيح ابن حبان عن أنس رضي الله عنه عن النبي قال: (لا طيرة، والطيرة على من تطير)

وقال النخعي قال عبد الله بن مسعود: لا تضر الطيرة إلا من تطير.ومعنى هذا أن من تطير تطيرا منهيا عنه وهو أن يعتمد على ما يسمعه أو يراه مما يتطير به حتى يمنعه مما يريد من حاجته، فإنه قد يصيبه ما يكرهه فأما من توكل على الله ووثق به بحيث علق قلبه بالله خوفا ورجاء وقطعه عن الإلتفات إلى هذه الأسباب المخوفة، وقال ما أمر به

من هذه الكلمات ومضى فإنه لا يضره ذلك.

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان إذا سمع نعق الغراب قال: اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك. ولذلك أمر النبي عند انعقاد أسباب العذاب السماوية المخوفة كالكسوف بأعمال البر من الصلاة والدعاء والصدقة والعتق حتى يكشف ذلك عن الناس) وهذا كله مما يدل على أن الأسباب المكروهة إذا وجدت فإن المشروع الاشتغال بما يوحي به دفع العذاب المخوف منها من أعمال الطاعات والدعاء، وتحقيق التوكل على الله والثقة به فإن هذه الأسباب كلها مقتضيات لا موجبات ولها موانع تمنعها.

فأعمال البر والتقوى والدعاء والتوكل من أعظم ما يستدفع به، ومن كلام بعض الحكماء المتقدمين: ضجيج الأصوات في هياكل العبادات بأقنان اللغات تحلل ما عقدته الأفلاك الدائرات، وهذا على زعمهم واعتقادهم في الأفلاك. وأما اعتقاد المسلمين: فإن الله وحده هو الفاعل لما يشاء ولكنه يعقد أسبابا للعذاب وأسبابا للرحمة، فأسباب العذاب يخوف الله بها عباده ليتوبوا إليه ويتضرعوا إليه، مثل: كسوف الشمس والقمر فإنهما آيتان من آيات الله يخوف الله بهما عباده، لينظر من يحدث له توبة؟ فدل على أن كسوفهما سبب يخشى منه وقوع عذاب. وقد أمرت عائشة رضي الله عنها: أن تستعيذ من شر القمر وقال: الغاسق إذا وقب وقد أمر الله تعالى بالاستعاذة من شر غاسق إذا وقب). وهو الليل إذا أظلم فإنه ينتشر فيه شياطين الجن والإنس.

والاستعاذة من القمر لأنه آية الليل. وفيه إشارة إلى أن شر الليل المخوف لا يندفع بإشراف القمر فيه ولا يصير بذلك كالنهار، بل يستعاذ منه وإن كان مقمرا.

وخرج الطبراني من حديث جابر مرفوعا: لا تسبوا الليل ولا النهار ولا الشمس ولا القمر ولا الريح فإنها رحمة لقوم وعذاب لآخرين) ومثل اشتداد الرياح فإن الريح كما قاله : من روح الله تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب، وكان إذا اشتدت الريح أن يسأل الله تعالى خيرها وخير ما أرسلت به ويستعاذ به من شرها وشر

ما أرسلت به) وقد كان النبي إذا رأى ريحا أوغيما تغير وجهه وأقبل وأدبر فإذا أمطرت سري عنه ويقول: (قد عذب قوم بالريح) ورأى قوم السحاب (فقالوا هذا عارض ممطرنا).

وأسباب الرحمة يرجى بها عباده مثل: الغيم الرطب والريح الطيبة، ومثل المطر المعتاد عند الحاجة إليه. ولهذا يقال عند نزوله: اللهم سقيا رحمة ولا سقيا عذاب.

وأما من اتقى أسباب الضرر بعد انعقادها بالأسباب المنهي عنها، فإنه لا ينفعه ذلك غالبا كمن ردته الطيرة عن حاجته خشية أن يصيبه ما تطير به، فإنه كثيرا ما يصاب بما خشي منه كما قال ابن مسعود ودل عليه حديث أنس المتقدم، وكمن اتقى الطاعون الواقع في بلده بالفرار منه، فإنه قل أن ينجيه ذلك وقد فر كثير من المتقدمين والمتأخرين من الطاعون فأصابهم ولم ينفعهم الفرار، وقد قال الله تعالى: (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم) وقد ذكر كثير من السلف: أنهم كانوا قد فروا من الطاعون فأصابهم. وفر بعض المتقدمين من طاعون وقع فيما بينما هو يسير بالليل على حمار له إذ سمع قائلا يقول:

إن يسبق الله على ... ولا على منعة مطار

أو يأتي الحتف ... قد يصبح الله أمام

فأصابه الطاعون، فمات.

بيان معنى لا هامة

وأما قوله : (لا هامة) فهو: نفي لما كانت الجاهلية تعتقده أن الميت إذا مات صارت روحه أو عظامه هامة: وهو طائر يطير وهو شبيه باعتقاد أهل التناسخ: أن أرواح الموتى تنتقل إلى أجساد حيوانات من غير بعث ولا نشور. وكل هذه اعتقادات باطلة جاء الإسلام بإبطالها وتكذيبها، ولكن الذي جاءت بها الشريعة: أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تأكل من ثمار الجنة، وترد من أنهار الجنة إلى أن يردها الله إلى أجسادها. وروي أيضا أن نسمة

المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعها الله إلى أجسادها يوم القيامة.

وأما قوله : (ولا صفر) فاختلف في تفسيره فقال كثير من المتقدمين: الصفر: داء في البطن يقال: إنه دود فيه كبار كالحيات وكانوا يعتقدون أنه يعدي فنفى ذلك النبي . وممن قال هذا من العلماء: ابن عيينة والإمام أحمد وغيرهما، ولكن لو كان كذلك لكان هذا داخلا في قوله: (لا عدوى) وقد يقال: هو من باب عطف الخاص على العام، وخصه بالذكر لاشتهاره عندهم بالعدوى، وقالت طائفة: بل المراد بصفر شهر ثم اختلفوا في تفسيره على قولين:

أحدهما: أن المراد نفي ما كان أهل الجاهلية يفعلونه في النسيء، فكانوا يحلون المحرم ويحرمون صفر مكانه، وهذا قول مالك.

والثاني: أن المراد أن أهل الجاهلية كانوا يستشئمون بصفر ويقولون: إنه شهر مشئووم; فأبطل النبي ذلك. وهذا حكاه أبو داود عن محمد بن راشد المكحولي عمن سمعه يقول ذلك، ولعل هذا القول أشبه الأقوال وكثير من الجهال يتشاءم بصفر وربما ينهى عن السفر فيه. والتشاؤم بصفر هو من جنس الطيرة المنهي عنها، وكذلك التشاؤم بالأيام كيوم الأربعاء وقد روي أنه: (يوم نحس مستمر) في حديث لا يصح، بل في المسند عن جابر رضي الله عنه أن النبي : دعا على الأحزاب يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء فاستجيب له يوم الأربعاء بين الظهر والعصر) قال جابر: فما نزل بي أمر مهم غائظ إلا توخيت ذلك الوقت فدعوت الله فيه الإجابة أو كما قال.

وكذلك تشاؤم أهل الجاهلية بشوال في النكاح فيه خاصة وقد قيل: إن أصله أن طاعونا وقع في شوال في سنة من السنين فمات فيه كثير من العرائس فتشاءم بذلك أهل الجاهلية. وقد ورد الشرع بإبطاله (قالت عائشة رضي الله عنها: تزوجني رسول الله في شوال وبنى بي في شوال فأي نسائه كان

أحظى عنده مني) وكانت عائشة تستحب أن تدخل نساءها في شوال وتزوج النبي أم سلمة في شوال أيضا

فأما قول النبي : (لا عدوى ولا طيرة والشؤم في ثلاث في المرأة والدار والدابة) خرجاه في الصحيحين من حديث ابن عمر عن النبي فقد اختلف الناس في معناه أيضا فروي عن عائشة رضي الله عنها أنها أنكرت هذا الحديث أن يكون من كلام النبي وقالت: إنما قال: كان أهل الجاهلية يقولون ذلك خرجه الإمام أحمد وقال معمر سمعت من يفسر هذا الحديث يقول: شؤم المرأة: إذا كانت غير ولود وشؤم الفرس: إذا لم يكن يغزى عليه في سبيل الله وشؤم الدار: جار السوء وروي هذا المعنى مرفوعا من وجوه لا تصح ومنهم من قال قد روي عن النبي أنه قال: (لا شؤم وإن يكن اليمن في شيء ففي ثلاثة) فذكر هذه الثلاثة وقال هذه الرواية أشبه بأصول الشرع كذا قاله ابن عبد البر ولكن إسناد هذه الرواية لا يقاوم ذلك الإسناد

والتحقيق أن يقال في إثبات الشؤم في هذه الثلاث: ما ذكرناه في النهي عن إيراد المريض على الصحيح، والفرار من المجذوم، ومن أرض الطاعون، إن هذه الثلاث أسباب قدر الله تعالى بها الشؤم واليمن ويقرنه ،ولهذا يشرع لمن استعاد زوجة أو أمة أو دابة أن يسأل الله تعالى من خيرها وخير ما جلبت عليه، ويستعيذ به تعالى من شرها وشر ما جبلت عليه، كما في حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي الذي خرجه أبو داود وغيره، وكذا ينبغي لمن سكن دارا أن يفعل ذلك، وقد أمر النبي قوما سكنوا دارا فقل عددهم وقل مالهم أن يتركوها ذميمة فترك ما لا يجد الإنسان فيه بركة من دار أو زوجة أو دابة غير منهي عنه، وكذلك من أتجر في شيء فلم يربح فيه ثلاث مرات فإنه يتحول عنه. روى ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه فإنه قال: من

بورك له في شيء فلا يتغير عنه، ففي المسند وسنن ابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها مرفوعا:(إذا كان لأحدكم رزق في شيء فلا يدعه حتى يتغير له أو يتنكر له)

وأما تخصيص الشؤم. بزمان دون زمان، كشهر صفر أو غيره فغير صحيح، وإنما الزمان كله خلق الله تعالى، وفيه تقع أفعال بني آدم فكل زمان شغله المؤمن بطاعة الله فهو زمان مبارك عليه، وكل زمان شغله العبد بمعصية الله فهو مشؤوم عليه، فالشؤم في الحقيقة هو معصية الله تعالى، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: إذا كان الشؤم في شيء ففيما بين اللحيين ـ يعني اللسان ـ وقال: ما من شيء أحوج إلى طول سجن من لسان. وقال عدي بن حاتم: أيمن أمر بي وأشأمه بين لحييه يعني لسانه .

وفي مسند أبي داود عن النبي قال: (حسن الملكة نماء وسوء الملكة شؤم والبر زيادة في العمر والصدقة تمنع ميتة السوء) فجعل سوء الملكة شؤما وفي حديث آخر: (لا يدخل الجنة سيء الملكة) وهو من يسيء إلى مماليكه ويظلمهم

وفي الحديث: (إن الصدقة تدفع ميتة السوء) وروي من حديث علي مرفوعا: (باكروا بالصدقة فإن البلاء لا يتخطاها) خرجه الطبراني، وفي حديث آخر: (إن لكل يوم نحسا فادفعوا نحس ذلك اليوم بالصدقة). فالصدقة تمنع وقوع البلاء بعد انعقاد أسبابه وكذلك الدعاء، وفي الحديث: (إن البلاء والدعاء يلتقيان بين السماء والأرض فيعتلجان إلى يوم القيامة) خرجه البزار والحاكم وخرج في الترمذي من حديث سلمان: (لا يرد القضاء إلا بالدعاء) وقال ابن عباس: لا ينفع الحذر من القدر ولكن الله يمحو بالدعاء ما يشاء من القدر، وعنه قال: الدعاء يدفع القدر وهو إذا دفع القدر فهو من القدر، وهذا كقول النبي ا– لما سئل عن الأدوية والرقى، هل ترد من قدر الله شيئا ؟ قال: (هي من قدر الله تعالى) وكذلك قال عمر رضي الله عنه لما رجع من الطاعون فقال له أبو عبيدة: أفرارا من قدر الله؟ فقال عمر: نفر من قدر الله إلى قدر

الله فإن الله تعالى قدر المقادير، ويقدر ما يدفع بعضها قبل وقوعه، وكذلك الأذكار المشروعة تدفع البلاء، وفي حديث عثمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ:(من قال حين يصبح ويمسي: بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو السميع العليم لم يصبه بلاء)، وفي المسند عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: (الشؤم سوء الخلق) وخرجه الخرائطي ولفظه: (اليمن حسن الخلق) وفي الجملة: فلا شؤم إلا المعاصي والذنوب، فإنها تسخط الله عز وجل فإذا سخط على عبده شقي في الدنيا والآخرة كما إنه إذا رضي عن عبده سعد في الدنيا والآخرة. قال بعض الصالحين وقد شكي بلاء وقع في الناس فقال: ما أرى ما أنتم فيه إلا بشؤم الذنوب، وقال أبو حازم: كل ما يشغلك عن الله من أهل أو مال أو ولد فهو عليك مشؤوم وقد قيل:

فلا كان إلا ما يلهي ... يضر ويؤذى إنه

فالشؤم في الحقيقة هو معصية الله، واليمن هو طاعة الله وتقواه، كما قيل:

إن رأيا دعا إلى ... الله لرأى مبارك

والعدوى التي تهلك من قاربها هي المعاصي، فمن قاربها وخالطها وأصر عليها هلك وكذلك مخالطة أهل المعاصي ومن يحسن المعصية ويزينها ويدعو إليها من شياطين الإنس وهم أضر من شياطين الجن قال بعض السلف: شيطان الجن نستعيذ بالله منه فينصرف وشيطان الإنس لا يبرح حتى يوقعك في المعصية وفي الحديث: (يحشر المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل) وفي حديث آخر: (لا تصحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلا تقي) ومما يروى لعلي رضي الله عنه:

فلا تصحب أخا ... ل وإياك وإياه

فكم من جاهل ... حكيما حين آخاه

يقاس المرء بالمر ... ء إذا ما المرء ماشاه

وللشيء على ... ء مقاييس وأشباه

ولقلب على القلـ ... ب دليل حين يلقاه

فالعاصي مشؤوم على نفسه وعلى غيره، فإنه لا يؤمن أن ينزل عليه عذاب فيعم الناس خصوصا من لم ينكر عليه عمله، فالبعد عنه متعين، فإذا كثر الخبث هلك الناس عموما وكذلك أماكن المعاصي وعقوباتها يتعين البعد عنها والهرب منها خشية نزول العذاب كما قال النبي لأصحابه لما مر على ديار ثمود بالحجر: (لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين خشية أن يصيبكم ما أصابهم) ولما تاب الذي قتل مائة نفس من بني إسرائيل، وسأل العالم: هل له من توبة ؟ قال له: نعم، فأمره أن ينتقل من قرية السوء إلى القرية الصالحة، فأدركه الموت بينهما، فاختصم فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأوحى الله إليهم أن قيسوا بينهما فإلى أيهما كان أقرب فألحقوه بها، فوجدوه إلى القرية الصالحة أقرب برمية حجر، فغفر له.

هجران أماكن المعاصي وأخواتها من جملة الهجرة المأمور بها، فإن المهاجر من هجر ما نهى الله عنه، قال إبراهيم بن أدهم: من أراد التوبة فليخرج من المظالم، وليدع مخالطة من كان يخالطه وإلا لم ينل ما يريد.

احذروا الذنوب فإنها مشؤومة عواقبها ذميمة، وعقوباتها أليمة، والقلوب المحبة لها سقيمة، السلامة منها غنيمة، والعافية منها ليس لها قيمة، والبلية بها لا سيما بعد نزول الشيب داهية عظيمة.

طاعة الله خير ما ... د فكن طائعا لله لا

مَا هلاك النفوس ... فاجتنب ما نهاك لا

إن شيئاً هلاك ... ينبغي أن تصون

يا من ضاع قلبه انشده في مجالس الذكر عسى أن تجده، يا من مرض قلبه احمله إلى مجلس الذكر لعله أن يعافى، مجالس الذكر مارستان الذنوب، تداوي فيها أمراض القلوب كما تداوي أمراض الأبدان، في مارستان الذكر نزه لقلوب المؤمنين يتنزه فيها بسماع كلام الحكمة كما يتنزه أبصار أهل الدنيا في رياضها وبساتينها. مجلسنا هذا خضرة في روضة الخشوع، طعامنا فيه الجوع، وشرابنا فيه الدموع، ونقلنا هذا الكلام المسموع نداوي فيه أمراضا أعيت

جالينوس وبختيشوع، نسقي فيه ترياق الذنوب وفاروق المعاصي، فمن شرب لم يكن له إلى المعصية رجوع كم أفاق فيه من المعصية مصروع، وبريء فيه من الهوى ملسوع، ووصل فيه إلى الله مقطوع، ما عيبه إلا أن الطبيب الذي له لو كان يستعمل ما يصف للناس لكان إلى قوله المرجوع.

يا ضيعة العمر إن نجا السامع وهلك المسموع، يا خيبة المسعى إن وصل التابع وانقطع المتبوع.

وغير تقي يأمر ... طبيب يداوي الناس
يا أيها الرجل ... هلا لنفسك كان ذا
ابدأ بنفسك فانهها ... فإذا انتهت عنه
فهناك يقبل ما ... بالقول منك وينفع
لا تنه عن خلق ... عار عليك إذا فعلت

غيره:

كم ذا التمادي فها ... شهر به الفوز
فابدأ بما شئت من ... يوم المعاد ففيه
توبوا إلى الله فيه ... من قبل يبلغ فيكم

الكلام على أن النبي كان نبياً قبل أن يخلق

وظائف شهر ربيع الأول ويشتمل على مجالس:

المجلس الأول: في ذكر مولد سيدنا رسول الله ﷺ.

خرج الإمام أحمد من حديث العرباض بن سارية السلمي رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: إني عبد الله في أم الكتاب لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته وسوف أنبئكم بتأويل ذلك: دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى قومه، ورؤيا أمي التي رأت أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام، وكذلك أمهات النبيين يرين) وخرجه الحاكم وقال: صحيح الإسناد. وقد روي معناه من حديث أبي أمامة الباهلي ومن وجوه أخر مرسلة. المقصود من هذا الحديث أن نبوة النبي ﷺ كانت مذكورة معروفة من قبل أن يخلقه الله ويخرجه إلى دار الدنيا حيا. وأن ذلك كان مكتوبا في أم الكتاب من قبل نفخ الروح في آدم

عليه السلام، وفسر أم الكتاب باللوح المحفوظ وبالذكر في قوله تعالى: (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه سأل كعبا عن أم الكتاب ؟ فقال: علم الله ما هو خالق وما خلقه عاملون فقال لعلمه: كن كتابا فكان كتابا. ولا ريب أن علم الله عز وجل قديم أزلي، لم يزل عالما بما يحدثه من مخلوقاته، ثم إنه تعالى كتب ذلك في كتاب عنده قبل خلق السموات والأرض كما قال تعالى: (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها، إن ذلك على الله يسير).

وفي صحيح البخاري عن عمران بن حصين رضي الله عنهما، عن النبي قال: (كان الله ولا شيء قبله، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، ثم خلق السموات والأرض).

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي قال: إن الله كنب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء)

ومن جملة ما كتبه في هذا الذكر وهو (أم الكتاب): أن محمدا خاتم النبيين، ومن حينئذ انتقلت المخلوقات من مرتبة العلم إلى مرتبة الكتابة، وهو نوع من أنواع الوجود الخارجي، ولهذا قال سعيد بن راشد سألت عطاء: هل كان النبي نبيا قبل أن يخلق ؟ قال: إي والله وقبل أن تخلق الدنيا بألفي عام. خرجه أبو بكر الآجري. في كتاب الشريعة وعطاء ـ الظاهر أنه ـ الخرساني وهذا إشارة إلى ما ذكرنا من كتابة نبوته في أم الكتاب عند تقدير المقادير

وقوله في هذا الحديث: (إني عبد الله في أم الكتاب لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته) ليس المراد به والله أعلم أنه حينئذ كتب في أم الكتاب ختمه للنبيين وإنما المراد الإخبار عن كون ذلك مكتوبا في أم الكتاب في تلك الحال قبل نفخ الروح في آدم وهو أول ما خلق من النوع الإنساني

وجاء في أحاديث أخر أنه في تلك الحال وجبت له النبوة وهذه مرتبة ثالثة وهي انتقاله من مرتبة العلم والكتابة إلى مرتبة الوجود العيني الخارجي فإنه استخرج حينئذ من ظهر آدم ونبىء فصارت نبوته موجودة في الخارج بعد كونها كانت مكتوبة مقدرة في أم الكتاب ففي (حديث ميسرة الفجر قال: قلت يا رسول الله متى كنت نبيا ؟ قال: وآدم بين الروح والجسد) خرجه الإمام أحمد والحاكم

قال الإمام أحمد في رواية مهنا: وبعضهم يرويه: متى كتبت نبيا ؟ من الكتابة فإن صحت هذه الرواية حملت مع حديث العرباض بن سارية على وجوب نبوته وثبوتها وظهورها في الخارج فإن الكتابة إنما تستعمل فيما هو واجب: إما شرعا كقوله تعالى: (كتب عليكم الصيام) أو قدرا كقوله تعالى: (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي) و(في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي أنهم قالوا: يا رسول الله متى وجبت لك النبوة ؟ قال: وآدم بين الروح والجسد) خرجه الترمذي وحسنه وفي نسخه صححه وخرجه الحاكم وروى ابن سعد من (رواية جابر الجعفي عن الشعبي قال: قال رجل للنبي : متى استنبئت ؟ قال: وآدم بين الروح والجسد حيث أخذ مني الميثاق) وهذه الرواية تدل على أنه حينئذ استخرج من ظهر آدم ونبىء وأخذ ميثاقه فيحتمل أن يكون ذلك دليلا على أن استخراج ذرية آدم من ظهره وأخذ الميثاق منهم كان قبل نفخ الروح في آدم وقد روي هذا عن سلمان الفارسي وغيره من السلف ويستدل له أيضا بظاهر قوله تعالى: (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) على ما فسره به مجاهد وغيره: أن المراد: إخراج ذرية آدم من ظهره قبل أمر الملائكة بالسجود له ولكن أكثر السلف على أن استخراج ذرية آدم منه كان بعد نفخ الروح فيه وعلى هذا يدل أكثر الأحاديث فتحمل على هذا أن يكون محمد خص باستخراجه من ظهر آدم قبل نفخ الروح فيه فإن محمدا هو المقصود من

خلق النوع الإنساني وهو عينه وخلاصته وواسطة عقده فلا يبعد أن يكون أخرج من ظهر آدم عند خلقه قبل نفخ الروح فيه

ذكر فضل النبي من لدن آدم عليه السلام

وقد روي: أن آدم عليه الصلاة والسلام رأى اسم محمد مكتوبا على العرش وأن الله عز وجل قال لآدم: (لولا محمد ما خلقتك) وقد خرجه الحاكم في صحيحه فيكون حينئذ من حين صور آدم طينا استخرج منه محمد ونبىء وأخذ منه الميثاق ثم أعيد إلى ظهر آدم حتى خرج في وقت خروجه الذي قدر الله خروجه فيه ويشهد لذلك ما روي عن قتادة أن النبي قال: كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث) وفي رواية: (أول الناس في الخلق) خرجه ابن سعد وغيره وخرجه الطبراني من رواية قتادة عن الحسن عن أبي هريرة مرفوعا والمرسل أشبه وفي رواية عن قتادة مرسلة: ثم تلا: (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم) فبدأ به قبل نوح الذي هو أول الرسل فمحمد أول الرسل خلقا وآخرهم بعثا، فإنه استخرج من ظهر آدم لما صور، ونبىء حينئذ وأخذ ميثاقه، ثم أعيد إلى ظهره، ولا يقال: فقد خلق آدم قبله لأن آدم حينئذ كان مواتا لا روح فيه ومحمد كان حيا حين استخراج ونبىء وأخذ ميثاقه فهو أول النبيين خلقا وآخرهم بعثا فهو خاتم النبيين باعتبار أن زمانه تأخر عنهم فهو: المقفى والعاقب الذي جاء عقب الأنبياء ويقفوهم قال تعالى: (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين)

وفي الصحيحين عن جابر رضي الله عنه عن النبي قال: مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى دارا فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة فجعل الناس يدخلونها ويعجبون منها ويقولون لولا موضع اللبنة) زاد مسلم قال: (فجئت فختمت الأنبياء) وفيهما أيضا عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي معناه

وفيه: فجعل الناس يطوفون به ويقولون: هلا وضعت اللبنة ؟ فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين).

وقد استدل الإمام أحمد بحديث العرباض بن سارية هذا على أن النبي لم يزل على التوحيد منذ نشأ ورد بذلك على من زعم غير ذلك، بل قد يستدل بهذا الحديث على أنه ولد نبيا، فإن نبوته وجبت له من حين أخذ الميثاق منه حين استخرج من صلب آدم، فكان نبيا من حينئذ، لكن كانت مدة خروجه إلى الدنيا متأخرة عن ذلك، وذلك لا يمنع كونه نبيا قبل خروجه، كمن يولى ولاية ويؤمر بالتصرف فيها في زمن مستقبل، فحكم الولاية ثابت له من حين ولايته، وإن كان تصرفه يتأخر إلى حين مجيء الوقت.

قال حنبل: قلت لأبي عبد الله يعني أحمد: من زعم أن النبي كان على دين قومه قبل أن يبعث!؟ قال: هذا قول سوء، ينبغي لصاحب هذه المقالة أن يحذر كلامه ولا يجالس. قلت له: إن جارنا الناقد أبا العباس يقول هذه المقالة ؟ قال: قاتله الله وأي شيء أبقى إذا زعم أن النبي كان على دين قومه وهم يعبدون الأصنام، قال الله تعالى حاكيا عن عيسى عليه السلام: (ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد) قلت له: وزعم أن خديجة كانت على ذلك حين تزوجها النبي في الجاهلية قال: أما خديجة فلا أقول شيئا، قد كانت أول من آمن به من النساء، ثم قال: ماذا يحدث الناس من الكلام ! هؤلاء أصحاب الكلام لم يفلح ـ سبحان الله ـ لهذا القول، واحتج في ذلك بكلام لم أحفظه.

ذكر رؤيا أمه حين ولادته

وذكر أن أمه حين ولدت رأت نورا أضاء له قصور الشام، أو ليس هذا عندما ولدت رأت هذا، وقبل أن يبعث كان طاهرا مطهرا من الأوثان، أو ليس كان لا يأكل لما ذبح على النصب، ثم قال: (احذروا الكلام فإن أصحاب الكلام أمرهم لا يؤول إلى خير) خرجه أبوبكر عبد العزيز بن جعفر في كتاب السنة.

ومراد الإمام أحمد الاستدلال بتقدم البشارة

بنبوته من الأنبياء الذين قبله، وبما شوهد عند ولادته من الآيات على أنه كان نبيا من قبل خروجه إلى الدنيا وولادته، وهذا هو الذي يدل عليه حديث العرباض بن سارية هذا، فإنه ذكر فيه أن نبوته كانت حاصلة من حين آدم منجدلا في طينته، والمراد بالمنجدل: الطريح الملقى على الأرض قبل نفخ الروح فيه، ويقال للقتيل: إنه منجدل لذلك ثم استدل على سبق ذكره والتنويه باسمه ونبوته وشرف قدره لخروجه إلى الدنيا بثلاث دلائل.

ثلاث دلائل على سبق ذكر النبي والتنويه باسمه ونبوته

الدليل الأول: دعوة أبيه إبراهيم عليه السلام وأشار إلى ما قص الله في كتابه عن إبراهيم وإسماعيل لأنهما قالا عند بناء البيت الذي بمكة: (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم * ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم * ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم) فاستجاب الله دعاءهما وبعث في أهل مكة منهم رسولا بهذه الصفة من ولد إسماعيل الذي دعا مع أبيه إبراهيم عليهما السلام بهذا الدعاء وقد امتن الله تعالى على المؤمنين ببعثه لهذا النبي منهم على هذه الصفة التي دعا بها إبراهيم وإسماعيل قال تعالى: (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) وقال سبحانه: (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين * وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم * ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) ومعلوم أنه لم يبعث من مكة رسول فيهم بهذه الصفة غير محمد وهو ولد إسماعيل كما أن أنبياء بني إسرائيل من ولد إسحاق وذكر تعالى: أنه من على المؤمنين بهذه

الرسالة فليس لله نعمة أعظم من إرسال محمد يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، وقوله في الأميين والمراد بهم العرب: تنبيه لهم على قدر هذه النعمة وعظمها حيث كانوا أميين لا كتاب لهم وليس عندهم شيء من آثار النبوات، كما كان عند أهل الكتاب فمن الله عليهم بهذا الرسول وبهذا الكتاب حتى صاروا أفضل الأمم وأعلمهم وعرفوا ضلالة من ضل من الأمم قبلهم.

وفي كونه منهم فائدتان:

إحداهما: أن هذا الرسول كان أيضا أميا كأمته المبعوث إليهم لم يقرأ كتابا قط ولم يخطه بيمينه كما قال تعالى: (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك) الآيات ولا خرج عن ديار قومه فأقام عند غيرهم حتى تعلم منهم شيئا بل لم يزل أميا بين أمة أمية لا يكتب، ولا يقرأ حتى كمل الأربعين من عمره ثم جاء بعد ذلك بهذا الكتاب المبين وهذه الشريعة الباهرة، وهذا الدين القيم الذي اعترف حذاق أهل الأرض ونظارهم أنه لم يقرع العالم ناموس أعظم منه وفي هذا برهان ظاهر على صدقه.

والفائدة الثانية: التنبيه على أن المبعوث منهم ـ وهم الأميون خصوصا أهل مكة ـ يعرفون نسبه وشرفه وصدقه وأمانته وعفته، وأنه نشأ بينهم معروفا بذلك كله، وأنه لم يكذب قط فكيف كان يدع الكذب على الناس ثم يفتري الكذب على الله عز وجل، فهذا هو الباطل ولذلك سأل هرقل عن هذه الأوصاف، واستدل بها على صدقه فيما ادعاه من النبوة والرسالة.

وقوله تعالى: (يتلو عليهم آياته) يعني يتلو عليهم ما أنزله الله عليه من آياته المتلوة وهو القرآن وهو أعظم الكتب السماوية وقد تضمن من العلوم والحكم والمواعظ والقصص والترغيب والترهيب وذكر أخبار من سبق وأخبار ما يأتي من البعث والنشور والجنة والنار ما لم يشتمل عليه كتاب غيره حتى قال بعض العلماء، لو أن هذا الكتاب وجد مكتوبا في مصحف في فلاة من الأرض ولم يعلم من وضعه هناك لشهدت العقول السليمة أنه منزل من عند الله وأن البشر لا

قدرة لهم على تأليف ذلك فكيف إذا جاء على يدي أصدق الخلق وأبرهم وأتقاهم وقال إنه كلام الله وتحدى الخلق كلهم أن يأتوا بسورة مثله فعجزوا فيه فكيف مع هذا شك ولهذا قال تعالى: (ذلك الكتاب لا ريب فيه) وقال: (أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) فلو لم يكن لمحمد من المعجزات الدالة على صدقه غير هذا الكتاب لكفاه، فكيف وله من المعجزات الأرضية والسماوية مالا يحصى؟.

وقوله: (ويزكيهم): يعني إنه يزكي قلوبهم ويطهرها من أدناس الشرك والفجور والضلال، فإن النفوس تزكوا إذا طهرت من ذلك كله ومن زكت نفسه فقد أفلح كما قال تعالى: (قد أفلح من زكاها) وقال: (قد أفلح من تزكى) وقوله: (ويعلمهم الكتاب والحكمة): يعني بالكتاب: القرآن والمراد ويعلمهم تلاوة ألفاظه ويعني بالحكمة: فهم معاني القرآن والعمل بما فيه فالحكمة هي: فهم القرآن والعمل به فلا يكفي بتلاوة ألفاظ الكتاب حتى يعلم معناه ويعمل بمقتضاه، فمن جمع له ذلك كله فقد أوتي الحكمة قال تعالى: (يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا) قال الفضيل: العلماء كثير والحكماء قليل.

وقال: الحكماء ورثة الأنبياء فالحكمة هي العلم النافع الذي يتبعه العمل الصالح وهو نور يقذف في القلب يفهم بها معنى العلم المنزل من السماء، ويحض على اتباعه والعمل به ومن قال الحكمة: السنة فقوله الحق، لأن السنة تفسر القرآن وتبين معانيه وتحض على اتباعه والعمل به، فالحكيم هو العالم المستنبط لدقائق العلم المنتفع بعلمه بالعمل به.

ولأبي العتاهية:

وكيف تحب أن وأنت لكل ما تهوى
وتضحك دائبا ظهرا وتذكر ما عملت فلا

قوله تعال: (وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) إشارة إلى ما كان الناس عليه قبل إنزال هذا الكتاب من الضلالو، فإن الله نظر حينئذ إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب

تمسكوا بدينهم الذي لم يبدل ولم يغير، وكانوا قليلا جدا، فأما عامة أهل الكتاب فكانوا قد بدلوا كتبهم وغيروها وحرفوها، وأدخلوا في دينهم ما ليس منه فضلوا وأضلوا، وأما غير أهل الكاتب فكانوا على ضلال بين، فالأميون أهل شرك يعبدون الأوثان، والمجوس يعبدون النيران ويقولون بإلهين اثنين، وكذلك غيرهم من أهل الأرض منهم من كان يعبد النجوم ومنهم من كان يعبد الشمس أو القمر، فهدى الله المؤمنين بإرسال محمد إلى ما جاء به من الهدى والدين الحق، وأظهر الله دينه حتى بلغ مشارق الأرض ومغاربها، فظهرت فيها كلمة التوحيد، والعمل بالعدل بعد أن كانت الأرض كلها ممتلئة من الشرك والظلم،.

فالأميون هم العرب والآخرون الذي لم يلحقوا بهم هم أهل فارس والروم، فكانت أهل فارس مجوسا والروم نصارى، فهدى الله جميع هؤلاء برسالة محمد إلى التوحيد وقد رؤي الإمام بعد موته في المنام، فسئل عن حاله فقال: لولا النبي لكنا مجوسا قال: فإن أهل العراق لولا رسالة محمد لكانوا مجوسا، وأهل الشام ومصر والروم لولا رسالة محمد لكانوا نصارى، وأهل جزيرة العرب لولا رسالة محمد لكانوا مشركين عباد أوثان، ولكن رحم الله عباده بإرسال محمد فأنقذهم من الضلال، كما قال تعالى: (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) ولهذا قال تعالى: (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) فمن حصل له نصيب من دين الإسلام فقد حصل له الفضل العظيم، وقد عظمت عليه نعمة الله، فما أحوجه إلى القيام بشكر هذه النعمة وسؤاله دوامها والثبات عليها إلى الممات والموت عليها فبذلك تتم النعمة.

فإبراهيم عليه الصلاة والسلام هو إمام الحنفاء المأمور محمد ومن قبله من الأنبياء والإقتداء به وهو الذي جعله للناس إماما، وقد دعا هو وابنه

إسماعيل بأن يبعث الله في أهل مكة رسولا منهم موصوفا بهذه الأوصاف فاستجاب الله لهما وجعل هذا النبي مبعوثا فيهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم كما دعيا بذلك وهو النبي الذي أظهر دين إبراهيم الحنيف بعد اضمحلاله وخفائه على أهل الأرض، فلهذا كان أولى الناس بإبراهيم كما قال تعالى: (إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا) وقال : (إن لكل نبي وليا من المؤمنين وأنا ولي إبراهيم) ثم تلا هذه الآية، وكان أشبه ولد إبراهيم به صورة ومعنى، حتى إنه أشبهه في خلة الله تعالى فقال: (إن الله اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا).

والثاني بشارة عيسى به: وعيسى آخر أنبياء بني إسرائيل، وقد قال تعالى: (وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد) وقد كان المسيح عليه الصلاة والسلام يحض على اتباعه ويقول: إنه يبعث السيف فلا يمنعنكم ذلك منه، وروي عنه أنه قال: سوف أذهب أنا ويأتي الذي بعدي لا يتحمدكم بدعواه، ولكن يسل السيف فتدخلونه طوعا وكرها، وفي المسند عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي : إن الله عز وجل أوحى إلى عيسى عليه السلام أني باعث بعدك أمة إن أصابهم ما يحبون حمدوا وشكروا، وإن أصابهم ما يكرهون احتسبوا وصبروا، ولا حلم ولا علم، قال: يا رب كيف هذا ولا حلم ولا علم ؟ قال: أعطيهم من حلمي وعلمي) قال ابن إسحاق حدثني بعض أهل العلم: أن عيسى بن مريم عليه السلام قال: إن أحب الأمم إلى الله عز وجل لأمة أحمد، قيل له: وما فضلهم الذي تذكر ؟ قال: لم تذلل لا إله إلا الله على ألسن أمة من الأمم تذليلها على ألسنتهم.

الثالث: مما دل على نبوته قبل ظهوره: رؤيا أمه التي رأت أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام، وذكر أن أمهات النبيين كذلك يرين والرؤيا هنا إن أريد بها رؤيا المنام فقد روي أن آمنة بنت وهب رأت

في أول حملها بالنبي أنها بشرت بأنه يخرج منها عند ولادتها نور يضيء له قصور الشام وروى الطبراني بإسناده عن أبي مريم الكندي عن النبي أنه سئل: أي شيء كان أول من أمر نبوتك ؟ قال: أخذ الله مني الميثاق كما أخذ من النبيين ميثاقهم وتلا: (ومنك ومن نوح) الآية وبشرى المسيح عيسى بن مريم ورأت أم رسول الله في منامها أنه خرج من بين يديها سراج أضاءت لها من قصور الشام ثم قال: ووراء ذلك قريتين أوثلاثا) وإن أريد بها رؤية عين كما قال ابن عباس في قول الله عز وجل: (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس) إنها رؤية عين أريها النبي ليلة أسري به فقد روى أن أمه رأت ذلك عند ولادة النبي قال ابن إسحاق: كانت آمنة بنت وهب تحدث أنها أتيت حين حملت برسول الله فقيل لها إنك حملت بسيد هذه الأمة فإذا وقع إلى الأرض فقولي أعيذه بالواحد من شر كل حاسد وآية ذلك أن يخرج معه نور يملأ قصور بصرى من أرض الشام فإذا وقع فسميه محمدا فإن اسمه في التوراة أحمد يحمده أهل السماء وأهل الأرض واسمه في الإنجيل أحمد يحمده أهل السماء وأهل الأرض واسمه في القرآن محمد وذكر ابن سعد عن الواقدي بأسانيد له متعددة: أن آمنة بنت وهب قالت: لقد علقت به تعني النبي فما وجدت له مشقة حتى وضعته فلما فصل مني خرج معه نور أضاء له ما بين المشرق والمغرب ثم وقع إلى الأرض معتمدا على يديه ثم أخذ قبضة من التراب فقبضها ورفع رأسه إلى السماء وفي حديث بعضهم: وقع جاثيا على ركبتيه وخرج معه نور أضاءت له قصور الشام وأسواقها حتى رأت أعناق الإبل ببصرى رافعا رأسه إلى السماء وروى البيهقي بإسناده عن عثمان بن أبي العاص حدثتني أمي أنها شهدت ولادة آمنة بنت وهب رسول الله ليلة ولدته قالت: فما شيء أنظر إليه إلا نور وإني أنظر إلى النجوم تدنو حتى أني

لأقول ليقعن علي)

وخرج الإمام أحمد من حديث عتبة بن عبد السلمي عن النبي ﷺ: أن أمه قالت: إني رأيت خرج مني نور أضاءت منه قصور الشام) وروى ابن إسحاق عن جهم بن أبي جهم عن عبد الله بن جعفر عمن حدث عن سليمة أم النبي ﷺ التي أرضعته أن آمنة بنت وهب حدثتها أنها قالت: إني حملت به فلم أر حملا قط كان أخف علي منه ولا أعظم بركة منه لقد رأيت نورا كأنه شهاب خرج مني حين وضعته أضاءت له أعناق الإبل ببصرى) وخروج هذا النور عند وضعه إشارة إلى ما يجيء به من النور الذي اهتدى به أهل الأرض وزال به ظلمة الشرك منها كما قال تعالى: (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين * يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم) وقال تعالى: (فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون) وفي هذا المعنى يقول العباس في أبياته المشهورة السائرة:

وأنت لما ولدت ... وضاءت بنورك
فنحن في ذلك ... ور وسبل الرشاد

وأما إضاءة قصور بصرى بالنور الذي خرج معه فهو إشارة إلى ما خص الشام من نور نبوته بأنها دار ملكه، كما ذكر كعب أن في الكتب السابقة محمد رسول الله مولده بمكة ومهاجره يثرب وملكه بالشام فمن مكة بدئت نبوة محمد ﷺ وإلى الشام ينتهي ملكه، ولهذا أسري به ﷺ إلى الشام إلى بيت المقدس، كما هاجر إبراهيم عليه الصلاة والسلام من قبله إلى الشام. قال بعض السلف: ما بعث الله نبيا إلا من الشام فإن لم يبعثه منها هاجر إليها وفي آخر الزمان يستقر العلم والإيمان بالشام فيكون نور النبوة فيها أظهر منه في سائر بلاد الإسلام.

وخرج الإمام أحمد من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وأبي الدرداء وخرج الحاكم من حديث عبد الله

بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي قال: رأيت عمود الكتاب انتزع من تحت وسادتي فأتبعته بصري فإذا هو عمود ساطع عمد به إلى الشام ألا وإن الإيمان إذا وقعت الفتن بالشام).

وفي المسند والترمذي وغيرهما عن النبي قال: ستكون هجرة بعد هجرة فخيار أهل الأرض ألزمهم مهاجر إبراهيم، يعني الشام، وبالشام ينزل عيسى بن مريم عليه السلام في آخر الزمان، وهو المبشر بمحمد ويحكم به ولا يقبل من أحد غير دينه، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويصلي خلف إمام المسلمين، ويقول: إن هذه الأمة أئمة بعضهم لبعض). إشارة إلى أنه متبع لدينهم غير ناسخ له، والشام هي في آخر الزمان أرض المحشر والمنشر، فيحشر الناس إليهم قبل القيامة من أقطار الأرض، فيهاجر خيار أهل الأرض إلى مهاجر إبراهيم، وهي أرض الشام طوعاو كما تقدم أن خيار أهل الأرض ألزمهم مهاجر إبراهيم وقال : (عليكم بالشام فإنها خيرة الله من أرضه، يجتبي إليها خيرته من عباده) خرجه الإمام أحمد وأبو داود وابن حبان والحاكم في صحيحهما. وقال أبو أمامة: لا تقوم الساعة حتى ينتقل خيار أهل العراق إلى الشام وشرار أهل الشام إلى العراق. وخرجه الإمام أحمد.

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي أنه قال: لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز فتضيء لها أعناق الإبل ببصرى) وقد خرجت هذه النار بالحجاز بقرب المدينة، ورؤيت أعناق الإبل من ضوءها ببصرى في سنة أربع وخمسين وستمائة، وعقيبها جرت واقعة بغداد، وقتل بها الخليفة وعامة من كان ببغداد، وتكامل خراب أهل العراق على أيدي التتار، وهاجر خيار أهلها إلى الشام من حينئذ، فأما شرار الناس فتخرج نار في آخر الزمان تسوقهم إلى الشام قهرا، حتى تجتمع الناس كلها بالشام قبل قيام الساعة.

وفي سنن أبي داود عن أبي الدرداء رضي الله عنه

عن النبي قال: إن فسطاط المسلمين يوم الملحمة بالغوطة إلى جانب مدينة يقال لها دمشق من خير مدائن الشام) وخرجه الحاكم ولفظه: (خير منازل المسلمين يومئذ)

ذكر فضل هذه الأمة

إخواني من كان من هذه الأمة فهو من خير الأمم عند الله عز وجل قال تعالى: (كنتم خير أمة أخرجت للناس) وقال النبي : (أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها عل الله عز وجل لما كان هذا الرسول النبي الأمي خير الخلق وأفضلهم كانت أمته خير أمة وأفضلها، فما يحسن بمن كان من خير الأمم وانتسب إلى متابعة خير الخلق، وخصوصا من كان يسكن خير منازل المسلمين في آخر الزمان إلا أن يكون متصفا بصفات الخير، مجتنبا لصفات الشر، وقبيح به أن يرضى لنفسه أن يكون من شر الناس مع انتسابه إلى خير الأمم، ومتابعة خير الرسل، قال الله تعالى: (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية) فخير الناس من آمن وعمل صالحا، وقال تعالى: (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) وقد روي عن النبي أنه قال: (خير الناس من فقه في دين الله، ووصل رحمه وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر) وفي رواية: (خير الناس أتقاهم للرب، وأوصلهم للرحم، وآمرهم بالمعروف، وأنهاهم عن المنكر) وقال: (الناس معادن فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا) وقال: (خير الناس من طال عمره، وحسن عمله، وشر الناس من طال عمره وساء عمله) وقال: (خيركم من يرجى خيره ويؤمن شره، وشركم من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره)، وقال: (ألا أخبركم بخياركم؟ قالوا: بلى قال: الذين إذا رؤوا ذكر الله. وقال: ألا أنبئكم بشراركم ؟ قالوا: بلى قال: المشاؤون بالنميمة المفرقون بين الأحبة الباغون للبرآء العنت).

وقال: (شر الناس منزلة عند الله من تركه الناس اتقاء فحشه)، وقال: (إن من شر الناس يوم القيامة

منزلة عند الله ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه) وقال: (إن من شر الناس عند الله منزلة من يقرأ كتاب الله ثم لا يرعوي إلى ما فيه) وقال: (من شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من أذهب آخرته بدنيا غيره).

أعمال الأمة تعرض على نبيها في البرزخ، فليستح عبد أن يعرض على نبيه من عمله ما نهاه عنه، لما وقف عام حجة الوداع قال: (إني فرطكم على الحوض، وأني مكاثر بكم الأمم فلا تسودوا وجهي) يشير إلى أنه يستحي من سيئات أمته إذا عرضت عليه، وقال: (ليؤخذن برجال من أمتي ذات الشمال فأقول: يا رب أصحابي ! فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول: سحقا سحقا لمن بدل بعدي).

خير هذه الأمة أولها قرنا كما قال النبي : (خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) وقال: (بعثت في خير قرون بني آدم قرنا فقرنا حتى كتبت من القرن الذي كنت منه).

كما قد جاء مدح أصحابه في كتابه تعالى: (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم) و(لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة)، وخص الصديق من بينهم بالصحبة بقوله: (إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا) لما جلى الرسول عروس الإسلام وأبرزها للبصائر من خدرها، أخرج أبوبكر رضي الله عنه ماله كله نثارا لهذا العروس، فأخرج عمر النصف موافقة له فقام عثمان بوليمة العرس، فجهز جيش العسرة فعلم علي رضي الله عنه أن الدنيا ضرة هذه العروس، وأنهما لا يجتمعان فبت طلاقها ثلاثا.

فالحمد لله الذي خصنا بهذه الرحمة وأسبغ علينا هذه النعمة وأعطانا ببركة نبينا هذه الفضائل الجمة فقال لنا: (كنتم خير أمة أخرجت للناس).

من أين في الأمم مثل أبي بكر الصديق أو عمر الذي ما سلك طريقا إلا هرب الشيطان من ذلك الطريق، أو عثمان الصابر على مر الضيق، أو عليا بحر العلم العميق، أو حمزة والعباس أفيهم مثل

طلحة والزبير القرنين، أو مثل سعد وسعيد، هيهات من أين؟ أو مثل ابن عوف وأبي عبيدة، ومن مثل الاثنين إن شبهتهم بهم فقد أبعدتم القياس، من أين في زهاد الأمم مثل أويس، أو في عبادهم مثل عامر بن عبد قيس، أو في خائفهم مثل عمر بن عبد العزيز؟ هيهات ليس ضوء الشمس كالمقايس. أفي علمائهم مثل أبي حنيفة ومالك والشافعي السديد المالك؟ كيف تمدحه وهو أجل من ذلك؟ ما أحسن بنيانه والأساس أثم أعلى من الحسن البصري وأنبل أو ابن سيرين الذي بالورع تقبل، أو سفيان الثوري الذي بالخوف والعلم تسربل، أو مثل أحمد الذي بذل نفسه لله وسبل، تالله ما في الأمم مثل ابن حنبل، إرفع صوتك بهذا ولا بأس: (كنتم خير أمة أخرجت للناس).

لاح شيب الرأس ... بعد لهو وشباب
إخوتي توبوا إلى ... قد لهونا وجهلنا ما
نحن في دار نرى ... لم يدع فيها لذي
يا بني آدم صونوا ... ينبغي للدين أن لا
واحمدوا الله الذي ... بنبي قام فيكم
بنبي فتح الله به ... كل خير نلتموه
مرسل لو يوزن ... في التقى والبر
فرسول الله أولى ... ورسول الله أولى

المجلس الثاني في ذكر المولد أيضا

خرج مسلم في صحيحه، من حديث أبي قتادة الأنصاري أن النبي سئل عن صيام يوم الاثنين فقال: (ذاك يوم ولدت فيه وأنزلت علي فيه النبوة) أما ولادة النبي يوم الاثنين فكالمجمع عليه بين العلماء، وقد قاله ابن عباس وغيره، وقد حكي عن بعضهم أنه ولد يوم الجمعة، وهو قول ساقط مردود. وروي عن أبي جعفر الباقر: أنه توقف في ذلك وقال: لا يعلم ذلك إلا الله، وإنما قال هذا لأنه لم يبلغه في ذلك ما يعتمد عليه فوقف تورعا.

وأما الجمهور فبلغهم في ذلك ما قالوا بحسبه: وقد روي عن أبي جعفر أيضا موافقتهم وأن النبي

ﷺولد يوم الاثنين موافقة لما قاله سائر العلماء، وحديث أبي قتادة يدل على أنه ﷺولد نهارا في يوم الاثنين، وقد روي: أنه ولد عند طلوع الفجر منه، وروى أبوجعفر بن أبي شيبة في تاريخه، وخرجه من طريقه أبو نعيم في الدلائل بإسناد فيه ضعف، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: كان بمر الظهران راهب يدعى عيص من أهل الشام، وكان يقول: يوشك أن يولد فيكم يا أهل مكة مولود تدين له العرب، ويملك العجم، هذا زمانه فكان لا يولد بمكة مولود إلا سأل عنه، فلما كان صبيحة اليوم الذي ولد فيه رسول الله ﷺخرج عبد الله بن عبد المطلب حتى أتى عيص فناداه فأشرف عليه فقال له عيص: كن أباه فقد ولد ذلك المولود الذي كنت أحدثكم عنه يوم الاثنين، ويبعث يوم الاثنين، ويموت يوم الاثنين، قال: إنه ولد لي مع الصبح مولود قال: فما سميته ؟ قال: محمدا، قال: والله لقد كنت أشتهي أن يكون هذا المولود فيكم أهل البيت لثلاث خصال بها نعرفه، فقد أتى عليهن منها أنه طلع نجمه البارحة، وأنه ولد اليوم، وأن اسمه محمد، انطلق إليه فإنه الذي كنت أحدثكم عنه.

وقد روي ما يدل على إنه ولد ليلا، وقد سبق في المجلس الذي قبله من الآثار ما يستدل به لذلك، وفي صحيح الحاكم عن عائشة قالت: كان بمكة يهودي يتجر فيها فلما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله ﷺقال: يا معشر قريش هل ولد فيكم الليلة مولود؟ قالوا: لا نعلمه، فقال: ولد الليلة نبي هذه الأمة الأخيرة، بين كتفيه علامة فيها شعرات متواترات كأنهن عرف فرس، فخرجوا باليهودي حتى أدخلوه على أمه، فقالوا: أخرجي إلينا ابنك فأخرجته، وكشفوا عن ظهره فرأى تلك الشامة فوقع اليهودي مغشيا عليه، فلما أفاق قالوا: ويلك ما لك ؟ قال: ذهبت والله النبوة من بني إسرائيل) وهذا الحديث يدل على أنه ولد بخاتم النبوة بين كتفيه.

وخاتم النبوة: من علامات نبوته التي كان يعرفه بها أهل الكتاب، ويسألون عنها ويطلبون الوقوف

عليها، وقد روي: أن هرقل بعث إلى النبي بتبوك من ينظر له خاتم النبوة، ثم يخبره عنه. وقد روي من حديث أبي ذر وعتبة بن عبيد عن النبي : (أن الملكين اللذين شقا صدره وملآه حكمة هما اللذان ختماه بخاتم النبوة) وهذا يخالف حديث عائشة هذا. وقد روي أن هذا الخاتم رفع بعد موته من بين كتفيه ولكن إسناد هذا الخبر ضعيف.

وقد روي في صفة ولادته آيات تستغرب، فمنها: روي عن آمنة بنت وهب أنها قالت: وضعته فما وقع كما وقع الصبيان، وقع واضعا يده على الأرض رافعا رأسه إلى السماء) وروي أيضا: (أنه قبض من التراب بيده لما وقع بالأرض) فقال بعض القافة: إن صدق الفأل ليغلبن أهل الأرض، وروي: (أنه وضع تحت جفنة فانفلقت عنه ووجدوه ينظر إلى السماء)

واختلفت الروايات هل ولد مختونا ؟ ! فروي: (أنه ولد مختونا مسرورا) يعني مقطوع السرة حتى قال الحاكم: تواترت الروايات بذلك، وروي أن جده ختنه.

وتوقف الإمام أحمد في ذلك. قال المروذي: سئل أبو عبد الله هل ولد النبي مختونا ؟ قال: الله أعلم، ثم قال: لا أدري. قال أبوبكر عبد العزيز بن جعفر من أصحابنا: قد روي: (أنه ولد مختونا مسرورا) ولم يجترىء أبو عبد الله على تصحيح هذا الحديث.

وأما شهر ولادته فقد اختلف فيه: فقيل: في شهر رمضان، روي عن عبد الله بن عمرو بإسناد لا يصح وقيل: في رجب ولا يصح. وقيل: في ربيع الأول وهو المشهور بين الناس حتى نقل ابن الجوزي وغيره عليه الاتفاق، ولكنه قول جمهور العلماء ثم اختلفوا في أي يوم كان من الشهر، فمنهم من قال: هو غير معين وإنما ولد في يوم الاثنين من ربيع من غير تعين لعدد ذلك اليوم من الشهر.

والجمهور على أنه يوم معين منه ثم اختلفوا فقيل: لليلتين خلتا منه وقيل: لثمان خلت منه وقيل: لعشر وقيل: لاثنتي عشرة وقيل: لسبع عشرة وقيل: لثماني عشرة وقيل لثمان بقين منه

وقيل: إن هذين القولين غير صحيحين عمن حكيا عنه بالكلية والمشهور الذي عليه الجمهور: أنه ولد يوم الاثنين ثاني عشر ربيع الأول وهو قول ابن إسحاق وغيره.

وأما عام ولادته فالأكثرون على أنه عام الفيل، وممن قال ذلك: قيس بن مخرمة، وقبات بن أشيم وابن عباس وروي عنه: أنه ولد يوم الفيل. وقيل: إن هذه الرواية وهم إنما الصحيح عنه أنه قال: عام الفيل.

ومن العلماء من حكى الاتفاق على ذلك وقال: كل قول يخالفه وهم، والمشهور أنه ﷺ ولد بعد الفيل بخمسين يوما، وقيل: بعده بخمس وخمسين يوما، وقيل: بشهر، وقيل: بأربعين يوما، وقد قيل: إنه ولد بعد الفيل بعشر سنين، وقيل: بثلاث وعشرين سنة، وقيل: بأربعين سنة، وقيل: قبل الفيل بخمس عشرة سنة، وهذه الأقوال وهم عند جمهور العلماء. ومنها لا يصح عمن حكي عنه، قال إبراهيم بن المنذر الحزامي: الذي لا يشك فيه أحد من علمائنا أنه ﷺ ولد عام الفيل، وقال خليفة بن خياط: هذا هو المجمع عليه وكانت قصة الفيل توطئة لنبوته وتقدمة لظهوره وبعثته، وقد قص الله ذلك في كتابه فقال: (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل * ألم يجعل كيدهم في تضليل * وأرسل عليهم طيرا أبابيل * ترميهم بحجارة من سجيل * فجعلهم كعصف مأكول) فقوله: (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) استفهام تقرير لمن سمع هذا الخطاب، وهذا يدل على اشتهار ذلك بينهم ومعرفتهم به وأنه مما لا يخفى علمه عن العرب خصوصا قريشا وأهل مكة، وهذا أمر اشتهر بينهم وتعارفوه وقالوا فيه الأشعار السائرة، وقد قالت عائشة: رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين يستطعمان، وفي هذه القصة ما يدل على تعظيم مكة واحترامها، واحترام بيت الله الذي فيها ولادة النبي ﷺ عقب ذلك تدل على نبوته ورسالته، فإنه ﷺ بعث بتعظيم هذا البيت وحجه والصلاة إليه، فكان هذا البلد هو موطنه ومولده،

فاضطره قومه عند دعوتهم إلى الله تعالى إلى الخروج منه كرها بما نالوه به من الأذى، ثم إن الله تعالى ظفره بهم وأدخله عليهم قهرا فملك البلد عنوة وملك رقاب أهله، ثم منّ عليهم وأطلقهم وعفا عنهم فكان في تسليط نبيه ر على هذا البلد وتمليكه إياه ولأمته من بعده ما دل على صحة نبوته، فإن الله حبس عنه من يريد بالأذى، وأهلكه ثم سلط عليه رسوله وأمته كما قال : (إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين) فإن الرسول وأمته إنما كان قصدهم تعظيم البيت وتكريمه واحترامه، ولهذا أنكر النبي يوم الفتح على من قال: اليوم تستحل الكعبة، وقال: (اليوم تعظم الكعبة). وقد كان أهل الجاهلية غيروا دين إبراهيم وإسماعيل بما ابتدعوه من الشرك وتغيير بعض مناسك الحج، فسلط الله رسوله وأمته على مكة، فطهروها من ذلك كله، وردوا الأمر إلى دين إبراهيم الحنيف، وهو الذي دعا لهم مع ابنه إسماعيل عند بناء البيت أن يبعث فيهم رسولا منهم عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، فبعث الله فيهم محمدا من ولد إسماعيل بهذه الصفة فطهر البيت وما حوله من الشرك، ورد الأمر إلى دين إبراهيم الحنيف والتوحيد الذي لأجله بني البيت، كما قال الله تعالى: (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود).

وأما تسليط القرامطة على البيت بعد ذلك فإنما كان عقوبة بسبب ذنوب الناس، ولم يصلوا إلى هدمه ونقضه ومنع الناس عن حجه وزيارته كما كان يفعل أصحاب الفيل لو قدروا على هدمه وصرف الناس عن حجه. والقرامطة أخذوا الحجر والباب وقتلوا الحجاج وسلبوهم أموالهم، ولم يتمكنوا من منع الناس من حجه بالكلية، ولا قدروا على هدمه بالكلية، كما كان أصحاب الفيل يقصدونه ثم أذلهم الله بعد ذلك وخذلهم وهتك أستارهم وكشف أسرارهم.

والبيت المعظم باق على حاله من التعظيم والزيارة والحج والاعتمار والصلاة إليه، لم يبطل شيء من ذلك عنه بحمد الله ومنّه. وغاية أمرهم أنهم أخافوا حاج العراق حتى انقطعوا بعض السنين ثم عادوا، ولم يزل الله يمتحن عباده المؤمنين بما يشاء من المحن ولكن دينه قائم محفوظ لا يزال تقوم به أمة من أمة محمد لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله، وهم على ذلك كما قال تعالى: (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولوكره الكافرون * هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولوكره المشركون).

وقد أخبر النبي أن هذا البيت يحج ويعتمر بعد خروج يأجوج ومأجوج ولا يزال كذلك حتى تخربه الحبشة ويلقون حجارته في البحر، وذلك بعد أن يبعث الله ريحا طيبة تقبض أرواح المؤمنين كلهم، فلا يبقى على الأرض مؤمن، ويسرى بالقرآن من الصدور والمصاحف فلا يبقى في الأرض قرآن ولا إيمان ولا شيء من الخير، فبعد ذلك تقوم الساعة ولا تقوم إلا على شرار الناس.

وقوله : (ويوم أنزلت علي فيه النبوة) يعني أنه نبىء يوم الاثنين وفي المسند عن ابن عباس قال: ولد النبي يوم الاثنين واستنبىء يوم الاثنين وخرج مهاجرا من مكة إلى المدينة يوم الاثنين ودخل المدينة يوم الاثنين وتوفي يوم الاثنين ورفع الحجر الأسود يوم الاثنين. وذكر ابن إسحاق: أن النبوة نزلت يوم الجمعة، وحديث أبي قتادة يرد هذا، واختلفوا: في أي شهر كان ابتداء النبوة ؟ فقيل: في رمضان وقيل: في رجب ولا يصح، وقيل في ربيع الأول وقيل: إنه نبىء يوم الاثنين لثمان من ربيع الأول.

وأما الإسراء فقيل كان في رجب وضعّفه غير واحد، وقيل: كان في ربيع الأول وهو قول إبراهيم الحربي وغيره.

وأما دخوله المدينة ووفاته: فكانا في ربيع الأول

بغير خلاف، مع اختلاف في تعيين ذلك اليوم من أيام الشهر، وفي قول النبي لما سئل عن صيام يوم الاثنين ؟قال: (ذاك يوم ولدت فيه وأنزلت علي فيه النبوة) إشارة إلى استحباب صيام الأيام التي تتجدد فيها نعم الله على عباده، فإن أعظم نعم الله على هذه الأمة إظهار محمد لهم وبعثته وإرساله إليهم كما قال تعالى: (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم). فإن النعمة على الأمة: بإرساله أعظم من النعمة عليهم بإيجاد السماء والأرض والشمس والقمر والرياح والليل والنهار، وإنزال المطر وإخراج النبات، وغير ذلك.

فإن هذه النعم كلها قد عمت خلقا من بني آدم كفروا بالله وبرسله وبلقائه فبدلوا نعمة الله كفرا، فأما النعمة بإرسال محمد فإن بها تمت مصالح الدنيا والآخرة، وكمل بسببها دين الله الذي رضيه لعباده، وكان قبوله سبب سعادتهم في دنياهم وآخرتهم.

فصيام يوم تجددت فيه هذه النعم من الله على عباده المؤمنين حسن جميل، وهو من باب مقابلة النعم في أوقات تجددها بالشكر. ونظير هذا صيام يوم عاشوراء حيث أنجى الله فيه نوحا من الغرق، ونجى فيه موسى وقومه من فرعون وجنوده وأغرقهم في اليم، فصامه نوح وموسى شكرا لله، فصامه رسول الله متابعة لأنبياء الله وقال لليهود: (نحن أحق بموسى منكم) وصامه وأمر بصيامه.

وقد روي أن النبي كان يتحرى صيام يوم الاثنين ويوم الخميس، روي ذلك عنه من حديث عائشة وأبي هريرة وأسامة بن زيد وفي حديث أسامة: أنه سأله عن ذلك ؟ فقال: إنهما يومان تعرض فيهما الأعمال على رب العالمين، فأحب أن يعرض عملي وأنا صائم) و(في حديث أبي هريرة أنه سئل عن ذلك ؟ فقال: إنه يغفر فيهما لكل مسلم إلا مهتجرين يقول دعهما حتى يصطلحا). وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة مرفوعا: (تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين والخميس

فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله إلا رجل كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقال انظروا هذين حتى يصطلحا) ويروى من حديث أبي أمامة مرفوعا: ترفع الأعمال يوم الاثنين والخميس فيغفر للمستغفرين ويترك أهل الحقد كما هو).

وفي المسند عن أبي هريرة عن النبي ﷺ:(أن أعمال بني آدم تعرض علي كل خميس ليلة الجمعة، فلا يقبل عمل قاطع رحم). كان بعض التابعين يبكي إلى امرأته يوم الخميس وتبكي إليه، ويقول: اليوم تعرض أعمالنا على الله عز وجل.

يا من يبهرج بعلمه على من تبهرج! والناقد بصير. يا من يسوف بتطويل أمله إلى كم تسوف! والعمر قصير.

صروف الحتف تدور على الرعايا
فلا تتبع هواك فكل يصير إلى بلى
وخف من هول يوم تخوف شره ضنك
فمالك غير تقوى وفعلك حين تقبر
فحسنه ليعرض ففي الاثنين

المجلس الثالث في ذكر وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم

في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ جلس على المنبر فقال: إن عبدا خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عنده، فاختار ما عنده. فبكى أبوبكر وقال: يا رسول الله فديناك بآبائنا وأمهاتنا. قال: فعجبنا، وقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عند الله، وهو يقول: فديناك بآبائنا وأمهاتنا قال: فكان رسول الله ﷺ هو المخير وكان أبوبكر هو أعلمنا به فقال النبي ﷺ: (إن من آمن الناس علي في صحبته وماله أبوبكر ولو اتخذت من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن إخوة الإسلام لا تبقى في المسجد خوخة إلا

سدت إلا خوخة أبي بكر رضي الله عنه) الموت مكتوب على كل حي الأنبياء والرسل وغيرهم قال الله تعالى لنبيه ﷺ: (إنك ميت وإنهم ميتون) وقال: (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون * كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون) وقال: (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) الآيتين.

خلق الله تعالى آدم من تراب الأرض، ونفخ فيه من روحه فكانت روحه في جسده، وأرواح ذريته في أجسادهم في هذه الدار عارية، وقضى عليه وعلى ذريته أنه لا بد من أن يسترد أرواحهم من هذه الأجساد ويعيد أجسادهم إلى ما خلقت منه، وهو التراب، ووعد أن يعيد الأجساد من الأرض مرة ثانية ثم يرد إليها الأرواح مرة ثانية تمليكا دائما لا رجعة فيه في دار البقاء. قال الله تعالى: (قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون)، وقال: (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى)، وقال: (والله أنبتكم من الأرض نباتا * ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا)، وأرانا دليلا في هذه الدار على إعادة الأجساد من التراب بإنبات الزرع من الأرض وإحياء الأرض بعد موتها بالمطر، ودليلا على إعادة الأرواح إلى أجسادها بعد المفارقة بقبض أرواح العباد في منامهم وردها إليهم في يقظتهم، كما قال تعالى: (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون).

وفي مسند البزار عن أنس أن النبي ﷺ قال لهم لما ناموا عن الصلاة: (إن هذه الأرواح عارية في أجساد العباد فيقبضها إذا شاء ويرسلها إذا شاء).

استعدي للموت يا ... للنجاة فالحازم

قد تيقنت أنه ليس ... خلود ولا من

إنما أنت مستعيرة ... وف تردين

غيره:

فما أهل الحياة لنا ولا دار الحياة لنا
وما أموالنا والأهل ولا أولادنا إلا
وأنفسنا إلى أجل سيأخذها المعير

مفارقة الجسد للروح لا تقع إلا بعد ألم عظيم تذوقه الروح والجسد جميعا، فإن الروح قد تعلقت بهذا الجسد وألفته واشتدت إلفتها له وامتزاجها به ودخولها فيه حتى صارا كالشيء الواحد فلا يتفارقان إلا بجهد شديد، وألم عظيم ولم يذق ابن آدم حياته ألما مثله، وإلى ذلك الإشارة بقول الله عز وجل: (كل نفس ذائقة الموت). قال الربيع بن خثيم أكثروا ذكر هذا الموت فإنكم لم تذوقوا قبله مثله ويتزايد الألم بمعرفة المحتضر فإن جسده إذا فارقته الروح صار جيفة مستقذرة يأكله الهوام ويبليه التراب حتى يعود ترابا وإن الروح المفارقة له لا تدري أين مستقرها، هل هو في الجنة أوفي النار، فإن كان عاصيا مصرا على المعصية إلى الموت، فربما غلب على ظنه أن روحه تصير إلى النار فتتضاعف بذلك حسرته وألمه، وربما كشفت له مع ذلك عن مقعده من النار فرآه أو يبشر بذلك فيجتمع له مع كرب الموت وألمه العظيم معرفته بسوء مصيره، وهذا المراد بقول الله عز وجل: (والتفت الساق بالساق) على ما فسر به كثير من السلف، فيجتمع عليه سكرة الموت مع حسرة الفوت، فلا يسأل عن سوء حاله وقد سمى الله تعالى ذلك سكرة، لأن ألم الموت مع ما ينضم إليه يسكر صاحبه فيغيب عقله غالبا، قال الله تعالى: (وجاءت سكرة الموت بالحق).

ألا الموت كأس أي وأنت لكائسه لا بد
إلى كم والممات تذكر بالممات

وقد أمر النبي ﷺ بكثرة ذكر الموت فقال: (أكثروا ذكر هادم اللذات الموت)، وفي حديث مرسل أنه ﷺ مر بمجلس قد استعلاه الضحك، فقال (شوبوا مجلسكم بذكر مكدر اللذات الموت).

وفي الإكثار من ذكر الموت فوائد منها: أنه يحث على الاستعداد له قبل نزوله، ويقصر الأمل ويرضى

بالقليل من الرزق، ويزهد في الدنيا ويرغب في الآخرة، ويهوّن مصائب الدنيا، ويمنع من الأشر والبطر والتوسع في لذات الدنيا، وفي حديث أبي ذر المرفوع الذي خرجه ابن حبان في صحيحه وغيره: (أن صحف موسى كانت عبرا كلها).

عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح! عجبت لمن أيقن بالنار كيف يضحك! عجبت لمن أيقن بالقدر كيف ينصب! عجبت لمن رأى الدنيا وسرعة تقبلها كيف يطمئن إليها! قد روي أن الكنز الذي كان للغلامين كان لوحا من ذهب مكتوب فيه هذا أيضا، قال الحسن: إن هذا الموت قد أفسد على أهل النعيم نعيمهم فالتمسوا عيشا لا موت فيه. وقال: فضح الموت الدنيا فلم يدع لذي لب بها فرحا. وقال غيره: ذهب الموت بلذاذة كل عيش وسرور كل نعيم ثم بكى، وقال: واها لدار لا موت فيها.

اذكر الموت هادم ... وتهيأ لمصرع
يا غافل القلب عن ... عما قليل ستلقى
فاذكر محلك من ... وتب إلى الله من
إن الحمام له وقت ... فاذكر مصائب أيام
لا تطمئن إلى ... قد آن للموت يا ذا

قال بعض السلف: شيئان قطعا عني لذاذة الدنيا: ذكر الموت والوقوف بين يدي الله عز وجل.

كيف يلذ العيش من ... بأن المنايا بغتة
وكيف يلذ العيش ... بأن إله الخلق لا بد

قال أبو الدرداء: كفى بالموت واعظا وكفى بالدهر مفرقا اليوم في الدور، وغدا في القبور.

اذكر الموت وداوم ... إن في الموت لذي
وكفى بالموت ... لمن الموت عليه

غفلة الإنسان عن الموت مع أنه لا بد له منه من العجب، والموجب له طول الأمل

كلنا في غفلة والمـ ... وت يغدو ويروح
لبنى الدنيا من المـ ... وت غبوق وصبوح
سيصير المرء يوما ... جسدا ما فيه روح
بين عيني كل حي ... علم الموت يلوح

نح عِلى نفسك يا ين إن كنت تنوح
لتموتن ولو عمـ رت ما عمر نوح

لما كان الموت مكروها بالطبع لما فيه من الشدة والمشقة العظيمة، لم يمت نبي من الأنبياء حتى يخير. ولذلك وقع التردد فيه في حق المؤمن، كما في حديث أبي هريرة عن النبي : (يقول الله عز وجل: وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته، ولا بد له منه) كما رواه البخاري. قال ابن أبي مليكة: (لما قبض إبراهيم عليه السلام قال الله عز وجل له: كيف وجدت الموت ؟ قال: يا رب كأن نفسي تنزع بالبلى فقال: هذا وقد هونا عليك الموت) وقال أبو إسحاق: قيل لموسى عليه السلام: كيف وجدت طعم الموت؟ قال: وجدته كسفود أدخل في صوف فاجتذب، قال: هذا وقد هونا عليك الموت. ويروى أن عيسى عليه السلام كان إذا ذكر الموت يقطر جلده دما، وكان يقول للحواريين: ادعوا الله أن يخفف عني الموت، فلقد خفت الموت خوفا أوقفني مخافة الموت على الموت.

كيف يطمع في البقاء وما من الأنبياء إلا مات! أم كيف يؤمن هجوم المنايا ولم يسلم الأصفياء والأحباء هيهات هيهات!.

قد مات كل نبي ومات كل بنيه
ومات كل شريف وعاقل وسيفه
لا يوحشنك طريق كل الخلائق فيه

أول ما أعلم النبي من انقضاء عمره باقتراب أجله بنزول سورة: (إذا جاء نصر الله والفتح). وقيل لابن عباس رضي الله عنهما: هل كان يعلم رسول الله متى يموت ؟ قال: نعم. قيل: ومن أين ؟ قال: إن الله تعالى جعل علامة موته هذه السورة: (إذا جاء نصر الله والفتح) يعني فتح مكة (ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا) ذلك علامة موته، وقد كان نعى نفسه إلى فاطمة رضي الله عنها، فإن المراد من هذه السورة: أنك يا محمد إذا فتح الله

عليك البلاد، ودخل الناس في دينك الذي دعوتهم إليه أفواجا، فقد اقترب أجلك فتهيأ للقاءنا بالتحميد والاستغفار، فإنه قد حصل منك مقصود ما أمرت به من أداء الرسالة والتبليغ وما عندنا خير لك من الدنيا، فاستعد للنقلة إلينا قال ابن عباس: لما نزلت هذه السورة نعيت لرسول الله نفسه فأخذ في أشد ما كان اجتهادا في أمر الآخرة، وروي في حديث: (إنه تعبد حتى صار كالشن البالي)، (وكان يعرض القرآن كل عام على جبريل مرة فعرضه ذلك العام مرتين)، (وكان يعتكف العشر الأواخر من رمضان كل عام فاعتكف فيه ذلك العام عشرين)، (وأكثر من الذكر والاستغفار) قالت أم سلمة: (كان رسول الله في آخر أمره لا يقوم ولا يقعد ولا يذهب ولا يجيء إلا قال سبحان الله وبحمده، فذكرت ذلك له فقال: إني أمرت بذلك) وتلا هذه السورة، وقالت عائشة رضي الله عنها: (كان رسول الله يكثر أن يقول قبل موته: سبحان الله وبحمده، استغفر الله وأتوب إليه، فقلت له: إنك تدعو بدعاء لم تكن تدعو به قبل اليوم ؟ قال: إن ربي أخبرني أنني سأرى علما في أمتي، وإني إذا رأيته أن أسبح بحمده وأستغفره وقد رأيته ثم تلا هذه السورة).

إذا كان سيد المحسنين يؤمر بأن يختم أعماله بالحسنى، فكيف يكون حال المذنب المسيء المتلوث بالذنوب المحتاج إلى التطهير؟، من لم ينذره باقتراب أجله وحي أنذره الشيب وسلب أقرانه بالموت.

كفى مؤذنا شباب تولى وشيب
وموت الأقران بقاء يؤمله من
إذا ارتحلت قرناء على حكم ريب

قال وهب بن الورد: إن لله ملكا ينادي في السماء كل يوم وليلة: أبناء الخمسين: زرع دنا حصاده! أبناء الستين: هلموا إلى الحساب! أبناء السبعين: ماذا قدمتم وماذا أخرتم؟! أبناء الثمانين: لا عذر لكم!. وعن وهب قال: ينادي مناد: أبناء الستين: عدوا أنفسكم في الموتى.

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي ا–قال: أعذر الله إلى من بلغه ستين من عمره). وفي حديث آخر: (إذا كان يوم القيامة نودي أين أبناء الستين وهو العمر الذي قال الله فيه: (أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر)، وفي الترمذي عنه، قال ا–: (أعمار أمتي بين الستين إلى السبعين وأقلهم من يجوز ذلك) وفي حديث آخر: (معترك المنايا ما بين الستين إلى السبعين) وفي حديث آخر: (إن لكل شيء حصادا وحصاد أمتي ما بين الستين إلى السبعين) وفي هذا المعترك قبض النبي ا–. قال سفيان الثوري: من بلغ سن رسول الله ا–فليتخذ لنفسه كفنا.

وإن أمرا قد سار إلى منهل من ورده

قال الفضيل لرجل: كم أتى عليك ؟ قال: ستون سنة. قال له: أنت من ستين سنة تسير إلى ربك يوشك أن تبلغ، فقال الرجل: إنا لله وإنا إليه راجعون، فقال الفضيل: من علم أنه لله عبد، وأنه إليه راجع، فليعلم أنه موقوف، وأنه مسؤول، فليعد للمسألة جوابا، فقال له الرجل: فما الحيلة ؟ قال: يسيرة، قال: ماهي ؟ قال: تحسن فيما بقي يغفر لك ما مضى، فإنك إن أسأت فيما بقي أخذت بما مضى وما بقى.

خذ في جد فقد كم ذا التفريط قد
أقبل فعسى يقبل كم تبني كم تنقض

وما زال يعرض باقتراب أجله في آخر عمره، فإنه لما خطب في حجة الوداع، قال للناس: (خذوا عني مناسككم فلعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا). وطفق يودع الناس فقالوا: هذه حجة الوداع، فلما رجع من حجته إلى المدينة جمع الناس بماء يدعى خمّا في طريقه بين مكة والمدينة فخطبهم وقال: (أيها الناس إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب ثم حض على التمسك بكتاب الله ووصى بأهل بيته) ثم إنه لما بدأ به مرض الموت خيّر بين لقاء الله وبين زهرة الدنيا والبقاء فيها ما شاء الله، فاختار لقاء الله وخطب الناس وأشار إليهم بذلك إشارة من غير تصريح.

وكان ابتداء مرضه في أواخر شهر صفر، وكان مدة مرضه ثلاثة عشر يوما في المشهور. وقيل: أربعة عشر يوما، وقيل: اثنا عشر يوما، وقيل: عشرة أيام وهو غريب، وكانت خطبته التي خطب بها في حديث أبي سعيد هذا الذي نتكلم عليه ههنا في ابتداء مرض، ففي المسند وصحيح ابن حبان عن أبي سعيد الخدري قال: خرج إلينا رسول الله في مرضه الذي مات فيه وهو معصوب الرأس فقام على المنبر فقال: إن عبدا عرضت عليه الدنيا وزينتها فاختار الآخرة، قال: فلم يفطن لها أحد من القوم إلا أبوبكر، فقال: بأبي وأمي بل نفديك بأموالنا وأنفسنا وأولادنا، قال: ثم هبط عن المنبر فما رؤي عليه حتى الساعة).

وفي المسند عن أبي مويهبة: أن النبي ا– خرج ليلة إلى البقيع، فاستغفر لأهل البقيع وقال: ليهنكم ما أصبحتم فيه مما أصبح فيه الناس، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع بعضها بعضا، يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى، ثم قال: يا أبا مويهبة إني قد أعطيت خزائن الدنيا والخلد ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي، فاخترت لقاء ربي والجنة ثم انصرف، فابتدأه وجعه الذي قبضه الله فيه) لما قويت معرفة الرسول ا– بربه ازداد حبه له وشوقه إلى لقائه، فلما خير بين البقاء في الدنيا وبين لقاء ربه اختار لقاءه على خزائن الدنيا، والبقاء فيها. سئل الشبلي هل يقنع المحب بشيء من حبيبه دون مشاهدته؟ فأنشد:

والله لو أنك بتاج كسرى ملك
ولو بأموال الورى أموال من باد ومن
وقلت لي: لا اخترت يا مولاي أن

لما عرض الرسول ا–على المنبر باختياره اللقاء على البقاء ولم يصرح خفي المعنى على كثير ممن سمع ولم يفهم المقصود غير صاحبه الخصيص به، ثاني اثنين إذ هما في الغار، وكان أعلم الأمة بمقاصد الرسول ا– ، فلما فهم المقصود من هذه الإشارة بكى وقال: بل نفديك بأموالنا وأنفسنا وأولادنا، فسكن الرسول ا–جزعه وأخذ في مدحه والثناء عليه على المنبر ليعلم

الناس كلهم فضله، ولا يقع عليه اختلاف في خلافته فقال: (إن من أمن الناس علي في صحبته وماله أبوبكر) وفي رواية أخرى أنه قال: (ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافأناه ما خلا أبوبكر، فإن له عندنا يدا يكافئه الله يوم القيامة بها، وما نفعني مال أحد قط ما نفعني مال أبي بكر) خرجه الترمذي ثم قال رسول الله ا–: (لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكن إخوة الإسلام) لما كان رسول الله ا– خليل الله لم يصلح له أن يخالل مخلوقا، فإن الخليل من جرت محبة خليله منه مجرى الروح، ولا يصلح هذا لبشر كما قيل:

قد تخللت مسلك وبذا سمي الخليل

ولهذا المعنى قيل: إن إبراهيم الخليل عليه السلام أمر بذبح ولده ولم يكن المقصود إراقة دم الولد، بل تفريغ محل الخلة لمن لا يصلح أن يزاحمه فيها أحد.

أروح وقد ختمت بحبك أن يحل به

فلو أني استطعت فلم أنظر به حتى

ثم قال : (لا يبقين خوخة في المسجد إلا سدت إلا خوخة أبي بكر).

وفي رواية: (سدوا هذه الأبواب الشارعة في المسجد إلا باب أبي بكر) وفي هذا الإشارة إلى أن أبا بكر هو الإمام بعده فإن الإمام يحتاج إلى سكنى المسجد والاستطراف فيه، بخلاف غيره. وذلك من مصالح المسلمين المصلين في المسجد، ثم أكد هذا المعنى بأمره صريحا أن يصلي بالناس أبوبكر فروجع في ذلك، فغضب وقال: (مروا أبا بكر فليصل بالناس) فولاه إمامة الصلاة دون غيره، وأبقى استطراقه من داره إلى مكان الصلاة وسد استطراق غيره، وفي ذلك إشارة واضحة إلى استخلافه على الأمة دون غيره، ولهذا قالت الصحابة عند بيعة أبي بكر: رضيه رسول الله لديننا فكيف لا نرضاه لدنيانا؟. ولما قال أبوبكر: قد أقلتكم بيعتي قال علي: لا نقيلك ونستقيلك قدمك رسول الله فمن ذا يؤخرك لما انطوى بساط النبوة من الأرض بوفاة

الرسول لم يبق على وجه الأرض أكمل من درجة الصديقية، وأبو بكر رأس الصديقين. فلهذا استحق خلافة الرسول والقيام مقامه وكان النبي قد عزم على أن يكتب لأبي بكر كتابا لئلا يختلف عليه، ثم أعرض عن ذلك لعلمه أنه لا يقع غيره، وقال: (يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر) وربما كان ترك ذلك لئلا يتوهم متوهم أن نصه على خلافته كانت مكافأة ليده التي كانت له، والولايات كلها لا يقصد بها مصلحة المولى بل مصلحة المسلمين عامة.

وكان أول ما ابتدىء به رسول الله من مرضه وجع رأسه، ولهذا خطب وقد عصب رأسه بعصابة دسماء، وكان صداع الرأس والشقيقة يعتريه كثيرا في حياته، ويتألم منه أياما. وصداع الرأس من علامات أهل الإيمان وأهل الجنة، وقد روي عن النبي : أنه وصف أهل النار فقال: هم الذين لا يألمون رؤوسهم) ودخل عليه أعرابي فقال له: (يا أعرابي هل أخذك هذا الصداع ؟ فقال: وما الصداع ؟ قال: عروق تضرب على الإنسان في رأسه فقال: ما وجدت هذا، فلما ولى الأعرابي قال النبي : من أحب أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا) خرجه الإمام أحمد والنسائي.وقال كعب: أجد في التوراة لولا أن يحزن عبدي المؤمن، لعصبت الكافر بعصابة من حديد لا يصدع أبدا.

وفي المسند عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل علي رسول الله في اليوم الذي بدأ فيه فقلت: وارأساه. فقال: وددت أن ذلك كان وأنا حي فهيأتك ودفنتك، فقلت: غيراء كأني بك في ذلك اليوم عروسا ببعض نسائك، فقال: أنا وارأساه أدعو لي أباك وأخاك حتى أكتب لأبي بكر كتابا، فإني أخاف أن يقول قائل ويتمنى متمن ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر) وخرجه البخاري بمعناه، ولفظه: أن عائشة رضي الله عنها قالت: وارأساه فقال رسول الله : (ذاك لو كان وأنا حي فأستغفر وأدعو لك قالت

عائشة: واثكلاه والله إني لأظنك تحب موتي، ولو كان ذلك لظللت آخر يومك معرسا ببعض أزواجك، فقال النبي ﷺ: بل أنا وارأساه) وذكر بقية الحديث. وفي المسند أيضا (عنها قالت كان رسول الله ﷺ إذا مر ببابي كثيرا ما يلقي الكلمة ينفع الله بها، فمر ذات يوم فلم يقل شيئا مرتين أو ثلاثا، قلت: يا جارية ضعي لي وسادة على الباب، وعصبت رأسي فمر بي، وقال: يا عائشة ما شأنك ؟ فقلت: أشتكي رأسي فقال: أنا وارأساه، فذهب فلم يلبث إلا يسيرا حتى جيء به محمولا في كساء، فدخل علي فبعث إلى النساء، وقال: إني اشتكيت أني لا أستطيع أن أدور بينكن فأذنّ لي فلأكن عند عائشة) وفيه أيضا عنها قالت: (رجع إلي النبي ﷺ ذات يوم من جنازة بالبقيع وأنا أجد صداعا في رأسي، وأنا أقول وارأساه ثم قال: ما ضرك لو متّ قبلي فغسلتك وكفنتك ثم صليت عليك ودفنتك!، فقلت: لكأني بك والله لو فعلت ذلك لقد رجعت إلى بيتي فأعرست فيه ببعض نسائك فتبسم رسول الله ﷺ ثم بدأ في وجعه الذي مات فيه).

فقد تبين أن أول مرضه كان صداع الرأس، والظاهر أنه كان مع حمى، فإن الحمى اشتدت به في مرضه، فكان يجلس في مخضب ويصب عليه الماء من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن يتبرد بذلك. وكان عليه قطيفة فكانت حرارة الحمى تصيب من وضع يده عليه من فوقها، فقيل له في ذلك ؟ فقال: إنا كذلك يشدد علينا البلاء ويضاعف لنا الأجر. وقال: (إني أوعك كما يوعك رجلان منكم). ومن شدة وجعه كان يغمى عليه في مرضه ثم يفيق. وحصل له ذلك غير مرة، فأغمي عليه مرة وظنوا أن وجعه ذات الجنب، فلدوه فلما أفاق أنكر ذلك وأمر أن يلد من لده وقال: (إن الله لم يكن ليسلطها عليّ. يعني ذات الجنب. ولكنه من الأكلة التي أكلتها يوم خيبر يعني: أنه نقض عليه سمّ الشاة التي أهدتها له اليهودية، فأكل منها يومئذ، فكان ذلك يثور عليه أحيانا، فقال في مرض موته: ما زالت أكلة خيبر تعاودني. فهذا

أوان انقطاع أبهري.

وكان ابن مسعود وغيره يقولون: إنه مات شهيدا من السم، وقالت عائشة: ما رأيت أحدا كان أشد عليه الوجع من رسول الله ﷺ وكان عنده في مرضه سبعة دنانير فكان يأمرهم بالصدقة بها ثم يغمى عليه فيشتغلون بوجعه، فدعا بها فوضعها في كفه وقال: (ما ظن محمد بربه لو لقي الله وعنده هذه) ثم تصدق بها كلها، فكيف يكون حال من لقي الله وعنده دماء المسلمين وأموالهم المحرمة وما ظنه بربه؟.

ولم يكن عندهم في مرضه دهن للمصباح يوقد فيه، فلما اشتد وجعه ليلة الاثنين أرسلت عائشة بالمصباح إلى امرأة من النساء فقالت قطري لنا في مصباحنا من عكة السمن، فإن رسول الله ﷺ أمسى في جديد الموت، وكان عند عائشة إزار غليظ مما صنع باليمن وكساء من الملبدة، فكانت تقسم بالله أن رسول الله ﷺ قبض فيهما. ودخلت عليه فاطمة رضي الله عنها في مرضه، فسارها رسول الله بشيء، فبكت ثم سارها فضحكت، فسئلت عن ذلك ؟ فقالت: لا أفشي سر رسول الله ﷺ فلما توفي سئلت ؟ فقالت: أخبرني أنه يموت في مرضه، فبكيت، ثم أخبرني أني أول أهله لحوقا به، وأني سيدة نساء العالمين، فضحكت. فلما احتضر ﷺ اشتد به الأمر ،فقالت عائشة: ما أغبط أحدا يهوّن عليه الموت بعد الذي رأيت من شدة موت رسول الله ﷺ قالت: وكان عنده قدح من ماء فيدخل يده في القدح ثم يمسح وجهه بالماء، ويقول: (اللهم أعني على سكرات الموت). قالت: وجعل يقول: (لا إله إلا الله إن للموت لسكرات) وفي حديث مرسل أنه قال: (اللهم إنك تأخذ الروح من بين العصب والقصب والأنامل، اللهم فأعني على الموت وهوّنه عليّ) ولما ثقل النبي ﷺ جعل يتغشاه الكرب، قالت فاطمة رضي الله عنها: واكرب أبتاه فقال لها: (لا كرب على أبيك بعد اليوم) وفي حديث خرجه ابن ماجه: أنه ﷺ قال

لفاطمة: (إنه قد حضر من أبيك ما ليس الله بتارك منه أحدا الموافاة يوم القيامة)

ولم يقبض ﷺ حتى خير مرة أخرى بين الدنيا والآخرة. قالت عائشة كان النبي ﷺ يقول: (إنه لم يقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة ثم يخير) فلما نزل به ورأسه على فخذي غشي عليه ساعة ثم أفاق، فأشخص بصره إلى سقف البيت ثم قال: (اللهم الرفيق الأعلى) فقلت: الآن لا يختارنا، وعلمت أنه الحديث الذي كان يحدثناه وهو صحيح، فكانت تلك آخر كلمة تكلم بها، وفي رواية أنه قال: (اللهم اغفر لي وارحمني، وألحقني بالرفيق الأعلى) وفي رواية (أنه أصابه بحة شديدة، فسمعته يقول: (مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) قالت: فظننت أنه خير.

وهذه الروايات مخرجة في صحيح البخاري وغيره، وقد روي ما يدل على أنه قبض ثم رأى مقعده من الجنة' ثم ردت إليه نفسه' ثم خيّر، ففي المسند عن عائشة رضي الله عنها قالت كان رسول الله ﷺ يقول: (ما من نبي إلا يقبض نفسه ثم يرى الثواب، ثم ترد إليه فيخير بين أن ترد إليه أو يلحق) فكنت قد حفظت ذلك منه، فإني لمسندته إلى صدري فنظرت إليه حتى مالت عنقه، فقلت: قد قضى، قالت: فعرفت الذي قال: فنظرت إليه حتى ارتفع ونظر، فقالت: إذا والله لا يختارنا فقال: مع الرفيق الأعلى في الجنة (مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) إلى آخر الآية. وفي صحيح ابن حبان عنها قالت: (أغمي على رسول الله ﷺ ورأسه في حجري فجعلت أمسحه وأدعو له بالشفاء فلما أفاق قال: لا، بل أسأل الله الرفيق الأعلى مع جبريل وميكائيل وإسرافيل). وفيه وفي المسند عنها: أنها كانت ترقيه في مرضه الذي مات فيه فقال: (ارفعي يدك فإنها كانت تنفعني في المدة). قال الحسن لما كرهت الأنبياء الموت هون الله عليهم بلقاء الله وبكل ما أحبوا من تحفة أو

كرامة، حتى أن نفس أحدهم لتنزع من بين جنبيه وهو يحب ذلك لما قد مثل له.

وفي المسند عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: (إنه ليهون علي الموت إني رأيت بياض كف عائشة في الجنة) وخرجه ابن سعد وغيره مرسلا أنه ﷺ قال: (لقد أريتها في الجنة ليهون بذلك علي موتي كأني أرى كفيها) يعني عائشة.

كان النبي ﷺ يحب عائشة رضي الله عنها حبا شديدا حتى لا يكاد يصبر عنها، فمثلت له بين يديه في الجنة ليهوّن عليه موته، فإن العيش إنما يطيب باجتماع الأحبة، وقد سأله رجل: أي النساء أحب إليك ؟ فقال: (عائشة) فقال له فمن الرجال ؟ قال: (أبوها) ولهذا قال لها في ابتداء مرضه لما قالت: (وارأساه: وددت أن ذلك كان وأنا حي فأصلي عليك وأدفنك). فعظم ذلك عليها وظنت أنه يحب فراقها، وإنما كان يريد تعجيلها بين يديه ليقرب اجتماعهما، وقد كانت عائشة مضغت له ﷺ سواكا وطيبته بريقها ثم دفعته إليه فاستن به أحسن استنان، ثم ذهب يتناوله فضعفت يده عنه، فسقط من يده، فكانت عائشة تقول: جمع الله بي ريقي وريقه في أخر يوم من الدنيا، وأول يوم من الآخرة. والحديث مخرج في الصحيحين.

نزول جبريل في الثلاثة أيام الأخيرة لوفاة الرسول ﷺ.

وفي حديث خرجه العقيلي أنه قال لها في مرضه: (ائتيني بسواك رطب امضغيه، ثم ائتيني به أمضغه لكي يختلط ريقي بريقك لكي يوهن به عند الموت). قال جعفر بن محمد عن أبيه لما بقي من أجل رسول الله ﷺ ثلاث نزل عليه جبريل عليه السلام فقال: يا أحمد إن الله قد أرسلني إليك إكراما لك وتفضيلا لك وخاصة لك، يسألك عما هو أعلم به منك يقول لك:

كيف تجدك ؟ فقال: أجدني يا جبريل مغموما، وأجدني يا جبريل مكروبا، ثم أتاه في اليوم الثاني فقال له مثل ذلك ثم أتاه في اليوم الثالث، فقال له مثل ذلك، ثم استأذن فيه ملك الموت فقال جبريل: يا أحمد هذا ملك الموت يستأذن عليك، ولم يستأذن على آدمي كان قبلك ولا يستأذن على آدمي بعدك، قال: ائذن له، فدخل ملك الموت، فوقف بين يديه فقال: يا رسول الله! يا أحمد! إن الله أرسلني إليك وأمرني أن أطيعك في كل ما تأمر، إن أمرتني أن أقبض نفسك قبضتها، وإن أمرتني أن أتركها تركتها ؟ قال: وتفعل ذلك يا ملك الموت؟ قال: بذلك أمرت أن أطيعك في كل ما أمرتني به، فقال جبريل: يا أحمد إن الله قد اشتاق إليك، قال: فامض يا ملك الموت لما أمرت به، فقال جبريل عليه السلام: السلام عليك يا رسول الله، هذا آخر موطيء من الأرض، إنما كنت حاجتي من الدنيا. وجاءت التعزية يسمعون الصوت والحس ولا يرون الشخص: السلام عليكم يا أهل البيت ورحمة الله وبركاته: (كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة) إن في الله عزاء من كل مصيبة، وخلفا من كل هالك، ودركا من كل فائت، فبالله فثقوا وإياه فارجوا إنما المصاب من حرم الثواب والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته).

وكانت وفاته ﷺ في يوم الاثنين في شهر ربيع الأول بغير خلاف، وكان قد كشف الستر في ذلك اليوم والناس في صلاة الصبح خلف أبي بكر فهم المسلمون أن يفتنوا من فرحهم برؤيته ﷺ حين نظروا إلى وجهه كأنه ورقة مصحف، وظنوا أنه يخرج للصلاة فأشار إليهم أن مكانكم. ثم أرخى الستر وتوفى ﷺ من ذلك اليوم وظن المسلمون أنه ﷺ قد برئ من مرضه لما أصبح يوم الاثنين مفيقا، فخرج أبوبكر إلى منزله بالسنح، خارج المدينة، فلما ارتفع الضحى من ذلك اليوم توفي رسول الله ﷺ، وقيل توفي حين زاغت الشمس والأول أصح، وأنه توفي حين اشتد الضحى

من يوم الاثنين في مثل الوقت الذي دخل فيه المدينة حين هاجر إليها.

واختلفوا في تعيين ذلك اليوم من الشهر، فقيل: كان أوله، وقيل: ثانيه، وقيل ثاني عشرة، وقيل: ثالث عشرة، وقيل: خامس عشرة، والمشهور بين الناس: إنه كان ثاني عشر ربيع الأول. وقد رد ذلك السهيلي وغيره بأن وقفة حجة الوداع في السنة العاشرة كانت الجمعة كان أول ذي الحجة فيها الخميس، ومتى كان كذلك لم يصح أن يكون يوم الاثنين ثاني عشر ربيع الأول، سواء حسبت الشهور الثلاثة، أعني: ذا الحجة ومحرما وصفرا كلها كاملة أو ناقصة أو بعضها كاملة وبعضها ناقصة، ولكن أجيب عن هذا بجواب حسن، وهو أن ابن إسحاق ذكر أن النبي توفي لاثنتي عشرة ليلة من ربيع الأول، وهذا ممكن فإن العرب تؤرخ بالليالي دون الأيام، ولكن لا تؤرخ إلا بليلة مضى يومها، فيكون اليوم تبعا لليلة، وكل ليلة لم يمض يومها لم يعتد بها كذلك إذا ذكروا الليالي في عدد فإنهم يريدون بها الليالي مع أيامها، فإذا قالوا عشر ليال فمرادهم بأيامها.

ومن هنا يتبين صحة قول الجمهور في أن عدة الوفاة أربعة أشهر وعشر ليال بأيامها، وأن اليوم العاشر من جملة تمام العدة خلافا للأوزاعي، وكذلك قال الجمهور في أشهر الحج: إنها شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة، وأن يوم النحر داخل فيها لهذا المعنى خلافا للشافعي وحينئذ فيوم الاثنين الذي توفي فيه النبي كان: ثالث عشر الشهر، لكن لما لم يكن يومه قد مضى لم يؤرخ بليلته إنما أرّخوا بليلة الأحد ويومها وهو الثاني عشر، فلذلك قال ابن إسحاق توفي لاثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأول والله أعلم.

واختلفوا في وقت دفنه فقيل: دفن من ساعته وقيل: بعد، وقيل: من ليلة الثلاثاء، وقيل: ليلة الأربعاء. ولما توفي اضطرب المسلمون فمنهم من دهش فخولط، ومنهم من أقعد فلم يطق القيام، ومنهم من اعتقل لسانه فلم ينطق الكلام، ومنهم

من أنكر موته بالكلية وقال: إنما بعث إليه كما بعث إلى موسى، وكان من هؤلاء عمر.

وبلغ الخبر أبا بكر فأقبل مسرعا حتى دخل بيت عائشة ورسول الله ﷺ مسجى فكشف عن وجهه الثوب وأكب عليه وقبّل جبهته مرارا وهو يبكي وهو يقول: وانبياه واخليلاه واصفياه، وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، مات والله رسول الله ﷺ، وقال: والله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتب الله عليك فقدمتها، ثم دخل المسجد وعمر يكلم الناس وهم مجتمعون عليه، فتكلم أبوبكر وتشهد وحمد الله، فأقبل الناس إليه وتركوا عمر، فقال: من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، وتلا: (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) الآية. فاستيقن الناس كلهم بموته، وكأنهم لم يسمعوا هذه الآية من قبل أن يتلوها أبوبكر، فتلقاها الناس منه، فما يسمع أحد إلا يتلوها، وقالت فاطمة رضي الله عنها: يا أبتاه! أجاب ربا دعاه، يا أبتاه جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل أنعاه، يا أبتاه من ربه ما أدناه، وعاشت بعده ستة أشهر فما ضحكت في تلك المدة وحق لها ذلك.

على مثل ليلى   وإن كان من ليلى

كل المصائب تهون عند هذه المصيبة، في سنن ابن ماجه أنه ﷺ قال في مرضه: (يا أيها الناس إن أحد من الناس أو المؤمنين أصيب بمصيبة فليتعز بمصيبته بي عن المصيبة التي تصيبه بغيري، فإن أحدا من أمتي لن يصاب بمصيبة بعدي أشد عليه من مصيبتي) قال أبو الجوزاء: كان الرجل من أهل المدينة إذا أصابته مصيبة جاء أخوه فصافحه، ويقول: يا عبد الله! اتق الله، فإن في رسول الله ﷺ أسوة حسنة.

اصبر لكل مصيبة   واعلم بأن المرء

واصبر كما صبر   نوب تنوب اليوم

وإذا أتتك مصيبة   فاذكر مصابك

ولبعضهم:

تذكرت لما فرق فعزيت نفسي
وقلت لها إن فمن لم يمت في

كانت الجمادات تتصدع من ألم مفارقة الرسول ﷺ، فكيف بقلوب المؤمنين!. لما فقده الجذع الذي كان يخطب إليه قبل اتخاذ المنبر حنّ إليه وصاح كما يصيح الصبي فنزل إليه فاعتنقه فجعل يهدي كما يهدي الصبي الذي يسكن عند بكائه فقال: لو لم أعتنقه لحنّ إليّ يوم القيامة، كان الحسن إذا حدث بهذا الحديث بكى، وقال: هذه خشبة تحن إلى رسول الله ﷺ، فأنتم أحق أن تشتاقوا إليه. ووري أن بلالا كان يؤذن بعد وفاة النبي ﷺقبل دفنه فإذا قال: أشهد أن محمدا رسول الله ارتجّ المسجد بالبكاء والنحيب، فلما دفن ترك بلال الأذان. ماأمرّ عيش من فارق الأحباب، خصوصا من كانت رؤيته حياة الألباب.

لو ذاق طعم لكاد من وجده يميد
قد حملوني عذاب يعجز عن حمله

لما دفن رسول الله ﷺ، قالت فاطمة: كيف طابت أنفسكم أن تحثوا التراب على رسول الله ﷺ. قال أنس: لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي دفن فيه، أظلم منها كل شيء، وما نفضنا عن رسول الله ﷺالتراب وإنا لفي دفنه حتى أنكرنا قلوبنا.

ليبك رسول الله فلا تنس قبرا
جزى الله عنا كل فقد كان مهديا
وكان رسول الله ونورا وبرهانا من
وكان رسول الله وكان عن الفحشاء
وكان رسول الله وكان لما استرعاه
وكان رسول الله فلبّى رسول الله
أينسى أبر الناس وأكرمهم بيتا
أينسى رسول الله وآثاره بالمسجدين
تكدر من بدع النبي عليه سلام الله ما
ركنا إلى الدنيا وكشفت الأطماع

وكم من منار كان ... ومن علم أمسى
إذا المرء لم يلبس ... تقلب عريانا وإن
وخير خصال المرء ... ولاخير فيمن كان

وظيفة شهر رجب

خرج في الصحيحين من حديث أبي بكرة أن النبي خطب في حجة الوداع فقال في خطبته: (إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان) وذكر الحديث.

قال الله عز وجل: (إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض، منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم) فأخبر سبحانه أنه منذ خلق السماوات والأرض وخلق الليل والنهار يدوران في الفلك، وخلق ما في السماء من الشمس والقمر والنجوم، وجعل الشمس والقمر يسبحان في الفلك وينشأ منهما ظلمة الليل وبياض النهار فمن حينئذ جعل السنة اثني عشر شهرا بحسب الهلال فالسنة في الشرع مقدرة بسير القمر وطلوعه لا بسير الشمس وانتقالها كما يفعله أهل الكتاب وجعل الله تعالى من هذه الأشهر أربعة أشهر حرما. وقد فسرها النبي في هذا الحديث وذكر أنها ثلاثة متواليات: ذو القعدة و ذو الحجة والمحرم، وواحد فرد وهو شهر رجب. وهذا قد يستدل به من يقول أنها من سنتين، وقد روي من حديث ابن عمر مرفوعا: (أولهنّ رجب)، وفي إسناده موسى بن عبيدة وفيه ضعف شديد من قبل حفظه، وقد حكى أهل عن المدينة أنهم جعلوها من سنتين، وأن أولها ذو القعدة ثم ذو الحجة ثم المحرم ثم رجب، فيكون رجب آخرها. وعن بعض المدنيين: أن أولها رجب ثم ذو القعدة ثم ذو الحجة ثم المحرم. وعن بعض أهل الكوفة: أنها من سنة واحدة، أولها المحرم ثم رجب ثم ذو القعدة ثم ذو الحجة. واختلف في أي هذه الأشهر الحرم أفضل ؟ فقيل: رجب، قاله بعض الشافعية، وضعّفه النووي

وغيره. وقيل: قال الحسن ورجحه النووي. وقيل: ذو الحجة، روي عن سعيد بن جبير وغيره وهو أظهر والله أعلم.

وقوله : (إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرا) مراده بذلك إبطال ما كانت الجاهلية تفعله من النسيء، كما قال تعالى: (إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله) وقد اختلف في تفسير النسيء، فقالت طائفة: كانوا يبدلون بعض الأشهر الحرم بغيرها من الأشهر، فيحرمونها بدلها، ويحلون ما أرادوا تحليله من الأشهر الحرم إذا احتاجوا إلى ذلك، ولكن لا يزيدون في عدد الأشهر الهلالية شيئا، ثم من أهل هذه المقالة من قال: كانوا يحلون المحرم فيستحلون القتال فيه لطول مدة التحريم عليهم بتوالي ثلاثة أشهر محرمة، ثم يحرمون صفر مكانه فكأنهم يقترضونه ثم يوفونه. ومنهم من قال: كانوا يحلون المحرم مع صفر من عام، ويسمونها صفرين ثم يحرمونهما من عام قابل ويسمونهما محرمين. قاله ابن زيد بن أسلم وهو ضعيف، وزيد بن أسلم ثقة، وهو من رجال الصحيح. وقيل: بل كانوا ربما احتاجوا إلى صفر أيضا، فأحلوه وجعلوا مكانه ربيعا.

ثم يدور كذلك التحريم والتحليل والتأخير إلى أن جاء الإسلام ووافق حجة الوداع صار رجوع التحريم إلى محرم الحقيقي، وهذا هو الذي رجحه أبو عبيد، وعلى هذا فالتغيير إنما وقع في عين الأشهر الحرم خاصة. وقالت طائفة أخرى: بل كانوا يزيدون في عدد شهور السنة، وظاهر الآية يشعر بذلك حيث قال الله تعالى: (إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا) فذكر هذا توطئة لهدم النسيء وإبطاله، ثم من هؤلاء من قال: كانوا يجعلون السنة ثلاثة عشر شهرا، قاله مجاهد وأبو مالك. قال أبو مالك: كانوا يجعلون السنة ثلاثة عشر شهرا ويجعلون المحرم صفرا. وقال مجاهد: كانوا يسقطون المحرم ثم يقولون: صفرين لصفر وربيع الأول وربيع الآخر ثم

يقولون: شهرا ربيع، ثم يقولون: لرمضان شعبان، ولشوال رمضان، ولذي القعدة شوال، ولذي الحجة ذو القعدة، على وجه ما ابتدأوا. وللمحرم ذو الحجة فيعدون ما ناسؤوا على مستقبله على وجه ما ابتدأوا. وعنه قال: كانت الجاهلية يحجون في كل شهر من شهور السنة عامين، فوافق حج رسول الله ﷺ في ذي الحجة فقال: (هذا يوم استدار الزمان كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض).

ومن هؤلاء من قال: كانت الجاهلية يجعلون الشهور اثني عشر شهرا وخمسة أيام، قاله إياس بن معاوية. وهذا العدد قريب من عدد السنة الرومية، ولهذا جاء في مراسيل عكرمة بن خالد أن النبي ﷺ قال في خطبته يوم النحر: (والشهر هكذا وهكذا وهكذا وخنس إبهامه في الثالثة: وهكذا وهكذا وهكذا يعني ثلاثين فأشار إلى أن الشهر هلالي، ثم تارة ينقص وتارة يتم). ولعل أهل النسيء كانوا يتمون الشهور كلها ويزيدون عليها والله أعلم، وقد قيل: إن ربيعة ومضر كانوا يحرمون أربعة أشهر من السنة مع اختلافهم في تعيين رجب منها كما سنذكره إن شاء الله تعالى. وكانت بنو عوف بن لؤي يحرمون من السنة ثمانية أشهر، وهذا مبالغة في الزيادة على ما حرم الله.

واختلفوا في أي عام عاد الحج إلى ذي الحجة على وجهه واستدار الزمان فيه كهيئته، فقالت طائفة: إنما عاد على وجهه في حجة الوداع، وأما حجة أبي بكر الصديق فكانت قد وقعت في ذي القعدة. هذا قول مجاهد وعكرمة بن خالد وغيرهما، وقد قيل: أنه اجتمع في ذلك العام حج الأمم كلها في وقت واحد، فلذلك سمي يوم الحج الأكبر. وقالت طائفة: بل وقعت حجة الصديق في ذي الحجة. قاله الإمام أحمد وأنكر قول مجاهد واستدل: (أن النبي ﷺ أمر عليا فنادى يوم النحر لا يحج بعد العام مشرك) وفي رواية (واليوم يوم الحج الأكبر)، وقد قال الله تعالى (وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله) فسماه يوم الحج

الأكبر. وهذا يدل على أن النداء وقع في ذي الحجة.

وخرج الطبراني في أوسطه من حديث عمر بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان العرب يحلون عاما شهرا وعاما شهرين، ولا يصيبون الحج إلا في كل ستة وعشرين سنة مرة واحدة: وهو النسيء الذي ذكره الله في كتابه، فلما كان عام حج أبي بكر الصديق بالناس وافق في ذلك العام الحج، فسماه الله يوم الحج الأكبر. ثم حج النبي ﷺ في العام المقبل فاستقبل الناس الأهلة، فقال رسول الله ﷺ: (إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض). وقيل بل استدارة الزمان كهيئته كان من عام الفتح. وخرج البزار في مسنده من حديث سمرة بن جندب أن رسول الله ﷺ قال لهم يوم الفتح: إن هذا العام الحج الأكبر قد اجتمع حج المسلمين وحج المشركين في ثلاثة أيام متتابعات، واجتمع حج اليهود والنصارى في ستة أيام متتابعات، ولم يجتمع منذ خلق الله السموات والأرض ولا يجتمع بعد العام حتى تقوم الساعة) وفي إسناده يوسف السمتي وهو ضعيف جدا.

واختلفوا لم سميت هذه الأشهر الأربعة حرما ؟ فقيل: لعظم حرمتها وحرمة الذنب فيها. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: اختص الله أربعة أشهر جعلهن حرما وعظم حرماتهن وجعل الذنب فيهن أعظم وجعل العمل الصالح والأجر أعظم. قال كعب: اختار الله الزمان فأحبه إلى الله الأشهر الحرم. وقد روي مرفوعا ولا يصح رفعه. وقد قيل: في قوله تعالى: (فلا تظلموا فيهن أنفسكم) أن المراد في الأشهر الحرم، وقيل: بل في جميع شهور السنة، وقيل: إنما سميت حرما لتحريم القتال فيها وكان ذلك معروفا في الجاهلية، وقيل: إنه كان من عهد إبراهيم عليه السلام، وقيل: إن سبب تحريم هذه الأشهر الأربعة بين العرب لأجل التمكن من الحج والعمرة، فحرم شهر ذي الحجة لوقوع الحج فيه، وحرم معه شهر ذي القعدة للسير فيه إلى الحج، وشهر المحرم للرجوع فيه من الحج حتى يأمن الحاج

على نفسه من حين يخرج من بيته إلى أن يرجع إليه، وحرم شهر رجب للاعتمار فيه في وسط السنة فيعتمر فيه من كان قريبا من مكة، وقد شرع الله في أول الإسلام تحريم القتال في الشهر الحرام قال تعالى: (لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام) وقال تعالى: (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل).

وخرج ابن أبي حاتم بإسناده عن جندب بن عبد الله: إن النبي بعث رهطا وبعث عليهم عبد الله بن جحش فلقوا ابن الحضرمي فقتلوه، ولم يدروا أن ذلك من رجب أومن جمادى فقال المشركون للمسلمين: قتلتم في الشهر الحرام فأنزل الله عز وجل: (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير) الآية) وروى السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود في هذه الآية، فذكروا هذه القصة مبسوطة، وقالوا فيها: فقال المشركون: يزعم محمد أنه يتبع طاعة الله وهو أول من استحل الشهر الحرام ؟ فقال المسلمون: إنما قتلناه في جمادى. وقيل في أول رجب وآخر ليلة من جمادى وغمد المسلمون سيوفهم حين دخل شهر رجب، وأنزل الله تعالى تعييرا لأهل مكة: (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير) لا يحل وما صنعتم أنتم يا معشر المشركين أكبر من القتل في الشهر الحرام حين كفرتم بالله وصددتم عن محمد وأصحابه، وإخراج أهل المسجد الحرام حين أخرجوا منه محمدا أكبر من القتل عند الله. وقد روي عن ابن عباس هذا المعنى من رواية العوفي عنه، ومن رواية أبي سعد البقال عن عكرمة عنه ومن رواية الكلبي عن أبي صالح عنه وذكر ابن إسحاق أن ذلك كان في آخر يوم من رجب، وأنهم خافوا إن أخروا القتال أن يسبقهم المشركون فيدخلوا الحرم فيأمنوا، وإنهم لما قدموا على النبي ا–قال لهم: (ما أمرتكم في الشهر الحرم ولم يأخذ من غنيمتهم شيئا) وقالت قريش: قد استحل محمد

وأصحابه الشهر الحرام، فقال من بمكة من المسلمين: إنما قتلوهم في شعبان فلما أكثر الناس في ذلك نزل قوله تعالى: (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه) الآية. وروي نحو هذا السياق عن عروة والزهري وغيرهما، وقيل بأنها كانت أول غنيمة غنمها المسلمون، وقال عبد الله بن جحش في ذلك وقيل: إنها لأبي بكر الصديق رضي الله عنه.

تعدون قتلا في ... وأعظم منه لو يرى
صددوكم عما يقول ... وكفر به والله راء
وإخراجكم من ... لئلا يرى لله في

وقد اختلف العلماء في حكم القتال في الأشهر الحرم هل تحريمه باق أو نسخ، فالجمهور: على أنه نسخ تحريمه، ونص على نسخه الإمام أحمد وغيره من الأئمة. وذهبت طائفة من السلف: منهم عطاء: إلى بقاء تحريمه ورجحه بعض المتأخرين واستدلوا بآية المائدة والمائدة من آخر ما نزل من القرآن وقد روي: (أحلوا حلالها وحرموا حرامها) وقيل ليس فيها منسوخ وفي المسند: (أن عائشة رضي الله عنه قالت: هي آخر سورة نزلت فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه وما وجدتم فيها حرام فحرموه) وروى الإمام أحمد في مسنده (حدثنا إسحاق بن عيسى حدثنا ليث بن سعد عن أبي الزبير عن جابر قال: (لم يكن رسول الله يغزو في الشهر الحرام إلا أن يغزى ويغزو فإذا حضره أقام حتى ينسلخ) وذكر بعضهم أن النبي حاصر الطائف في شوال فلما دخل ذو القعدة لم يقاتل بل صابرهم ثم رجع، وكذلك في عمرة الحديبية لم يقاتل حتى بلغه أن عثمان قتل، فبايع على القتال، ثم لما بلغه أن ذلك لا حقيقة له كف. واستدل الجمهور بأن الصحابة اشتغلوا بعد النبي بفتح البلاد ومواصلة القتال والجهاد، ولم ينقل عن أحد منهم أنه توقف عن القتال وهو طالب له في شيء من الأشهر الحرم، وهذا يدل على إجماعهم على نسخ ذلك والله علم.

ومن عجائب الأشهر الحرم ما روي عن عبد الله بن

عمرو بن العاص: إنه ذكر عجائب الدنيا، فعد منها بأرض عاد عمود نحاس عليه شجرة من نحاس، فإذا كان في الأشهر الحرم قطر منها الماء، فملؤوا منه حياضهم، وسقوا مواشيهم وزروعهم، فإذا ذهب الأشهر الحرم انقطع الماء.

وقوله : (ورجب مضر) سمي رجب رجبا، لأنه كان يرجّب: أي يعظّم ،كذا قال الأصمعي والمفضل والفراء. وقيل: لأن الملائكة تترجّب للتسبيح والتحميد فيه، وفي ذلك حديث مرفوع إلا أنه موضوع. وأما إضافته إلى مضر فقيل: لأن مضر كانت تزيد في تعظيمه واحترامه فنسب إليهم لذلك. وقيل: بل كانت ربيعة تحرم رمضان وتحرم مضر رجبا، فلذلك سماه رجب مضر رجبا، فلذلك سماه رجب مضر، وحقق ذلك بقوله الذي بين جمادى وشعبان، وذكر بعضهم أن لشهر رجب أربعة عشر اسما: شهر الله، ورجب، ورجب مضر، ومنصل الأسنة، والأصم، والأصب، ومنفس، ومطهر، ومعلي، ومقيم، وهرم، ومقشقش، ومبريء و وفرد. وذكر غيره: أن له سبعة عشر اسما فزاد: رجم بالميم، ومنصل الألّة، وهي الحربة ومنزع الأسنة.

ذكر ما يتعلق برجب من أحكام

ويتعلق بشهر رجب أحكام كثيرة، فمنها ما كان في الجاهلية، واختلف العلماء في استمراره في الإسلام كالقتال، وقد سبق ذكره، وكالذبائح فإنهم كانوا في الجاهلية يذبحون ذبيحة يسمونها العتيرة، واختلف العلماء في حكمها في الإسلام، فالأكثرون على أن الإسلام أبطلها.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي قال: (لا فرع ولا عتيرة) ومنهم من قال: بل هي مستحبة منهم ابن سيرين، وحكاه الإمام أحمد عن أهل البصرة، ورجحه طائفة من أهل الحديث المتأخرين، ونقل حنبل عن أحمد نحوه.

وفي سنن أبي داود والنسائي وابن ماجة عن مخنف بن سليم الغامدي أن النبي قال بعرفة: (إن على كل أهل بيت في كل عام أضحية أو عتيرة) وهي

التي يسمونها الرجبية. وفي النسائي عن نبيشة أنهم قالوا: يا رسول الله إنا كنا نعتر في الجاهلية، يعني في رجب ؟ قال: (اذبحوا لله في أي شهر كان، وبروا لله وأطعموا) وروى الحارث بن عمرو: (أن النبي سئل عن الفرع والعتائر ؟ فقال: (من شاء فرع ومن شاء لم يفرع، ومن شاء عتر ومن شاء لم يعتر) وفي حديث آخر قال: (العتيرة حق). وفي النسائي عن أبي رزين قال: قلت يا رسول الله! كنا نذبح ذبائح في الجاهلية يعني في رجب فنأكل ونطعم من جاءنا ؟ فقال رسول الله : (لا بأس به).

وخرج الطبراني بإسناده عن ابن عباس قال: استأذنت قريش رسول الله في العتيرة ؟ فقال: اعتر كعتر الجاهلية، ولكن من أحب منكم أن يذبح لله فيأكل ويتصدق فليفعل) وهؤلاء جمعوا بين هذه الأحاديث وبين حديث: (لا فرع ولا عتيرة) بأن المنهي عنه هو ما كان يفعله أهل الجاهلية من الذبح لغير الله، وحمله سفيان بن عيينة على أن المراد به نفي الوجوب ومن العلماء من قال: حديث أبي هريرة أصح من هذه الأحاديث وأثبت فيكون العمل عليها دونها وهذه طريقة الإمام أحمد وروى مبارك بن فضالة عن الحسن قال: ليس في الإسلام عتيرة إنما كانت العتيرة في الجاهلية كان أحدهم يصوم رجب ويعتر فيه ويشبه الذبح في رجب اتخاذه موسما وعيدا كأكل الحلوى ونحوها وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يكره أن يتخذ رجب عيدا وروى عبد الرزاق عن ابن جريج عن عطاء قال: كان النبي ينهى عن صيام رجب كله لئلا يتخذ عيدا) وعن معمر عن ابن طاوس عن أبيه قال: قال رسول الله : لا تتخذوا شهرا عيدا ولا يوما عيدا) وأصل هذا: أنه لا يشرع أن يتخذ المسلمون عيدا إلا ما جاءت الشريعة باتخاذه عيدا وهويوم الفطر ويوم الأضحى وأيام التشريق وهي أعياد العام ويوم الجمعة وهوعيد الأسبوع وما عدا ذلك فاتخاذه عيدا وموسما بدعة لا أصل له في الشريعة

ومن أحكام رجب ما ورد فيه من الصلاة والزكاة والصيام والإعتمار فأما الصلاة فلم يصح في شهر رجب صلاة مخصوصة تختص به والأحاديث المروية في فضل صلاة الرغائب في أول ليلة جمعة من شهر رجب كذب وباطل لا تصح وهذه الصلاة بدعة عند جمهور العلماء ومن ذكر ذلك من أعيان العلماء المتأخرين من الحفاظ أبوإسماعيل الأنصاري وأبوبكر بن السمعاني وأبوالفضل بن ناصر وأبوالفرج بن الجوزي وغيرهم إنما لم يذكرها المتقدمون لأنها أحدثت بعدهم وأول ما ظهرت بعد الأربعمائة فلذلك لم يعرفها المتقدمون ولم يتكلموا فيها وأما الصيام فلم يصح في فضل صوم رجب بخصوصه شيء عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه ولكن روي عن أبي قلابة قال: في الجنة قصر لصوام رجب قال البيهقي: أبوقلابة من كبار التابعين لا يقول مثله إلا عن بلاغ وإنما ورد في صيام الأشهر الحرم كلها (حديث مجيبة الباهلية عن أبيها أوعمها: أن النبي ﷺ قال له: صم من الحرم واترك قالها ثلاثا) خرجه أبوداود وغيره وخرجه ابن ماجة وعنده: (صم أشهر الحرم) وقد كان بعض السلف يصوم الأشهر الحرم كلها منهم ابن عمر والحسن البصري وأبوإسحاق السبيعي وقال الثوري: الأشهر الحرم أحب إلي أن أصوم فيها وجاء في حديث خرجه ابن ماجة (أن أسامة بن زيد كان يصوم الأشهر الحرم فقال له رسول الله ﷺ: صم شوالا) فترك أشهر الحرم وصام شوالا حتى مات وفي إسناده انقطاع وخرج ابن ماجة أيضا بإسناد فيه ضعف عن ابن عباس: أن النبي ﷺ نهى عن صيام رجب) والصحيح وقفه على ابن عباس ورواه عطاء عن النبي ﷺ مرسلا وقد سبق لفظه وروى عبد الرزاق في كتابه عن داود بن قيس عن زيد بن أسلم: ذكر لرسول الله ﷺ قوم يصومون رجبا فقال: أين هم من شعبان) وروى أزهر بن سعيد الجمحي عن أمه أنها سألت عائشة عن صوم رجب فقالت: إن كنت صائمة فعليك بشعبان

وروي مرفوعا ووقفه أصح وروي عن عمر رضي الله عنه: أنه كان يضرب أكف الرجال في صوم رجب حتى يضعوها في الطعام ويقول: ما رجب ؟ إن رجبا كان يعظمه أهل الجاهلية فلما كان الإسلام ترك وفي رواية كره أن يكون صيامه سنة وعن أبي بكرة: أنه رأى أهله يتهيأوون لصيام رجب فقال لهم أجعلتم رجب كرمضان، وألقى السلال وكسر الكيزان.

وعن ابن عباس: أنه كره أن يصام رجب كله، وعن ابن عمر وابن عباس أنهما كانا يريان أن يفطر منه أياما، وكرهه أنس أيضا وسعيد بن جبير، وكره صيام رجب كله يحيى بن سعيد الأنصاري والإمام أحمد، وقال: يفطر منه يوما أو يومين. وحكاه عن ابن عمر وابن عباس. وقال الشافعي في القديم: أكره أن يتخذ الرجل صوم شهر يكمله كما يكمل رمضان، واحتج بحديث عائشة: (ما رأيت رسول الله ﷺ استكمل شهرا قط إلا رمضان) قال: وكذلك يوما من بين الأيام. وقال: إنما كرهته أن لا يتأسى رجل جاهل فيظن أن ذلك واجب، وإن فعل فحسن، وتزول كراهة إفراد رجب بالصوم بأن يصوم معه شهرا آخر تطوعا عند بعض أصحابنا، مثل أن يصوم الأشهر الحرم أو يصوم رجب وشعبان، وقد تقدم عن ابن عمر وغيره صيام الأشهر الحرم والمنصوص عن أحمد أنه لا يصومه بتمامه إلا من صام الدهر وروي عن ابن عمر ما يدل عليه فإنه بلغه أن قوما أنكروا عليه أنه حرم صوم رجب فقال: كيف بمن يصوم الدهر وهذا يدل على: أنه لا يصام رجب إلا مع صوم الدهر وروى يوسف بن عطية عن هشام بن حسان عن ابن سيرين عن عائشة: أن النبي ﷺ لم يصم بعد رمضان إلا رجبا وشعبان)

ويوسف ضعيف جدا وروى أبويوسف القاضي عن ابن أبي ليلى عن أخيه عيسى عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن عائشة: أن النبي ﷺ كان يصوم من كل شهر ثلاثة أيام وربما أخر ذلك حتى يقضيه في رجب وشعبان) ورواه عمروبن أبي قيس عن ابن أبي ليلى فلم يذكر فيه رجبا وهوأصح

وأما الزكاة فقد اعتاد أهل هذه البلاد إخراج الزكاة في شهر رجب ولا أصل لذلك في السنة ولا عرف عن أحد من السلف ولكن روي عن عثمان أنه خطب الناس على المنبر فقال: إن هذا شهر زكاتكم فمن كان عليه دين فليؤد دينه وليزك ما بقي خرجه مالك في الموطأ. وقد قيل: إن ذلك الشهر الذي كانوا يخرجون فيه زكاتهم نسي ولم يعرف. وقيل: بل كان شهر المحرم لأنه رأس الحول، وقد ذكر الفقهاء من أصحابنا وغيرهم أن الإمام يبعث سعاته لأخذ الزكاة في المحرم، وقيل بل كان شهر رمضان لفضله وفضل الصدقة فيه. وبكل حال فإنما تجب الزكاة إذا تم الحول على النصاب، فكل أحد له حول يخصه بحسب وقت ملكه للنصاب، فإذا تم حوله وجب عليه إخراج زكاته في أي شهر كان، فإن عجل زكاته قبل الحول أجزأه عند جمهور العلماء، وسواء كان تعجيله لاغتنام زمان فاضل، أو لاغتنام الصدقة على من لا يجد مثله في الحاجة، أو كان لمشقة إخراج الزكاة عليه عند تمام الحول جملة، فيكون التفريق في طول الحول أرفق به، وقد صرح مجاهد بجواز التعجيل على هذا الوجه، وهو مقتضى إطلاق الأكثرين. وخالف في هذه الصورة إسحاق، نقله عنه ابن منصور. وأما إذا حال الحول فليس له التأخير بعد ذلك عند الأكثرين. وعن أحمد يجوز تأخيرها لانتظار قوم لا يجد مثلهم في الحاجة، وأجاز مالك وأحمد في رواية نقلها إلى بلد فاضل. فعلى قياس هذا لا يبعد جواز تأخيرها إلى زمان فاضل لا يوجد مثله كرمضان ونحوه. وروى يزيد الرقاشي عن أنس: أن المسلمين كانوا يخرجون زكاتهم في شعبان تقوية على الاستعداد لرمضان. وفي الإسناد ضعف.

وأما الاعتمار في رجب فقد روى ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ اعتمر في رجب، فأنكرت ذلك عائشة عليه وهو يسمع فسكت. واستحب الاعتمار في رجب عمر بن الخطاب وغيره، وكانت عائشة تفعله وابن عمر أيضا. ونقل ابن سيرين عن السلف أنهم كانوا يفعلونه، فإن أفضل الانساك أن يؤتى بالحج في سفرة والعمرة في سفرة أخرى في غير

أشهر الحج، وذلك جملة إتمام الحج والعمرة المأمور به، كذلك قاله جمهور الصحابة: كعمر وعثمان وعلي وغيرهم.

وقد روي: أنه في شهر رجب حوادث عظيمة، ولم يصح شيء من ذلك. فروي: أن النبي ﷺ ولد في أول ليلة منه، وأنه بعث في السابع والعشرين منه، وقيل: في الخامس والعشرين، ولا يصح شيء من ذلك. وروى بإسناد لا يصح عن القاسم بن محمد: أن الإسراء بالنبي ﷺ كان في سابع وعشرين من رجب، وأنكر ذلك إبراهيم الحربي وغيره. وروي عن قيس بن عباد قال: في اليوم العاشر من رجب: (يمحو الله ما يشاء ويثبت). وكان أهل الجاهلية يتحرون الدعاء فيه على الظالم، وكان يستجاب لهم، ولهم في ذلك أخبار مشهورة قد ذكرها ابن أبي الدنيا في كتاب (مجاب الدعوة) وغيره. وقد ذكر ذلك لعمر بن الخطاب فقال عمر: إن الله كان يصنع بهم ذلك ليحجز بعضهم عن بعض، وإن الله جعل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر. وروى زائدة بن أبي الرقاد عن زياد التميمي، عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ إذا دخل رجب قال:(اللهم بارك لنا في رجب وشعبان، وبلغنا رمضان). وروي عن أبي إسماعيل الأنصاري أنه قال: لم يصح في فضل رجب غير هذا الحديث، وفي قوله نظر. فإن هذا الإسناد فيه ضعف، وفي هذا الحديث دليل على استحباب الدعاء بالبقاء إلى الأزمان الفاضلة لإدراك الأعمال الصالحة فيها، فإن المؤمن لا يزيده عمره إلا خيرا، وخير الناس من طال عمره، وحسن عمله، وكان السلف يستحبون أن يموتوا عقب عمل صالح من صوم رمضان أو رجوع من حج. وكان يقال: من مات كذلك غفر له كان بعض العلماء الصالحين قد مرض قبل شهر رجب فقال: إني دعوت الله أن يؤخر وفاتي إلى شهر رجب، فإنه بلغني أن لله فيه عتقاء فبلغه الله ذلك ومات في شهر رجب.

شهر رجب مفتاح أشهر الخير والبركة، قال أبوبكر الوراق البلخي: شهر رجب شهر للزرع،

وشعبان شهر السقي للزرع، ورمضان شهر حصاد الزرع. وعنه قال: مثل شهر رجب مثل الريح، ومثل شعبان مثل الغيم، ومثل رمضان مثل القطر. وقال بعضهم: السنة مثل الشجرة، وشهر رجب أيام توريقها، وشعبان أيام تفريعها، ورمضان أيام قطفها، والمؤمنون قطافها، جدير بمن سوّد صحيفته بالذنوب أن يبيضها بالتوبة في هذا الشهر، وبمن ضيّع عمره في البطالة أن يغتنم فيه ما بقي من العمر.

بيض صحيفتك ... بصالح العمل
شهر حرام أتي من ... إذا دعا الله داعٍ فيه
طوبى لعبد زكى ... فكف فيه عن

انتهاز الفرصة بالعمل في هذا الشهر غنيمة واغتنام أوقاته بالطاعات له فضيلة عظيمة

يا عبد أقبل منيبا ... فإن عفوي عمن
في هذه الأشهر ... للتائبين فكل نحونا
حطوا الركائب في ... بحسن ظن فكل نال
وقد نثرنا عليهم ... نثار حسن قبول فاز

وظائف شهر شعبان

ويشتمل على مجالس ـ المجلس الأول في صيامه

خرج الإمام أحمد والنسائي من حديث أسامة بن زيد قال: كان رسول الله يصوم الأيام يسرد حتى نقول لا يفطر، ويفطر الأيام حتى لا يكاد يصوم إلا يومين من الجمعة إن كانا في صيامه، وإلا صامهما، ولم يكن يصوم من الشهور ما يصوم من شعبان. فقلت: يا رسول الله! إنك تصوم حتى لا تكاد تفطر، وتفطر حتى لا تكاد تصوم إلا يومين إن دخلا في صيامك وإلا صمتهما ؟ قال: أي يومين؟ قلت: يوم الاثنين ويوم الخميس. قال: ذانك يومان تعرض فيهما الأعمال على رب العالمين، وأحب أن يعرض عملي وأنا صائم. قلت: ولم أرك تصوم من الشهور ما تصوم من شعبان ؟ قال: ذاك شهر يغفل الناس عنه بين رجب ورمضان، وهو شهر ترفع الأعمال فيه إلى رب العالمين عز وجل، فأحب أن يرفع عملي وأنا

صائم) قد تضمن هذا الحديث ذكر صيام رسول الله من جميع السنة وصيامه من أيام الأسبوع وصيامه من شهور السنة، فأما صيامه من السنة فكان يسرد الصوم أحيانا، والفطر أحيانا فيصوم حتى يقال: لا يفطر ويفطر حتى يقال: لا يصوم.

وقد روي ذلك أيضا عن عائشة وابن عباس وأنس وغيرهم، ففي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله يصوم حتى نقول لا يفطر، ويفطر حتى نقول لا يصوم) وفيهما عن ابن عباس قال: كان رسول الله يصوم إذا صام حتى يقول القائل: لا والله لا يفطر، ويفطر إذا فطر حتى يقول القائل: لا والله لا يصوم). وفيهما عن أنس أنه سئل عن صيام النبي فقال: ما كنت أحب أن أراه من الشهر صائما إلا رأيته، ولا مفطرا إلا رأيته، ولا من الليل قائما إلا رأيته، ولا نائما إلا رأيته). ولمسلم (عنه قال: كان رسول الله يصوم حتى يقال: قد صام قد صام، ويفطر حتى يقال: قد أفطر قد أفطر).

وقد كان رسول الله ينكر على من يسرد صوم الدهر ولا يفطر منه ويخبر عن نفسه: أنه لا يفعل ذلك.

ففي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو: أن النبي قال له: أتصوم النهار وتقوم الليل؟ قال: نعم. فقال النبي : (لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأنام، وأمس النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني)

وفيهما عن أنس: أن نفرا من أصحاب النبي قال بعضهم: لا أتزوج النساء وقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أنام على فراش فبلغ ذلك النبي فخطب وقال: ما بال أقوام يقولون كذا وكذا، لكني أصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني) وخرجه النسائي وزاد فيه: وقال بعضهم: أصوم ولا أفطر.

وفي مسند الإمام أحمد عن رجل من الصحابة قال: ذكر لرسول الله ﷺ مولاة لبني عبد المطلب فقيل: إنها قامت الليل وتصوم النهار. فقال النبي ﷺ: (لكني أنا أنام وأصلي وأصوم وأفطر، فمن اقتدى بي فهو مني، ومن رغب عن سنتي فليس مني، إن لكل عمل شدة وفترة، فمن كانت فترته إلى بدعة فقد ضل، ومن كانت فترته إلى سنة فقد اهتدى).

وفي المسند وسنن أبي داود عن عائشة رضي الله عنها أن عثمان بن مظعون أراد التبتل، فقال له رسول الله ﷺ: (أترغب عن سنتي ؟ قال: لا والله ولكن سنتك أريد. قال: فإني أنام وأصلي وأصوم وأفطر وأنكح النساء، فاتق الله يا عثمان، فإن لأهلك عليك حقا، وإن لضيفك عليك حقا، وإن لنفسك عليك حقا، فصم وأفطر وصل ونم).

وقد قال عكرمة وغيره: إن عثمان بن مظعون وعلي بن أبي طالب والمقداد وسالما مولى أبي حذيفة في جماعة تبتلوا، فجلسوا في البيوت، واعتزلوا النساء، وحرموا طيبات الطعام واللباس إلا ما يأكل ويلبس أهل السياحة من بني إسرائيل وهموا بالاختصاء، وأجمعوا لقيام الليل، وصيام النهار، فنزلت فيهم: (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين).

وفي صحيح البخاري أن سلمان زار أبا الدرداء وكان النبي ﷺ قد آخى بينهما فرأى أم الدرداء متبذّلة فقال: ما شأنك متبذّلة ؟ فقالت: إن أخاك أبا الدرداء لا حاجة له في الدنيا، فلما جاء أبوالدرداء قرّب له طعاما، قال له: كل. فقال إني صائم. فقال: ما أنا بآكل حتى تأكل، فأكل. فلما كان الليل ذهب أبوالدرداء ليقوم، فقال له سلمان: نم. ثم ذهب ليقوم، فقال له: نم. فلما كان من آخر الليل، قال سلمان: قم الآن. فقاما فصليا، فقال سلمان: إن لنفسك عليك حقا، وإن لضيفك عليك حقا، وإن لأهلك عليك حقا، فأعط كل ذي حق حقه. فأتيا النبي ﷺ فذكروا ذلك له. فقال: (صدق سلمان). وفي رواية

في غير الصحيح قال: (ثكلت سلمان أمه، لقد أشبع من العلم) وهكذا قال النبي لعبد الله بن عمرو بن العاص، لما كان يصوم الدهر فنهاه، وأمره أن يصوم صوم داود، يصوم يوما ويفطر يوما، وقال له: لا أفضل من ذلك. وقد ورد النهي عن صيام الدهر والتشديد فيه، وهذا كله يدل على أن أفضل الصيام أن لا يستدام، بل يعاقب بينه وبين الفطر. وهذا هو الصحيح من قولي العلماء. وهو مذهب أحمد وغيره، وقيل لعمر: إن فلانا يصوم الدهر، فجعل يقرع رأسه بقناة معه، ويقول: كل يا دهر كل يا دهر. خرجه عبد الرزاق.

الحكمة في النهي عن صيام الدهر

وقد أشار النبي إلى الحكمة في ذلك من وجوه:

منها: قوله في صيام الدهر: (لا صام ولا أفطر) يعني أنه لا يجد مشقة الصيام، ولا فقد الطعام والشراب والشهوة، لأنه صار الصيام له عادة مألوفة، فربما تضرر بتركه، فإذا صام تارة وأفطر أخرى حصل له بالصيام مقصوده بترك هذه الشهوات وفي نفسه داعية إليها، وذلك أفضل من أن يتركها ونفسه لا تتوق إليها.

ومنها قوله في حق داود عليه السلام: (كان يصوم يوما ويفطر يوما، ولا يفر إذا لاقى) يشير إلى أنه كان لا يضعفه صيامه عن ملاقاة عدوه، ومجاهدته في سبيل الله. ولهذا روي عن النبي أنه قال لأصحابه يوم الفتح وكان في رمضان: (إن هذا يوم قتال فافطروا) وكان عمر إذا بعث سرية قال لهم: لا تصوموا فإن التقوى على الجهاد أفضل من الصوم.

فأفضل الصيام أن لا يضعف البدن حتى يعجز عما هو أفضل منه من القيام بحقوق الله تعالى أو حقوق عباده اللازمة، فإن أضعف عن شيء من ذلك مما هو أفضل منه كان تركه أفضل.

فالأول: مثل أن يضعف الصيام عن الصلاة أو عن الذكر أو عن العلم كما قيل في النهي عن صيام الجمعة، ويوم عرفة بعرفة أنه يضعف عن الذكر

والدعاء في هذين اليومين. وكان ابن مسعود يقل الصوم ويقول: إنه يمنعني من قراءة القرآن، وقراءة القرآن أحب إليّ، فقراءة القرآن أفضل من الصيام. نص عليه سفيان الثوري وغيره من الأئمة. وكذلك تعلم العلم النافع وتعليمه أفضل من الصيام. وقد نص الأئمة الأربعة على أن طلب العلم أفضل من صلاة النافلة، والصلاة أفضل من الصيام المتطوع به، فيكون العلم أفضل من الصيام بطريق الأولى. فإن العلم مصباح يستضاء به في ظلمة الجهل والهوى، فمن سار في طريق على غير مصباح لم يأمن أن يقع في بئر بوار فيعطب. قال ابن سيرين: إن قوما تركوا العلم واتخذوا محاريب فصلوا وصاموا بغير علم، والله ما عمل أحد بغير علم إلا كان ما يفسد أكثر مما يصلح.

والثاني: مثل أن يضعف الصيام عن الكسب للعيال، أو القيام بحقوق الزوجات، فيكون تركه أفضل، وإليه الإشارة بقوله : (إن لأهلك عليك حقا).

ومنها: ما أشار إليه بقوله: (إن لنفسك عليك حقا فأعط كل ذي حق حقه) يشير إلى أن النفس وديعة لله عند ابن آدم، وهو مأمور أن يقوم بحقها، ومن حقها اللطف بها حتى توصل صاحبها إلى المنزل. قال الحسن: نفوسكم مطاياكم إلى ربكم فأصلحوا مطاياكم توصلكم إلى ربكم، فمن وفى نفسه حظها من المباح بنية التقوى به على تقويتها على أعمال الطاعات كان مأجورا في ذلك، كما قال معاذ بن جبل: إني أحتسب نومتي كما أحتسب قومتي. ومن قصّر في حقها حتى ضعفت وتضررت كان ظالما، وإلى هذا أشار النبي بقوله لعبد الله بن عمرو بن العاص: (إنك إذا فعلت ذلك نفهت له النفس وهجمت له العين) ومعنى نفهت: كلّت وأعيت. ومعنى هجمت العين: غارت. وقال لأعرابي جاءه فأسلم، ثم أتاه من عام قابل، وقد تغيّر فلم يعرفه، فلما عرفه سأله عن حاله ؟ قال: (ما أكلت بعدك طعاما بنهار فقال النبي : ومن أمرك أن

تعذب نفسك ؟ !) فمن عذّب نفسه بأن حملها ما لا تطيقه من الصيام ونحوه فربما أثّر ذلك في ضعف بدنه وعقله، فيفوته من الطاعات الفاضلة أكثر مما حصّله بتعذيبه نفسه بالصيام.

وكان النبي يتوسط في إعطاء نفسه حقها ويعدل فيها غاية العدل، فيصوم ويفطر، ويقوم وينام، وينكح النساء، ويأكل ما يجد من الطيبات كالحلواء والعسل ولحم الدجاج، وتارة يجوع يربط على بطنه الحجر، وقال: (عرض عليّ ربي أن يجعل لي بطحاء مكة ذهبا فقلت: لا يا ربّ ولكن أجوع يوما وأشبع يوما فإذا جعت تضرّعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك) فاختار لنفسه أفضل الأحوال ليجمع بين مقامي الشكر والصبر والرضا.

ومنها: ما أشار إليه بقوله لعبد الله بن عمر: (ولعله أن يطول بك حياة) يعني: أن من تكلف الاجتهاد في العبادة، فقد تحمله قوة الشباب ما دامت باقية، فإذا ذهب الشباب وجاء المشيب والكبر عجز عن حمل ذلك، فإن صابره وجاهد واستمر فربما هلك بدنه، وإن قطع فقد فاته أحبّ الأعمال إلى الله تعالى وهو المداومة على العمل. ولهذا قال النبي : (اكلفوا من العمل ما تطيقون، فوالله لا يمل الله حتى تملوا) وقال : (أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل).

فمن عمل عملا يقوى عليه بدنه في طول عمره في قوته وضعفه استقام سيره، ومن حمل ما لا يطيق فإنه قد يحدث له مرض يمنعه من العمل بالكلية، وقد يسأم ويضجر فيقطع العمل فيصير كالمنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى، وأما صيام النبي من الأيام أعني أيام الأسبوع فكان يتحرى صيام الاثنين والخميس، وكذا روي عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي كان يتحرى صيام الاثنين والخميس) خرجه الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه والترمذي وحسنه. وخرج ابن ماجه من حديث أبي

هريرة قال: (كان النبي يصوم الاثنين والخميس فقيل له: يا رسول الله إنك تصوم الاثنين والخميس ؟ فقال: إن يوم الاثنين والخميس يغفر الله فيهما لكل مسلم إلا مهتجرين فيقول: دعوهما حتى يصطلحا) وخرجه الإمام أحمد، وعنده: (أن رسول الله كان أكثر ما يصوم الاثنين والخميس فقيل له ؟: قال: إن الأعمال تعرض كل اثنين وخميس فيغفر لكل مسلم أو لكل مؤمن إلا المتهاجرين فيقول: أخرهما) وخرجه الترمذي ولفظه قال: (تعرض الأعمال يوم الاثنين ويوم الخميس فأحب أن يعرض عملي وأنا صائم). وروي موقوفا على أبي هريرة ورجح بعضهم وقفه وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة مرفوعا: (تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين ويوم الخميس فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئا إلا رجل كانت بينه وبين أخيه شحناء يقول: انظروا هذين حتى يصطلحا). ويروى بإسناد فيه ضعف عن أبي أمامة مرفوعا ترفع الأعمال يوم الاثنين ويوم الخميس فيغفر للمستغفرين ويترك أهل الحقد بحقدهم) وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله عز وجل: (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) قال: يكتب كل ما تكلم به من خير وشر حتى أنه ليكتب قوله: أكلت وشربت وذهبت وجئت ورأيت حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله فأقر منه ما كان فيه من خير أوشر وألقى سائره فذلك قوله تعالى: (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) خرجه ابن أبي حاتم وغيره.

فهذا يدل على اختصاص يوم الخميس بعرض الأعمال لا يوجد في غيره، وكان إبراهيم النخعي يبكي إلى امرأته يوم الخميس وتبكي إليه، ويقول: اليوم تعرض أعمالنا على الله عز وجل. فهذا عرض خاص في هذين اليومين غير العرض العام كل يوم، فإن ذلك عرض دائم بكرة وعشيا، ويدل على ذلك ما في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي قال: (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، فيجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، فيسأل

الذين باتوا فيكم وهو أعلم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون) وفي صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعري قال: قام فينا رسول الله بخمس كلمات فقال: (إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع الله عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه) ويروى عن ابن مسعود قال: إن مقدار كل يوم من أيامكم عند ربكم اثنتا عشرة ساعة، فتعرض عليه أعمالكم بالأمس أول النهار اليوم، فينظر فيها ثلاث ساعات. وذكر باقيه. كان الضحاك يبكي آخر النهار ويقول: لا أدري ما رفع من عملي؟.

يا من عمله معروض على من يعلم السر وأخفى لا تبهرج فإن الناقد بصير.

السقم على ... والعمر ينقص
ما أبعد شقتي ... ما أكثر بهرجي

وحديث أسامة فيه: (أن النبي كان إذا سرد الفطر يصوم الاثنين والخميس) فدل على مواظبة النبي على صيامهما، وقد كان أسامة يصومهما حضرا وسفرا لهذا.

وفي مسند الإمام أحمد وسنن النسائي عن عبد الله بن عمرو أن النبي أمره أن يصوم ثلاثة أيام من كل شهر، فقال له: إني أقوى على أكثر من ذلك، قال: (فصم من الجمعة يوم الاثنين والخميس) قال: إني أقوى على أكثر من ذلك قال: (فصم صيام داود).

وفي مسند الإمام أحمد من رواية عثمان بن رشيد حدثني أنس بن سيرين قال: أتينا أنس بن مالك في يوم خميس فدعا بمائدة فدعاهم إلى الغداء، فتغذى بعض القوم وأمسك بعض، ثم أتوه يوم الخميس ففعل مثلها فقال أنس: لعلكم أثنائيون لعلكم خميسيون كان رسول الله يصوم حتى يقال: لا يفطر، ويفطر حتى يقال: لا يصوم.

وظاهر هذا الحديث يخالف حديث أسامة وأن النبي

 إنما كان يصوم الاثنين والخميس إذا دخلا في صيامه، ولم يكن يتحرى صيامهما في أيام سرد فطره، ولكن عثمان بن رشيد ضعيف ضعفه ابن معين وغيره. وحديث أسامة أصح منه وقد روي من حديث أم سلمة أن النبي كان يصوم من كل شهر ثلاثة أيام، أول خميس والاثنين والاثنين) وفي رواية بالعكس الاثنين والخميس والخميس. وأكثر العلماء على استحباب صيام الاثنين والخميس، وروي كراهته عن أنس بن مالك من غير وجه عنه وكان مجاهد يفعله ثم يتركه وكرهه. وكره أبو جعفر محمد بن علي صيام الاثنين، وكرهت طائفة صيام يوم معين كلما مر بالإنسان.

روي عن عمران بن حصين، وابن عباس والشعبي والنخعي، ونقله ابن القاسم عن مالك، وقال الشافعي في القديم أكره ذلك. قال: وإنما كرهته لئلا يتأسى جاهل فيظن أن ذلك واجب قال: فإن فعل فحسن. يعني على غير اعتقاد الوجوب.

وأما صيام النبي من أشهر السنة فكان يصوم من شعبان ما لا يصوم من غيره من الشهور. وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: (ما رأيت رسول الله استكمل صيام شهر قط إلا رمضان، وما رأيته في شهر أكثر صياما منه في شعبان) زاد البخاري في رواية: (كان يصوم شعبان كله) ولمسلم في رواية: (كان يصوم شعبان كله، كان يصوم شعبان إلا قليلا). وفي رواية النسائي عن عائشة قالت: (كان أحب الشهور إلى رسول الله أن يصوم شعبان كان يصله برمضان).

وعنها وعن أم سلمة قالتا: (كان رسول الله يصوم شعبان إلا قليلا، بل كان يصومه كله) وعن أم سلمة قالت: (ما رأيت رسول الله يصوم شهرين متتابعين إلا شعبان ورمضان) وقد رجح طائفة من العلماء منهم ابن المبارك وغيره: أن النبي لم يستكمل صيام شعبان وإنما كان يصوم أكثره، ويشهد

له ما في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما علمته تعني النبي صام شهرا كله إلا رمضان) وفي رواية له أيضا عنها قالت: (ما رأيته صام شهرا كاملا منذ قدم المدينة إلا أن يكون رمضان). وفي رواية له أيضا: أنها قالت: (لا أعلم نبي الله قرأ القرآن كله في ليلة ولا صام شهرا كاملا غير رمضان) وفي رواية له أيضا قالت: (ما رأيته قام ليلة حتى الصباح ولا صام شهرا متتابعا إلا رمضان) وفي الصحيحين عن ابن عباس قال: ما صام رسول الله شهرا كاملا غير رمضان) وكان ابن عباس يكره أن يصوم شهرا كاملا غير رمضان. وروى عبد الرزاق في كتابه عن ابن جريج عن عطاء قال: كان ابن عباس ينهى عن صيام الشهر كاملا ويقول: ليصمه إلا أياما. وكان ينهي عن إفراد اليوم كلما مر به وعن صيام الأيام المعلومة، وكان يقول: لا تصم أياما معلومة.

فإن قيل: فكيف كان النبي يخص شعبان بصيام التطوع فيه مع أنه قال: (أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم) ؟. فالجواب: أن جماعة من الناس أجابوا عن ذلك بأجوبة غير قوية لاعتقادهم أن صيام المحرم والأشهر الحرم أفضل من شعبان، كما صرح به الشافعية وغيرهم. والأظهر خلاف ذلك وأن صيام شعبان أفضل من صيام الأشهر الحرم. ويدل على ذلك ما خرجه الترمذي من حديث أنس سئل النبي : أي الصيام أفضل بعد رمضان ؟ قال: (شعبان تعظيما لرمضان) وفي إسناده مقال. وفي سنن ابن ماجة: (أن أسامة كان يصوم الأشهر الحرم فقال له رسول الله : (صم شوالا) فترك الأشهر الحرم فكان يصوم شوالا حتى مات. وفي إسناده إرسال، وقد روي من وجه آخر يعضده. فهذا نص في تفضيل صيام شوال على صيام الأشهر الحرم، وإنما كان كذلك لأنه يلي رمضان من بعده، كما أن شعبان يليه من قبله، وشعبان أفضل لصيام

النبي له دون شوال. فإذا كان صيام شوال أفضل من الأشهر الحرم، فلأن يكون صوم شعبان أفضل بطريق الأولى.

فظهر بهذا أفضل التطوع ما كان قريبا من رمضان قبله وبعده، وذلك يلتحق بصيام رمضان لقربه منه، وتكون منزلته من الصيام بمنزلة السنن الرواتب مع الفرائض قبلها وبعدها، فيلتحق بالفرائض في الفضل وهي تكملة لنقص الفرائض، وكذلك صيام ما قبل رمضان وبعده. فكما أن السنن الرواتب أفضل من التطوع المطلق بالصلاة، فكذلك صيام ما قبل رمضان وبعده أفضل من صيام ما بعد منه، ويكون قوله : (أفضل الصيام بعد رمضان المحرم) محمولا على التطوع المطلق بالصيام. فأما ما قبل رمضان وبعده فإنه يلتحق في الفضل كما أن قوله في تمام الحديث (وأفضل الصلاة بعد المكتوبة: قيام الليل) إنما أريد به تفضيل قيام الليل على التطوع المطلق دون السنن الرواتب عند جمهور العلماء خلافا لبعض الشافعية. والله أعلم.

فإن قيل: فقد قال النبي : (أفضل الصيام صيام داود كان يصوم يوما ويفطر يوما) ولم يصم كذلك بل كان يصوم سردا ويفطر سردا ويصوم شعبان وكل اثنين وخميس ؟ قيل: صيام داود الذي فضله النبي على الصيام، قد فسره النبي في حديث آخر، بأنه صوم شطر الدهر وكان صيام النبي إذا جمع يبلغ نصف الدهر أو يزيد عليه. وقد كان يصوم مع ما سبق ذكره يوم عاشوراء أو تسع ذي الحجة. وإنما كان يفرق صيامه ولا يصوم يوما ويفطر يوما لأنه كان يتحرى صيام الأوقات الفاضلة. ولا يضر تفريق الصيام والفطر أكثر من يوم. ويوم إذا كان القصد به التقوى على ما هو أفضل من الصيام من أداء الرسالة وتبليغها والجهاد عليها والقيام بحقوقها. فكان صيام يوم وفطر يوم يضعفه عن ذلك، ولهذا سئل النبي في حديث أبي قتادة عمن يصوم يوما

ويفطر يومين ؟ قال: (وددت أني طوقت ذلك) وقد كان عبد الله بن عمرو بن العاص لما كبر يسرد الفطر أحيانا ليتقوى به على الصيام، ثم يعود فيصوم ما فاته محافظة على ما فارق عليه النبي من صيام شطر الدهر، فحصل للنبي أجر صيام شطر الدهر وأزيد منه بصيامه المتفرق، وحصل له أجر تتابع الصيام بتمنيه لذلك، وإنما عاقه عنه الاشتغال بما هو أهم منه وأفضل. والله أعلم.

وقد ظهر بما ذكرناه وجه صيام النبي لشعبان دون غيره من الشهور. وفيه معان أخر: وقد ذكر منها النبي في حديث أسامة معنيين:

أحدهما: أنه شهر يغفل الناس عنه بين رجب ورمضان، يشير إلى أنه لما اكتنفه شهران عظيمان الشهر الحرام وشهر الصيام اشتغل الناس بهما عنه، فصار مغفولا عنه. وكثير من الناس يظن أن صيام رجب أفضل من صيامه لأنه شهر حرام، وليس كذلك. وروى ابن وهب قال: حدثنا معاوية بن صالح عن أزهر بن سعد عن أبيه عن عائشة قالت: ذكر لرسول الله ناس يصومون رجبا ؟ فقال: (فأين هم عن شعبان) وفي قوله: (يغفل الناس عنه بين رجب ورمضان) إشارة إلى أن بعض ما يشتهر فضله من الأزمان أو الأماكن أو الأشخاص قد يكون غيره أفضل منه، إما مطلقا أو لخصوصية فيه لا يتفطن لها أكثر الناس فيشتغلون بالمشهور عنه، ويفوتون تحصيل فضيلة ما ليس بمشهور عندهم،

وفيه: دليل على استحباب عمارة أوقات غفلة الناس بالطاعة، وأن ذلك محبوب لله عز وجل، كما كان طائفة من السلف، يستحبون إحياء ما بين العشاءين بالصلاة ويقولون: هي ساعة غفلة، ولذلك فضل القيام في وسط الليل المشمول الغفلة لأكثر الناس فيه عن الذكر، وقد قال النبي : (إن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في تلك الليلة فكن) ولهذا المعنى كان النبي يريد أن يؤخر العشاء إلى نصف الليل، وإنما علل ترك ذلك لخشية المشقة

على الناس، ولما خرج على أصحابه وهم ينتظرونه لصلاة العشاء قال لهم: (ما ينتظرها أحد من أهل الأرض غيركم) وفي هذا إشارة إلى فضيلة التفرد بذكر الله في وقت من الأوقات لا يوجد فيه ذاكر له، ولهذا ورد في فضل الذكر في الأسواق ما ورد من الحديث المرفوع والآثار الموقوفة حتى قال أبو صالح: إن الله ليضحك ممن يذكره في السوق، وسبب ذلك أنه ذكر في موطن الغفلة بين أهل الغفلة، وفي حديث أبي ذر المرفوع: (ثلاثة يحبهم الله، قوم ساروا ليلتهم حتى إذا كان النوم أحب إليهم مما يعدل به فوضعوا رؤوسهم، فقام أحدهم يتملقني ويتلو آياتي، وقوم كانوا في سرية فانهزموا فتقدم أحدهم فلقي العدو فصبر حتى قتل، وذكر أيضا قوما جاءهم سائل فسألهم فلم يعطوه فانفرد أحدهم حتى أعطاه سرا) فهؤلاء الثلاثة انفردوا عن رفقتهم بمعاملة الله سرا بينهم وبينه فأحبهم الله، فكذلك من يذكر الله في غفلة الناس، أومن يصوم في أيام غفلة الناس عن الصيام.

وفي إحياء الوقت المغفول عنه بالطاعة فوائد:

منها: أنه يكون أخفى، وإخفاء النوافل وإسرارها أفضل. لا سيما الصيام فإنه سر بين العبد وربه. ولهذا قيل: إنه ليس فيه رياء. وقد صام بعض السلف أربعين سنة لا يعلم به أحد، كان يخرج من بيته إلى سوقه ومعه رغيفان فيتصدق بهما ويصوم، فيظن أهله أنه أكلهما ويظن أهل السوق أنه أكل في بيته. وكانوا يستحبون لمن صام أن يظهر ما يخفي به صيامه فعن ابن مسعود: أنه قال: إذا أصبحتم صياما فأصبحوا مدهنين. وقال قتادة: يستحب للصائم أن يدهن حتى تذهب عنه غبرة الصيام. وقال أبو التياح: أدركت أبي ومشيخة الحي إذا صام أحدهم ادهن ولبس صالح ثيابه.

ويروى أن عيسى بن مريم عليه السلام قال: (إذا كان يوم صوم أحدكم فليدهن لحيته، وليمسح شفتيه من دهنه، حتى ينظر الناظر إليه فيرى أنه ليس بصائم) اشتهر بعض الصالحين بكثرة الصيام، فكان يجتهد في إظهار فطره للناس حتى كان يقوم يوم الجمعة والناس مجتمعون في مسجد الجامع فيأخذ

إبريقا فيضع بلبلته في فيه، ويمصه ولا يزدرد منه شيئا، ويبقى ساعة كذلك ينظر الناس إليه، فيظنون أنه يشرب الماء، وما دخل إلى حلقه منه شيء.

كم ستر الصادقون أحوالهم، وريح الصدق ينم علهيم، ريح الصيام أطيب من ريح المسك، تستنشقه قلوب المؤمنين وإن خفي، وكلما طالت عليه المدة ازدادت قوة ريحه.

كم أكتم حبكم عن ... والدمع يذيع في
كم أستركم ... من يخفي في

ما أسر أحد سريرة إلا ألبسه رداءها علانية

وهبني كتمت ... أتخفي على أهل
أبى ذاك أن السر ... وإن بضمير القلب

ومنها: أنه أشقّ على النفوس، وأفضل الأعمال أشقها على النفوس، وسبب ذلك أن النفوس تتأسى بما تشاهد من أحوال أبناء الجنس، فإذا كثرت يقظة الناس وطاعاتهم كثر أهل الطاعة لكثرة المقتدين بهم فسهلت الطاعات، وإذا كثرت الغفلات وأهلها تأسى بهم عموم الناس، فيشقّ على نفوس المستيقظين طاعاتهم لقلة من يقتدون بهم فيها، ولهذا المعنى قال النبي :(للعامل منهم أجر خمسين منكم، إنكم تجدون على الخير أعوانا ولا يجدون).

وقال: (بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء) وفي رواية قيل: ومن الغرباء: (قال الذين يصلحون إذا فسد الناس). وفي صحيح مسلم من حديث معقل بن يسار عن النبي قال: (العبادة في الهرج كالهجرة إليّ). وخرجه الإمام أحمد ولفظه: (العباد في الفتنة كالهجرة إليّ) وسبب ذلك أن الناس في زمن الفتن يتبعون أهواءهم، ولا يرجعون إلى دين فيكون حالهم شبيها بحال الجاهلية، فإذا انفرد من بينهم من يتمسك بدينه، ويعبد ربه ويتبع مراضيه ويجتنب مساخطه، كان بمنزلة من هاجر من بين أهل الجاهلية إلى رسول الله مؤمنا به، متبعا لأوامره، مجتنبا لنواهيه.

ومنها: أن المفرد بالطاعة من أهل المعاصي والغفلة قد يدفع البلاء عن الناس كلهم، فكأنه يحميهم ويدافع عنهم. وفي حديث ابن عمر الذي رويناه في جزء ابن عرفة مرفوعا: (ذاكر الله في الغافلين كالذي يقاتل عن الفارين، وذاكر الله في الغافلين كالشجرة الخضراء في وسط الشجر الذي تحات ورقه من الصرير ـ والصرير: البرد الشديد ـ وذاكر الله في الغافلين يغفر له بعدد كل رطب ويابس، وذاكر الله في الغافلين يعرف مقعده في الجنة). قال بعض السلف: ذاكر الله في الغافلين كمثل الذي يحمي الفئة المنهزمة، ولولا من يذكر الله في غفلة الناس لهلك الناس. رأى جماعة من المتقدمين في منامهم كأن ملائكة نزلت إلى بلاد شتى، فقال بعضهم لبعض: اخسفوا بهذه القرية، فقال بعضهم: كيف نخسف بها وفلان قائم يصلي؟. ورأى بعض المتقدمين في منامه من ينشد ويقول:

لولا الذين لهم ورد وآخرون لهم سرد
لدكدكت أرضكم لأنكم قوم سوء ما

وفي مسند البزار عن أبي هريرة مرفوعا: (مهلا عن الله مهلا فلولا عباد ركع وأطفال رضع وبهائم رتع لصب عليكم العذاب صبا) ولبعضهم في المعنى:

لولا عباد للإله ركع وصبية من اليتامى
ومهملات في الفلا صب عليكم العذاب

وقد قيل في تأويل قوله تعالى: (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض) أنه يدخل فيها دفعة عن العصاة بأهل الطاعة، وجاء في الأثر: أن الله يدفع بالرجل الصالح عن أهله وولده وذريته ومن حوله. وفي بعض الآثار يقول الله عز وجل: (أحب العباد إليّ المتحابون بجلالي المشاؤون في الأرض بالنصيحة، الماشون على أقدامهم إلى الجمعات) وفي رواية: (المتعلقة قلوبهم بالمساجد والمستغفرون بالأسحار، فإذا أردت إنزال عذاب بأهل الأرض فنظرت إليهم صرفت العذاب عن الناس). وقال مكحول: ما دام في الناس خمسة عشر يستغفر كل منهم كل يوم خمسا وعشرين مرة

لم يهلكوا بعذاب عامة والآثار في هذا المعنى كثيرة جدا

وقد روي في صيام النبي ﷺ شعبان معنى آخر وهوأنه تنسخ فيه الآجال فروي بإسناد فيه ضعف عن عائشة قالت: كان أكثر صيام رسول الله ﷺ في شعبان فقلت: يا رسول الله أرى أكثر صيامك في شعبان ؟ قال: إن هذا الشهر يكتب فيه لملك الموت من يقبض فأنا لا أحب أن ينسخ اسمي إلا وأنا صائم) وقد روي مرسلا وقيل: إنه أصح وفي حديث آخر مرسل: (تقطع الآجال من شعبان إلى شعبان حتى أن الرجل لينكح ويولد له ولقد خرج اسمه في الموتى)

وروي في ذلك معنى آخر وهو: (أن النبي ﷺ كان يصوم من كل شهر ثلاثة أيام وربما أخر ذلك حتى يقضيه بصوم شعبان) رواه ابن أبي ليلة عن أخيه عيسى عن أبيهما عن عائشة رضي الله عنها خرجه الطبراني ورواه غيره وزاد: قالت عائشة: فربما أردت أن أصوم فلم أطق حتى إذا صام صمت معه وقد يشكل على هذا ما في صحيح مسلم عن عائشة قالت: (كان رسول الله ﷺ يصوم ثلاثة أيام من كل شهر لا يبالي من أية كان) وفيه أيضا عنها قالت: (ما علمته ـ تعني النبي ﷺ ـ صام شهرا كاملا إلا رمضان ولا أفطره كله حتى يصوم منه حتى مضى لسبيله) وقد يجمع بينهما بأنه قد يكون صومه في بعض الشهور لا يبلغ ثلاثة أيام فيكمل ما فاته من ذلك في شعبان أو أنه ﷺ كان يصوم من كل شهر ثلاثة أيام مع الاثنين والخميس فيؤخر الثلاثة خاصة حتى يقضيها في شعبان مع صومه الاثنين والخميس.

وبكل حال فكان ﷺ عمله ديمة وكان إذا فاته من نوافله قضاه، كما كان يقضي ما فاته من سنن الصلاة وما فاته من قيام الليل بالنهار، فكان إذا دخل شعبان وعليه بقية من صيام تطوع لم يصمه قضاه في شعبان حتى يستكمل نوافله قبل دخول رمضان،

فكانت عائشة حينئذ تغتنم قضاءه لنوافله فتقضي ما عليها من فرض رمضان حينئذ لفطرها فيه بالحيض، وكانت في غيره من الشهور مشتغلة بالنبي ﷺ،فإن المرأة لا تصوم وبعلها شاهد إلا بإذنه، فمن دخل عليه شعبان وقد بقي عليه من نوافل صيامه في العام استحب له قضاؤها فيه حتى يكمل نوافل صيامه بين الرمضانين، ومن كان عليه شيء من قضاء رمضان وجب عليه قضاؤه مع القدرة، ولا يجوز له تأخيره إلى ما بعد رمضان آخر لغير ضرورة، فإن فعل ذلك وكان تأخيره لعذر مستمر بين الرمضانين كان عليه قضاؤه بعد رمضان الثاني ولا شيء عليه مع القضاء، وإن كان ذلك لغير عذر فقيل: يقضي ويطعم مع القضاء لكل يوم مسكينا، وهو قول مالك والشافعي وأحمد اتباعا لآثار وردت بذلك. وقيل: يقضي ولا إطعام عليه وهو قول أبي حنيفة وقيل: يطعم ولا يقضي وهو ضعيف.

وقد قيل: في صوم شعبان معنى آخر: أن صيامه كالتمرين على صيام رمضان لئلا يدخل في صوم رمضان على مشقة وكلفة، بل قد تمرّن على الصيام واعتاده، ووجد بصيام شعبان قبله حلاوة الصيام ولذته، فيدخل في صيام رمضان بقوة ونشاط. ولما كان شعبان كالمقدمة لرمضان شرع فيه ما يشرع في رمضان من الصيام وقراءة القرآن ليحصل التأهب لتلقي رمضان، وترتاض النفوس بذلك على طاعة الرحمن.

روينا بإسناد ضعيف عن أنس قال: كان المسلمون إذا دخل شعبان انكبوا على المصاحف، فقراؤها وأخرجوا زكاة أموالهم تقوية للضعيف والمسكين على صيام رمضان، وقال سلمة بن كهيل: كان يقال شهر شعبان شهر القراء. وكان حبيب بن أبي ثابت إذا دخل شعبان قال: هذا شهر القراء، وكان عمرو بن قيس الملائي إذا دخل شعبان أغلق حانوته وتفرغ لقراءة القرآن، قال الحسن بن سهل: قال شعبان: يا رب جعلتني بين شهرين عظيمين فما لي ؟ قال: جعلت فيك قراءة القرآن.

يا من فرط في الأوقات الشريفة وضيّعها

وأودعها الأعمال السيئة وبئس ما استودعها

مضى رجب وما | وهذا شهر شعبان
فيا من ضيع | بحرمتها أفق
فسوف تفارق | ويخلي الموت
تدارك ما استطعت | بتوبة مخلص
على طلب السلامة | فخير ذوي الجرائم

المجلس الثاني في نصف شعبان

خرج الإمام أحمد وأبوداود والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والحاكم من حديث العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي قال: (إذا انتصف شعبان فلا تصوموا حتى رمضان) وصححه الترمذي وغيره. واختلف العلماء في صحة هذا الحديث ثم في العمل به: فأما تصحيحه فصححه غير واحد منهم الترمذي وابن حبان والحاكم والطحاوي وابن عبد البر، وتكلم فيه من هو أكبر من هؤلاء وأعلم، وقالوا: هو حديث منكر منهم عبد الرحمن بن المهدي والإمام أحمد وأبوزرعة الرازي والأثرم.

وقال الإمام أحمد: لم يرو العلاء حديثا أنكر منه، ورده بحديث: (لا تقدموا رمضان بصوم يوم أو يومين) فإن مفهومه جواز التقدم بأكثر من يومين. وقال الأثرم: الأحاديث كلها تخالفه. يشير إلى أحاديث صيام النبي شعبان كله ووصله برمضان، ونهيه عن التقدم على رمضان بيومين، فصار الحديث حينئذ شاذا مخالفا للأحاديث الصحيحة.

وقال الطحاوي: هو منسوخ. وحكى الإجماع على ترك العمل به. وأكثر العلماء على أنه لا يعمل به، وقد أخذ به آخرون منهم الشافعي وأصحابه ونهوا عن ابتداء التطوع بالصيام بعد نصف شعبان لمن ليس له عادة، ووافقهم بعض المتأخرين من أصحابنا، ثم اختلفوا في علة النهي، فمنهم من قال: خشية أن يزاد في شهر رمضان ما ليس منه. وهذا بعيد جدا فيما بعد النصف، وإنما يحتمل هذا في التقديم بيوم أو يومين، ومنهم من قال: النهي للتقوى على صيام رمضان شفقة أن يضعفه ذلك عن صيام رمضان،

وروي ذلك عن وكيع. ويرد هذا صيام النبي شعبان كله أو أكثره ووصله برمضان هذا كله بالصيام بعد نصف شعبان.

وأما صيام يوم النصف منه فغير منهي عنه، فإنه من جملة أيام البيض الغر المندوب إلى صيامها من كل شهر. وقد ورد الأمر بصيامه من شعبان بخصوصه، ففي سنن ابن ماجه بإسناد ضعيف عن علي عن النبي : (إذا كان ليلة نصف شعبان، فقوموا ليلها وصوموا نهارها، فإن الله تعالى ينزل فيها لغروب الشمس إلى السماء الدنيا، فيقول: ألا مستغفر فأغفر له، ألا مسترزق فأرزقه ألا مبتلى فأعافيه، ألا كذا ألا كذا حتى يطلع الفجر).

وفي فضل ليلة نصف شعبان أحاديث أخر متعددة، وقد اختلف فيها فضعفها الأكثرون وصحح ابن حبان بعضها، وخرجه في صحيحه ومن أمثلها حديث عائشة قال: فقدت النبي فخرجت فإذا هو بالبقيع رافعا رأسه إلى السماء فقال: (أكنت تخافين أن يحيف الله عليك ورسوله؟ فقلت يا رسول الله! ظننت أنك أتيت بعض نسائك. فقال:إن الله تبارك وتعالى ينزل ليلة النصف من شعبان إلى السماء الدنيا فيغفر لأكثر من عدد شعر غنم كلب) خرجه الإمام أحمد والترمذي الإمام أحمد ابن ماجه. وذكر الترمذي عن البخاري أنه ضعفه وخرج ابن ماجه من حديث أبي موسى عن النبي قال: (إن الله ليطلع ليلة النصف من شعبان فيغفر لجميع خلقه إلا لمشرك أو مشاحن) وخرج الإمام أحمد من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي قال: (إن الله ليطلع إلى خلقه ليلة النصف من شعبان فيغفر لعباده إلا اثنين، مشاحن أو قاتل نفس) وخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث معاذ مرفوعا.

ويروى من حديث عثمان بن أبي العاص مرفوعا: (إذا كان ليلة النصف من شعبان نادى مناد: هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فأعطيه؟ فلا يسأل أحد شيئا إلا أعطيه إلا زانية بفرجها أو

مشركا). وفي الباب أحاديث أخر فيها ضعف، ويروى عن نوف البكالي أن عليا خرج ليلة النصف من شعبان فأكثر الخروج فيها ينظر إلى السماء فقال: إن داود عليه السلام خرج ذات ليلة في مثل هذه الساعة، فنظر إلى السماء فقال: إن هذه الساعة ما دعى الله أحد إلا أجابه، ولا استغفره أحد من هذه الليلة إلا غفر له ما لم يكن عشارا أو ساحرا أو شاعرا أو كاهنا أو عريفا أو شرطيا أو جابيا أو صاحب كوبة أو عرطبة قال نوف: الكوبة الطبل والعرطبة: الطنبور، اللهم رب داود اغفر لمن دعاك في هذه الليلة، ولمن استغفرك فيها.

وليلة النصف من شعبان كان التابعون من أهل الشام كخالد بن معدان ومكحول ولقمان بن عامر وغيرهم يعظمونها، ويجتهدون فيها في العبادة، وعنهم أخذ الناس فضلها وتعظيمها، وقد قيل أنه بلغهم في ذلك آثار إسرائيلية، فلما اشتهر ذلك عنهم في البلدان اختلف الناس في ذلك. فمنهم من قبله منهم ووافقهم على تعظيمها منهم طائفة من عبّاد أهل البصرة وغيرهم. وأنكر ذلك أكثر علماء الحجاز منهم عطاء وابن أبي مليكة. ونقله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن فقهاء أهل المدينة وهو قول أصحاب مالك وغيرهم. وقالوا: ذلك كله بدعة. واختلف علماء أهل الشام في صفة إحيائها على قولين:

أحدهما: أنه يستحب إحياؤها جماعة في المساجد. كان خالد بن معدان ولقمان بن عامر وغيرهما يلبسون فيها أحسن ثيابهم، ويتبخرون ويكتحلون ويقومون في المسجد ليلتهم تلك. ووافقهم إسحاق بن راهوية على ذلك وقال في قيامها في المساجد جماعة: ليس ذلك ببدعة. نقله عنه حرب الكرماني في مسائله.

والثاني: أنه يكره الاجتماع فيها في المساجد للصلاة والقصص والدعاء. ولا يكره أن يصلي الرجل فيها لخاصة نفسه. وهذا قول الأوزاعي إمام أهل الشام وفقيههم وعالمهم، وهذا هو الأقرب إن شاء الله تعالى. وقد روي عن عمر بن عبد العزيز أنه كتب إلى عامله إلى البصرة عليك بأربع ليال من السنة،

فإن الله يفرغ فيهن الرحمة إفراغا، أول ليلة من رجب، وليلة النصف من شعبان، وليلة الفطر، وليلة الأضحى. وفي صحته عنه نظر.

وقال الشافعي رضي الله عنه: بلغنا أن الدعاء يستجاب في خمس ليال: ليلة الجمعة، والعيدين، وأول رجب، ونصف شعبان، قال: وأستحب كل ما حكيت في هذه الليالي، ولا يعرف للإمام أحمد كلام في ليلة نصف شعبان. ويتخرج في استحباب قيامها عنه روايتان من الروايتين عنه في قيام ليلتي العيد، فإنه في رواية لم يستحب قيامها جماعة. لأنه لم ينقل عن النبي ﷺ وأصحابه. واستحبها في رواية لفعل عبد الرحمن بن يزيد بن الأسود لذلك وهو من التابعين. فكذلك قيام ليلة النصف لم يثبت فيها شيء عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه، وثبت فيها عن طائفة من التابعين من أعيان فقهاء أهل الشام.

وروي عن كعب قال: إن الله تعالى يبعث ليلة النصف من شعبان جبريل عليه السلام إلى الجنة فيأمرها أن تتزين ويقول: إن الله تعالى قد اعتق في ليلتك هذه عدد نجوم السماء، وعدد أيام الدنيا ولياليها، وعدد ورق الشجر، وزنة الجبال، وعدد الرمال.

وروى سعيد بن منصور حدثنا أبو معشر عن أبي حازم ومحمد بن قيس عن عطاء بن يسار قال: ما من ليلة بعد ليلة القدر أفضل من ليلة النصف من ليلة النصف من شعبان، ينزل الله تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا، فيغفر لعباده كلهم إلا لمشرك أو مشاحن أو قاطع رحم.

فيا من أعتق فيها من النار هنيئا لك المنحة الجسيمة. ويا أيها المردود فيها جبر الله مصيبتك، فإنها مصيبة عظيمة.

بكيت على نفسي وما أنا من تضييع
لئن قلت أني في فإني في قولي
ليالي شعبان وليلة بأية حال قد تنزل
وحقي لعمري أن لعل إله الخلق

فينبغي للمؤمن أن يتفرغ في تلك الليلة لذكر

الله تعالى، ودعائه بغفران الذنوب، وستر العيوب، وتفريج الكروب، وأن يقدم على ذلك التوبة، فإن الله تعالى يتوب فيها على من يتوب.

فقم ليلة النصف	فأشرف هذا
فكم من فتى قد	وقد نسخت فيه
فبادر بفعل الخير	وحاذر هجوم
وصم يومها لله	لتظفر عند الكرب

ويتعين على المسلم أن يجتنب الذنوب التي تمنع من المغفرة، وقبول الدعاء في تلك الليلة وقد روي: أنها: الشرك، وقتل النفس، والزنا. وهذه الثلاثة أعظم الذنوب عند الله كما في حديث ابن مسعود المتفق على صحته أنه سأل النبي : أي الذنب أعظم ؟ قال: أن تجعل لله ندا وهو خلقك. قال: ثم أي ؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك. قال: ثم أي ؟ قال: أن تزاني حليلة جارك) فأنزل الله تعالى تصديق ذلك: (والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون) الآية.

ومن الذنوب المانعة من المغفرة أيضا الشحناء. وهي حقد المسلم على أخيه بغضا له لهوى نفسه. وذلك يمنع أيضا من المغفرة في أكثر أوقات المغفرة والرحمة. كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا: (تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين والخميس، فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئا إلا رجلا كانت بينه وبين أخيه شحناء. فيقال: انظروا هذين حتى يصطلحا) وقد فسر الأوزاعي هذه الشحناء المانعة بالذي في قلبه شحناء لأصحاب النبي . ولا ريب أن هذه الشحناء أعظم جرما من مشاحنة الأقران بعضهم بعضا، وعن الأوزاعي أنه قال المشاحن كل صاحب بدعة فارق عليها الأمة، وكذا قال ابن ثوبان: المشاحن هو التارك لسنة النبي الطاعن على أمته، السافك دماءهم. وهذه الشحناء- أعني شحناء البدعة- توجب الطعن على جماعة المسلمين، واستحلال دمائهم وأموالهم وأعراضهم،

كبدع الخوارج والروافض ونحوهم.

فأفضل الأعمال سلامة الصدر من أنواع الشحناء كلها، وأفضلها السلامة من شحناء أهل الأهواء والبدع التي تقتضي الطعن على سلف الأمة، وبغضهم والحقد عليهم، واعتقاد تكفيرهم، أو تبديعهم وتضليلهم، ثم يلي ذلك سلامة القلب من الشحناء لعموم المسلمين، وإرادة الخير لهم، ونصيحتهم، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه. وقد وصف الله تعالى المؤمنين عموما بأنهم يقولون: (ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم).

وفي (المسند) عن أنس أن النبي ﷺ قال لأصحابه ثلاثة أيام: (يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة، فيطلع رجل واحد). فاستضافه عبد الله بن عمرو، فنام عنده ثلاثا لينظر عمله، فلم ير له في بيته كبير عمل. فأخبره بالحال فقال له: هو ما ترى إلا أني أبيت وليس في قلبي شيء على أحد من المسلمين. فقال عبد الله: بهذا بلغ ما بلغ) وفي سنن ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو قال: قيل: يا رسول الله أي الناس أفضل ؟ قال: مخموم القلب صدوق اللسان، قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب ؟ قال: هو التقي النقي الذي لا إثم فيه ولا بغي ولا غل ولا حسد) قال بعض السلف: أفضل الأعمال سلامة الصدور وسخاوة النفوس والنصيحة للأمة، وبهذه الخصال بلغ من بلغ، لا بكثرة الاجتهاد في الصوم والصلاة.

إخواني! اجتنبوا الذنوب التي تحرم العبد مغفرة مولاه الغفار في مواسم الرحمة والتوبة والاستغفار، أما الشرك: (إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار) وأما القتل فلو اجتمع أهل السموات وأهل الأرض على قتل رجل مسلم بغير حق لأكبهم الله جميعا في النار، وأما الزنا فحذار حذار من التعرض لسخط الجبار، الخلق كلهم عبيد الله وإماؤه، والله يغار لا أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته، فمن أجل ذلك حرم الفواحش، وأمر بغض الأبصار، وأما

الشحناء فيا من أضمر لأخيه السوء، وقصد له الإضرار: (لا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار)

يكفيك حرمان المغفرة في أوقات مغفرة الأوزار.

خاب عبد بارز المو ... لى بأسباب
ويحه مما جناه ... لم يخف يوم
يوم فيه ترعد الأقد ... ام من شيب
لي ذنوب في ... وحياة في انتقاص
فمتى أعمل ما ... لي فيه خلاصي

وقد روي عن عكرمة وغيره من المفسرين في قوله تعالى: (فيها يفرق كل أمر حكيم) أنها ليلة النصف من شعبان، والجمهور على أنها ليلة القدر، وهو الصحيح. وقال عطاء بن يسار: إذا كان ليلة النصف من شعبان دفع إلى ملك الموت صحيفة، فيقال: اقبض من في هذه الصحيفة، فإن العبد ليغرس الغراس، وينكح الأزواج، ويبني البنيان، وأن اسمه قد نسخ في الموتى ما ينتظر به ملك الموت إلا أن يؤمر به، فيقبضه.

يا مغرورا بطول الأمل، يا مسرورا بسوء العمل، كن من الموت على وجل، فما تدري متى يهجم الأجل.

كل امرىء مصبح ... والموت أدنى من

قال بعض السلف: كم من مستقبل يوما لا يستكمله، ومن مؤمل غدا لا يدركه، إنكم لو رأيتم الأجل ومسيره، لأبغضتم الأمل وغروره.

أؤمل أن أخلد ... تدور علي من كل
وما أدري وإن ... لعلي لا أعيش إلى
كم ممن راح في طلب الدنيا أوغدا أصبح من
كأنك بالمضي إلى ... وقد جد المجهز
وجيء بغاسل ... بقولهم له أفرغ
ولم تحمل سوى ... إليهم من كثيرك أو
وقد مد الرجال ... فأنت عليه ممدود
وصلوا ثم إنهم ... لحملك من بكورك

فلما أسلموك ومن لك بالسلامة
أعانك يوم تدخله رؤوف بالعباد على
فسوف تجاور فذرني من قصيرك
أخي لقد نصحتك وبالله استعنت
ألست ترى المنايا تصيبك في أخيك

المجلس الثالث: في صيام آخر شعبان

ثبت في الصحيحين عن عمران بن حصين أن النبي قال لرجل: (هل صمت من سرر هذا الشهر شيئا ؟ قال: لا. قال: فإذا أفطرت فصم يومين) وفي رواية للبخاري أظنه يعني رمضان. وفي رواية لمسلم وعلقها البخاري: (هل صمت من سرر شعبان شيئا) وفي رواية: (فإذا أفطرت من رمضان فصم يومين مكانه) وفي رواية: (يوما أو يومين) شك شعبة وروي: (من سرار الشهر) وقد اختلف في تفسير السرار. والمشهور أنه آخر الشهر. يقال: سرار الشهر، وسراره بكسر السين وفتحها. ذكره ابن السكيت وغيره. وقيل: إن الفتح أفصح، قاله الفراء. وسمي آخر الشهر سرارا: لاستتار القمر فيه. وممن فسر السرار بآخر الشهر أبوعبيد وغيره من الأئمة. وكذلك بوّب عليه البخاري صيام آخر الشهر، وأشكل هذا على كثير من العلماء.فإن في الصحيحين أيضا عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي قال: (لا تقدموا رمضان بيوم أو يومين إلا من كان يصوم صوما فليصمه).

فقال كثير من العلماء كأبي عبيد ومن تابعه كالخطابي وأكثر شراح الحديث: أن هذا الرجل الذي سأله النبي كان يعلم أن له عادة بصيامه أو كان قد نذره. فلذلك أمره بقضائه. وقالت طائفة: حديث عمران يدل على أنه يجوز صيام يوم الشك وآخر شعبان مطلقا، سواء وافق عادة أولم يوافق. وإنما ينهى عنه إذا صامه بنية الرمضانية احتياطا. وهذا مذهب مالك وذكر أنه القول الذي أدرك عليه أهل العلم حتى قال محمد بن مسلمة من أصحابه: يكره الأمر بفطره لئلا يعتقد وجوب الفطر قبل الشهر،

كما وجب بعده.

وحكى ابن عبد البر هذا القول عن أكثر علماء الأمصار، وذكر محمد بن ناصر الحافظ: إن هذا هو مذهب أحمد أيضا، وغلط في نقله هذا عن أحمد. ولكن يشكل على هذا حديث أبي هريرة رضي الله عنه وقوله: (إلا من كان يصوم صوما فليصمه) وقد ذكر الشافعي في كتاب مختلف الحديث احتمالا في معنى قوله: (إلا من كان يصوم صوما فليصمه) وفي رواية: (إلا أن يوافق ذلك صوما كان يصومه أحدكم) أن المراد بموافقة العادة صيامه على عادة الناس في التطوع بالصيام دون صيامه بنية الرمضانية للاحتياط.

وقالت طائفة: سر الشهر: أوله وخرج أبوداود في باب تقدم رمضان من حديث معاوية أنه قال: إني متقدم الشهر فمن شاء فليتقدم، فسئل عن ذلك فقال سمعت النبي يقول: (صوموا الشهر وسره) ثم حكى أبوداود عن الأوزاعي وسعيد بن عبد العزيز: أن سر الشهر: أوله. قال أبوداود: وقال بعضهم: سره وسطه. وفرّق الأزهري بين سرار الشهر وسره فقال: سراره وسرره آخره، وسره وسطه، وهي أيام البيض، وسر كل شيء جوفه وفي رواية لمسلم في حديث عمران بن حصين المذكور: (هل صمت من سرة هذا الشهر) وفسر ذلك: بأيام البيض. قلت: لا يصح أن يفسر سرر الشهر وسراره بأوله، لأن أول الشهر يشتهر فيه الهلال، ويرى من أول الليل، ولذلك سمى الشهر شهرا لاشتهاره وظهوره، فتسمية ليالي الاشتهار ليالي السرار قلب للغة والعرف. وقد أنكر العلماء ما حكاه أبوداود عن الأوزاعي منهم الخطابي. وروى بإسناده عن الوليد عن الأوزاعي قال: سر الشهر: آخره وقال الهروي: المعروف أن سر الشهر آخره، وفسر الخطابي حديث معاوية: (صوموا الشهر وسره) بأن المراد بالشهر الهلال، فيكون المعنى صوموا أول الشهر وآخره. فلذلك أمر معاوية بصيام آخر الشهر. قلت: لما روى معاوية: (صوموا الشهر وسره) وصام آخر الشهر علم أنه فسر السر بالآخر. والأظهر أن المراد

بالشهر شهر رمضان كله، والمراد بسره آخر شعبان كما في رواية البخاري في حديث عمران، أظنه يعني رمضان وأضاف السرر إلى رمضان، وإن لم يكن منه كما سمى رمضان شهر عيد وإن كان العيد ليس منه، لكنه يعقبه. فدل حديث عمران وحديث معاوية على استحباب صيام آخر شعبان، وإنما أمر بقضائه في أول شوال لأن كلا من الوقتين صيام يلي شهر رمضان، فهو ملتحق برمضان في الفضل، فمن فاته ما قبله صامه فيما بعده، كما كان النبي ﷺ يصوم شعبان وندب إلى صيام شوال.

وإنما يشكل على هذا حديث أبي هريرة رضي الله عنه في نهي النبي ﷺ عن تقدم رمضان بيوم أو يومين إلا من له عادة أومن كان يصوم صوما. وأكثر العلماء على أنه نهى عن التقدم إلا من كانت له عادة بالتطوع فيه وهو ظاهر الحديث. ولم يذكر أكثر العلماء في تفسيره بذلك اختلافا وهو الذي اختاره الشافعي في تفسيره، ولم يرجح ذلك الاحتمال المتقدم وعلى هذا فيرجح حديث أبي هريرة على حديث عمران، فإن حديث أبي هريرة فيه نهي عام للأمة عموما فهو تشريع عام للأمة، فيعمل به. وأما حديث عمران فهي قضية عين في حق رجل معين، فيتعين حمله على صورة صيام لا ينهى عن التقدم به جمعا بين الحدثين. وأحسن ما حمل عليه: أن هذا الرجل الذي سأله النبي ﷺ كان قد علم منه ﷺ أنه كان يصوم شعبان أو أكثره موافقة لصيام النبي ﷺ وكان قد أفطر فيه بعضه، فسأله عن صيام آخره، فلما أخبره أنه لم يصم آخره أمره بأن يصوم بدله بعد يوم الفطر، لأن صيام أول شوال كصيام آخر شعبان، وكلاهما حريم لرمضان. وفيه دليل على استحباب قضاء ما فات من التطوع بالصيام، وأن يكون في أيام مشابهة للأيام التي فات فيها الصيام في الفضل، وفيه دليل على أنه يجوز لمن صام شعبان أو أكثره أن يصله برمضان من غير فصل بينهما.

فصيام آخر شعبان له ثلاثة أحوال:

أحدها: أن يصومه بنية الرمضانية احتياطا

لرمضان، فهذا منهي عنه وقد فعله بعض الصحابة وكأنهم لم يبلغهم النهي عنه، وفرق ابن عمر بين يوم الغيم والصحو في يوم الثلاثين من شعبان، وتبعه الإمام أحمد.

والثاني: أن يصام بنية النذر أو قضاء عن رمضان أو عن كفارة ونحو ذلك، فجوزه الجمهور ونهى عنه من أمر بالفصل بين شعبان ورمضان بفطر يوم مطلقا، وهم طائفة من السلف. وحكي كراهته أيضا عن أبي حنيفة والشافعي وفيه نظر.

والثالث: أن يصام بنية التطوّع المطلق، فكرهه من أمر بالفصل بين شعبان ورمضان بالفطر، منهم الحسن وإن وافق صوما كان يصومه، ورخص فيه مالك ومن وافقه، وفرق الشافعي والأوزاعى وأحمد وغيرهم بين أن يوافق عادة أو لا، وكذلك يفرق بين من تقدم صيامه بأكثر من يومين ووصله برمضان فلا يكره أيضا إلا عند من كره الإبتداء بالتطوع بالصيام بعد نصف شعبان فإنه ينهى عنه إلا أن يبتدئ الصيام قبل النصف ثم يصله برمضان.

وفي الجملة فحديث أبي هريرة هو المعمول به في هذا الباب عند كثير من العلماء، وأنه يكره التقدم قبل رمضان بالتطوع بالصيام بيوم أو يومين لمن ليس له به عادة، ولا سبق منه صيام قبل ذلك في شعبان متصلا بآخره.

ولكراهة التقدم ثلاثة معان:

أحدها: أنه على وجه الاحتياط لرمضان، فينهى عن التقدم قبله لئلا يزاد في صيام رمضان ما ليس منه، كما نهي عن صيام يوم العيد لهذا المعنى، حذرا مما وقع فيه أهل الكتاب في صيامهم، فزادوا فيه بآرائهم وأهوائهم. وخرج الطبراني وغيره عن عائشة رضي الله عنه قالت: إن ناسا كانوا يتقدمون الشهر فيصومون قبل النبي ﷺ فأنزل الله عز وجل: (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) قالت عائشة: إنما الصوم صوم الناس، والفطر فطر الناس، ومع هذا فكان من السلف من يتقدم للاحتياط. والحديث حجة عليه، ولهذا نهي عن صيام يوم الشك، قال عمار: من صامه فقد عصى أبا

القاسم . ويوم الشك هو اليوم الذي يشك فيه هل هو من رمضان أو غيره. فكان من المتقدمين من يصومه احتياطا، ورخص فيه بعض الحنفية للعلماء في أنفسهم خاصة دون العامة، لئلا يعتقدوا وجوبه بناء على أصلهم في أن صوم رمضان يجزئ بنية الصيام المطلق والنفل، ويوم الشك هو الذي تحدث برؤيته من لم يقبل قوله.

فأما يوم الغيم فمن العلماء من جعله يوم شك ونهى عن صيامه، وهو قول الأكثرين. ومنهم من صامه احتياطا وهو قول ابن عمر، وكان الإمام أحمد يتابعه على ذلك. وعنه في صيامه ثلاث روايات مشهورات ثالثها لا يصام إلا مع الإمام وجماعة المسلمين لئلا يقع الإفتيات عليهم والإنفراد عنهم، وقال إسحاق: لا يصام يوم الغيم، ولكن يتلوّم بالأكل فيه إلى ضحوة النهار خشية أن يشهد برؤيته، بخلاف حال الصحو فإنه يأكل فيه من غدوة.

والمعنى الثاني: الفصل بين صيام الفرض والنفل، فإن جنس الفصل بين الفرائض والنوافل مشروع، ولهذا حرم صيام يوم العيد ونهى النبي أن توصل صلاة مفروضة بصلاة حتى يفصل بينهما بسلام أو كلام، وخصوصا سنة الفجر قبلها فإنه يشرع الفصل بينها وبين الفريضة. ولهذا يشرع صلاتها في البيت والاضطجاع بعدها، ولما رأى النبي رجلا يصلي وقد أقيمت صلاة الفجر: (الصبح أربعا). وفي المسند: أنه قال: (افصلوا بينها وبين المكتوبة ولا تجعلوها كصلاة الظهر). وفي سنن أبي داود: (إن رجلا صلى مع النبي فلما سلم قام يشفع، فوثب إليه عمر فأخذ بمنكبيه فهزه ثم قال: اجلس فإنه لم يهلك أهل الكتاب إلا أنه لم يكن لصلاتهم فصل فرفع النبي بصره فقال: أصاب الله بك يا ابن الخطاب) ومن علل بهذا، فمنهم من كره وصل صوم شعبان برمضان مطلقا، وروي عن ابن عمر قال: لوصمت الدهر كله لأفطرت الذي بينهما، وروي فيه حديث مرفوع لا يصح، والجمهور على جواز

صيام ما وافق عادة لأن الزيادة إنما تخشى إذا لم يعرف سبب الصيام.

والمعنى الثالث: إنه أمر بذلك للتقوّي على صيام رمضان، فإن مواصلة الصيام قد تضعف عن صيام الفرض، فإذا حصل الفطر قبله بيوم أو يومين كان أقرب إلى التقوّي على صيام رمضان، وفي هذا التعليل نظر. فإنه لا يكره التقدم بأكثر من ذلك، ولا لمن صام الشهر كله وهو أبلغ في معنى الضعف، لكن الفطر بنية التقوّي لصيام رمضان حسن لمن أضعفه مواصلة الصيام كما كان عبد الله بن عمرو بن العاص يسرد الفطر أحيانا، ثم يسرد الصوم ليتقوى بفطره على صومه، ومنه قول بعض الصحابة إني أحتسب نومتي كما أحتسب قومتي. وفي الحديث المرفوع: (الطاعم الشاكر كالصائم الصابر) خرجه الترمذي وغيره. ولربما ظن بعض الجهال أن الفطر قبل رمضان يراد به اغتنام الأكل لتأخذ النفوس حظها من الشهوات قبل أن تمنع من ذلك بالصيام، ولهذا يقولون هي أيام توديع للأكل، وتسمى تنحيسا واشتقاقه من الأيام النحسات، ومن قال: هو تنهيس بالهاء فهو خطأ منه ذكره ابن درستويه النحوي، وذكر أن أصل ذلك متلقى من النصارى فإنهم يفعلونه عند قرب صيامهم، وهذا كله خطأ وجهل ممن ظنه، وربما لم يقتصر كثير منهم على اغتنام الشهوات المباحة، بل يتعدى إلى المحرمات وهذا هو الخسران المبين.

وأنشد لبعضهم:

إذا العشرون من ... فواصل شرب ليلك

ولا تشرب بأقداح ... فإن الوقت ضاق

وقال آخر

جاء شعبان منذرا ... فاسقياني راحا

ومن كانت هذه حاله فالبهائم أعقل منه، وله نصيب من قوله تعالى: (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها) الآية وربما كره كثير منهم صيام رمضان، حتى إن بعض السفهاء من الشعراء كان يسبّه، وكان للرشيد ابن سفيه فقال مرة:

دعاني شهر الصوم ... ولا صمت شهرا

فلوكان يعديني على الشهر

فأخذه داء الصرع، فكان يصرع في كل يوم مرات متعددة، ومات قبل أن يدركه رمضان آخر. وهؤلاء السفهاء يستثقلون رمضان لاستثقالهم العبادات فيه من الصلاة والصيام. فكثير من هؤلاء الجهال لا يصلي إلا في رمضان إذا صام، وكثير منهم لا يجتنب كبائر الذنوب إلا في رمضان، فيطول عليه ويشقّ على نفسه مفارقتها لمألوفها، فهو يعد الأيام والليالي ليعودوا إلى المعصية، وهؤلاء مصرّون على ما فعلوا وهم يعلمون، فهم هلكى. ومنهم من لا يصبر على المعاصي فهو يواقعها في رمضان وحكاية محمد بن هارون البلخي مشهورة، وقد رويت من وجوه. وهو أنه كان مصرا على شرب الخمر فجاء في آخر يوم من شعبان وهو سكران فعاتبته أمه وهي تسجر تنورا فحملها فألقاها في التنور فاحترقت. وكان بعد ذلك قد تاب وتعبّد، فرؤي له في النوم أن الله قد غفر للحاج كلهم سواه، فمن أراد الله به خيرا حبّب إليه الإيمان وزينه في قلبه، وكرّه إليه الكفر والفسوق والعصيان فصار من الراشدين، ومن أراد به شرا خلى بينه وبين نفسه فاتبعه الشيطان، فحبّب إليه الكفر والفسوق والعصيان فكان من الغاوين.

الحذر الحذر من المعاصي! فكم سلبت من نعم، وكم جلبت من نقم، وكم خربت من ديار، وكم أخلت ديارا من أهلها، فما بقي منهم ديار،كم أخذت من العصاة بالثار، كم محت لهم من آثار.

يا صاحب الذنب لا عواقب الذنب

فكل نفس ستجزى وليس للخلق من

أين حال هؤلاء الحمقى من قوم كان دهرهم كله رمضان، ليلهم قيام ونهارهم صيام، باع قوم من السلف جارية، فلما قرب شهر رمضان رأتهم يتأهبون له ويستعدون بالأطعمة وغيرها، فسألتهم؟ فقالوا: نتهيأ لصيام رمضان فقالت: وأنتم لا تصومون إلا رمضان؟ لقد كنت عند قوم كل زمانهم رمضان، ردوني عليهم.

باع الحسن بن صالح جارية له، فلما انتصف الليل قامت فنادتهم: يا أهل الدار الصلاة الصلاة. قالوا:

طلع الفجر؟ قالت: أنتم لا تصلون إلا المكتوبة؟ ثم جاءت الحسن فقالت: بعتني على قوم سوء لا يصلون إلا المكتوبة ردني ردني. قال بعض السلف: صم الدنيا واجعل فطرك الموت، الدنيا كلها شهر صيام المتقين، يصومون فيه عن الشهوات المحرمات، فإذا جاءهم الموت فقد انقضى شهر صيامهم واستهلوا عيد فطرهم.

وقد صمت عن ... ويوم لقاكم ذاك

من صام اليوم عن شهواته أفطر عليها بعد مماته، ومن تعجّل ما حرم عليه قبل وفاته عوقب بحرمانه في الآخرة وفواته، وشاهد ذلك قوله تعالى: (أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها) الآية وقول النبي ﷺ: (من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة، ومن لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة).

أنت في دار شتات ... فتأهب لشتاتك

واجعل الدنيا كيوم ... صمته عن شهواتك

وليكن فطرك عند ... ه في يوم وفاتك

في حديث مرفوع خرجه ابن أبي الدنيا: (لو يعلم العباد ما في رمضان لتمنت أمتي أن يكون رمضان السنة كلها) وكان النبي ﷺ يبشر أصحابه بقدوم رمضان كما خرجه الإمام أحمد والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يبشر أصحابه يقول: (قد جاءكم شهر رمضان شهر، مبارك كتب الله عليكم صيامه، فيه تفتح أبواب الجنان، وتغلق فيه أبواب الجحيم، وتغل فيه الشياطين، فيه ليلة خير من ألف شهر، من حرم خيرها فقد حرم). قال بعض العلماء: هذا الحديث أصل في تهنئة الناس بعضهم بعضا بشهر رمضان.

كيف لا يبشر المؤمن بفتح أبواب الجنان! كيف لا يبشر المذنب بغلق أبواب النيران! كيف لا يبشر العاقل بوقت يغل فيه الشيطان! من أين يشبه هذا الزمان زمان!. وفي حديث آخر: (أتاكم رمضان سيد الشهور، فمرحبا به وأهلا).

جاء شهر الصيام ... فأكرِم به من زائر

وروي أن النبي كان يدعو ببلوغ رمضان فكان إذا دخل رجب يقول: (اللهم بارك لنا في رجب وشعبان وبلغنا رمضان) خرجه الطبراني وغيره من حديث أنس. قال معلى بن الفضل:كانوا يدعون الله تعالى ستة أشهر أن يبلغهم رمضان، ثم يدعونه ستة أشهر أن يتقبل منهم. وقال يحيى بن أبي كثير: كان من دعائهم: اللهم سلمني إلى رمضان وسلم لي رمضان وتسلمه مني متقبلا.

بلوغ شهر رمضان وصيامه نعمة عظيمة على من أقدره الله عليه، ويدل عليه حديث الثلاثة الذين استشهد اثنان منهم ثم مات الثالث على فراشه بعدهما، فرؤي في المنام سابقا لهما فقال النبي : (أليس صلى بعدهما كذا وكذا صلاة، وأدرك رمضان فصامه ؟ ! فو الذي نفسي بيده إن بينهما لأبعد مما بين السماء والأرض) خرجه الإمام أحمد وغيره.

من رحم في رمضان فهو المرحوم، ومن حرم خيره فهو المحروم، ومن لم يتزود لمعاده فيه فهو ملوم.

أتى رمضان مزرعة لتطهير القلوب
فأد حقوقه قولا وزادك فاتخذه
فمن زرع الحبوب تأوه نادما يوم

يا من طالت غيبته عنا قد قربت أيام المصالحة! يا من دامت خسارته قد أقبلت أيام التجارة الرابحة! من لم يربح في هذا الشهر ففي أي وقت يربح؟ من لم يقرب فيه من مولاه فهو على بعده لا يربح.

أناس أعرضوا عنا بلا جرم ولا معنى
أساؤوا ظنهم فينا فهلا أحسنوا الظنا
فإن عادوا لنا عدنا وإن خانوا فما خنا
فإن كانوا قد فإنا عنهم أغنا

كم ينادي حي على الفلاح وأنت خاسر! كم تدعى إلى الصلاح وأنت على الفساد مثابر!.

إذا رمضان أتى فاقبل فبالخير
لعلك تخطئه قابلا وتأتي بعذر فلا

كم ممن أمل أن يصوم هذا الشهر فخانه أمله

فصار قبله إلى ظلمة القبر! كم من مستقبل يوما لا يستكمله! ومؤمل غدا لا يدركه! إنكم لو أبصرتم الأجل ومسيره لأبغضتم الأمل وغروره.

خطب عمر بن عبد العزيز آخر خطبة خطبها فقال فيها: إنكم لم تخلقوا عبثا ولن تتركوا سدى، وإن لكم معادا ينزل الله فيه للفصل بين عباده، فقد خاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء، وحرم جنة عرضها السموات والأرض. ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين وسيرتها بعدكم الباقون كذلك حتى ترد إلى خير الوارثين، وفي كل يوم تشيعون غاديا ورائحا إلى الله قد قضى نحبه وانقضى أجله، فتودعونه وتدعونه في صدع من الأرض غير موسد ولا ممهد، قد خلع الأسباب وفارق الأحباب وسكن التراب وواجه الحساب، غنيا عما خلف، فقيرا إلى ما أسلف. فاتقوا الله عباد الله! قبل نزول الموت وانقضاء مواقيته، وإني لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد من الذنوب أكثر مما أعلم عندي، ولكن أستغفر الله وأتوب إليه، ثم رفع طرف ردائه وبكى حتى شهق، ثم نزل فما عاد إلى المنبر بعدها حتى مات رحمة الله عليه.

يا ذا الذي ما كفاه	**حتى عصى ربه في**
لقد أظلك شهر	**فلا تصيره أيضا**
واتل القرآن وسبح	**فإنه شهر تسبيح**
فاحمل على جسد	**فسوف تضرم**
كم كنت تعرف	**من بين أهل**
أفناهم الموت	**حيا فما أقرب**
ومعجب بثياب العيد	**فأصبحت في غد**
حتى يعمر الإنسان	**مصير مسكنه قبر**

وظائف شهر رمضان المعظم

وفيه مجالس ـ المجلس الأول: في فضل الصيام

ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي قال: (كل عمل ابن آدم له، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال عز وجل: إلا الصيام

فإنه لي وأنا الذي أجزي به، إنه ترك شهوته وطعامه وشرابه من أجلي، للصائم فرحتان: فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك) وفي رواية: (كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي) وفي رواية للبخاري: (لكل عمل كفارة، والصوم لي وأنا الذي أجزي به) وخرجه الإمام أحمد من هذا الوجه ولفظه: (كل عمل ابن آدم له كفارة إلا الصوم والصوم لي وأنا أجزي به).

فعلى الرواية الأولى: يكون استثناء الصوم من الأعمال المضاعفة، فتكون الأعمال كلها تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصيام، فإنه لا ينحصر تضعيفه في هذا العدد بل يضاعفه الله عز وجل أضعافا كثيرة بغير حصر عدد، فإن الصيام من الصبر، وقد قال الله تعالى: (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) ولهذا ورد عن النبي : (أنه سمى شهر رمضان شهر الصبر) وفي حديث آخر عنه قال: (الصوم نصف الصبر) خرجه الترمذي.

والصبر ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله، وصبر عن محارم الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة.وتجتمع الثلاثة في الصوم، فإن فيه صبرا على طاعة الله، وصبرا عما حرم الله على الصائم من الشهوات، وصبرا على ما يحصل للصائم فيه من ألم الجوع والعطش وضعف النفس والبدن، وهذا الألم الناشئ من أعمال الطاعات يثاب عليه صاحبه كما قال الله تعالى في المجاهدين: (ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطؤون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح، إن الله لا يضيع أجر المحسنين) وفي حديث سلمان المرفوع الذي أخرجه ابن خزيمة في صحيحه في فضل شهر رمضان: (وهو شهر الصبر والصبر ثوابه الجنة) وفي الطبراني عن ابن عمر مرفوعا: (الصيام لا يعلم ثواب عمله إلا الله عز وجل) وروي مرسلا وهو أصح.

واعلم أن مضاعفة الأجر للأعمال تكون بأسباب:منها: شرف المكان المعمول فيه ذلك العمل كالحرم، ولذلك تضاعف الصلاة في مسجدي مكة

والمدينة، كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قال: (صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام) وفي رواية: (فإنه أفضل) وكذلك روي: (أن الصيام يضاعف بالحرم). وفي سنن ابن ماجة بإسناد ضعيف عن ابن عباس مرفوعا: (من أدرك رمضان بمكة فصامه وقام منه ما تيسر كتب الله له مائة ألف شهر رمضان فيما سواه) وذكر له ثوابا كثيرا.

ومنها: شرف الزمان، كشهر رمضان وعشر ذي الحجة. وفي حديث سلمان الفارسي المرفوع الذي أشرنا إليه في فضل شهر رمضان: (من تطوع فيه بخصلة من خصال الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه، ومن أدى فيه فريضة كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه) وفي الترمذي عن أنس: سئل النبي ﷺ أي الصدقة أفضل ؟ قال: (صدقة في رمضان) وفي الصحيحين عن النبي ﷺ قال: (عمرة في رمضان تعدل بحجة) أو قال: (حجة معي) وورد في حديث آخر: (أن عمل الصائم مضاعف) وذكر أبوبكر بن أبي مريم عن أشياخه أنهم كانوا يقولون: إذا حضر شهر رمضان فانبسطوا فيه بالنفقة، فإن النفقة فيه مضاعفة كالنفقة في سبيل الله، وتسبيحة فيه أفضل من ألف تسبيحة. في غيره قال النخعي: صوم يوم من رمضان أفضل من ألف يوم، وتسبيحة فيه أفضل من ألف تسبيحة، وركعة فيه أفضل من ألف ركعة.

فلما كان الصيام في نفسه مضاعفا أجره بالنسبة إلى سائر الأعمال كان صيام شهر رمضان مضاعفا على سائر الصيام لشرف زمانه، وكونه هو الصوم الذي فرضه الله على عباده، وجعل صيامه أحد أركان الإسلام التي بني الإسلام عليها، وقد يضاعف الثواب بأسباب أخر، منها: شرف العامل عند الله وقربه منه، وكثرة تقواه، كما ضوعف أجر هذه الأمة على أجور من قبلهم من الأمم، وأعطوا كفلين من الأجر.

وأما على الرواية الثانية: فاستثناء الصيام من بين الأعمال، يرجع إلى أن سائر الأعمال للعباد، والصيام

اختصه الله تعالى لنفسه من بين أعمال عباده وأضاف إليه، وسيأتي ذكر توجيه هذا الاختصاص إن شاء الله تعالى.

وأما على الرواية الثالثة: فالاستثناء يعود إلى التكفير بالأعمال، ومن أحسن ما قيل في معنى ذلك ما قاله سفيان بن عيينة رحمه الله قال: هذا من أجود الأحاديث وأحكمها: (إذا كان يوم يوم القيامة يحاسب الله عبده، ويؤدي ما عليه من المظالم من سائر عمله حتى لا يبقى إلا الصوم، فيتحمل الله عز وجل ما بقي عليه من المظالم، ويدخله بالصوم الجنة) خرجه البيهقي في شعب الإيمان وغيره.

وعلى هذا فيكون المعنى: أن الصيام لله عز وجل، فلا سبيل لأحد إلى أخذ أجره من الصيام، بل أجره مدخر لصاحبه عند الله عز وجل، وحينئذ فقد يقال: إن سائر الأعمال قد يكفر بها ذنوب صاحبها فلا يبقى لها أجر، فإنه روي: (أنه يوازن يوم القيامة بين الحسنات والسيئات، ويقص بعضها من بعض، فإن بقي من الحسنات حسنة دخل بها صاحبها إلى الجنة) قاله سعيد بن جبير وغيره، وفيه حديث مرفوع خرجه الحاكم من حديث ابن عباس مرفوعا، فيحتمل أن يقال في الصوم: إنه لا يسقط ثوابه بمقاصة ولا غيرها، بل يوفر أجره لصاحبه حتى يدخل الجنة فيوفى أجره فيها.

وأما قوله: (فإنه لي) فإن الله خص الصيام بإضافته إلى نفسه دون سائر الأعمال، وقد كثر القول في معنى ذلك من الفقهاء والصوفية وغيرهم، وذكروا فيه وجوها كثيرة، ومن أحسن ما ذكر فيه وجهان:

أحدهما: أن الصيام هو مجرد ترك حظوظ النفس وشهواتها الأصلية التي جبلت على الميل إليها لله عز وجل، ولا يوجد ذلك في عبادة أخرى غير الصيام، لأن الإحرام إنما يترك فيه الجماع ودواعيه من الطيب دون سائر الشهوات من الأكل والشرب، وكذلك الاعتكاف مع أنه تابع للصيام، وأما الصلاة فإنه وإن ترك المصلي فيها جميع الشهوات إلا أن مدتها لا تطول، فلا يجد المصلي فقد الطعام والشراب في صلاته، بل قد نهي أن يصلي ونفسه تشوق إلى طعام

بحضرته حتى يتناول منه ما يسكن نفسه، ولهذا أمر بتقديم العشاء على الصلاة.

وذهبت طائفة من العلماء إلى إباحة شرب الماء في صلاة التطوع، وكان ابن الزبير يفعله في صلاته وهو رواية عن الإمام أحمد، وهذا بخلاف الصيام فإنه يستوعب النهار كله، فيجد الصائم فقد هذه الشهوات، وتشوق نفسه إليها خصوصا في نهار الصيف لشدة حره وطوله. ولهذا روي: (أن من خصال الإيمان الصوم في الصيف) وقد كان رسول الله ﷺ يصوم رمضان في السفر في شدة الحر دون أصحابه، كما قال أبوالدرداء: كنا مع النبي ﷺ في رمضان في سفر، وأحدنا يضع يده على رأسه من شدة الحر، وما فينا صائم إلا رسول الله ﷺ وعبد الله بن رواحة. وفي الموطأ: إنه ﷺ كان بالعرج يصب الماء على رأسه وهو صائم من العطش أوالحر، فإذا اشتد توقان النفس إلى ما تشتهيه مع قدرتها عليه ثم تركته لله عز وجل في موضع لا يطلع عليه إلا الله. كان ذلك دليلا على صحة الإيمان، فإن الصائم يعلم أن له ربا يطلع عليه في خلوته، وقد حرم عليه أن يتناول شهواته المجبول على الميل إليها في الخلوة، فأطاع ربه وامتثل أمره، واجتنب نهيه خوفا من عقابه، ورغبة في ثوابه، فشكر الله تعالى له ذلك، واختص لنفسه عمله هذا من بين سائر أعماله، ولهذا قال بعد ذلك: (إنه إنما ترك شهواته وطعامه وشرابه من أجلي) قال بعض السلف: طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لموعد غيب لم يره.

لما علم المؤمن الصائم أن رضا مولاه في ترك شهواته قدم رضا مولاه على هواه، فصارت لذته في ترك شهواته لله لإيمانه باطلاع الله عليه، وثوابه أعظم من لذته في تناولها في الخلوة إيثارا لرضا ربه على هوى نفسه، بل المؤمن يكره ذلك في خلوته أشد من كراهته لألم الضرب، ولهذا كثير من المؤمنين لو ضرب على أن يفطر في شهر رمضان لغير عذر لم يفعل، لعلمه لكراهة الله لفطره في هذا الشهر، وهذا من علامات الإيمان أن يكره المؤمن ما

يلائمه من شهواته إذا علم أن الله يكره، فتصير لذته فيما يرضى مولاه، وإن كان مخالفا لهواه ويكون ألمه فيما يكره مولاه، وإن كان موافقا لهواه، وإذا كان هذا فيما حرم لعارض الصوم من الطعام والشراب ومباشرة النساء، فينبغي أن يتأكد ذلك فيما حرم على الإطلاق: كالزنا وشرب الخمر وأخذ الأموال أو الأعراض بغير حق وسفك الدماء المحرمة، فإن هذا يسخط الله على كل حال وفي كل زمان ومكان، فإذا كمل إيمان المؤمن كره ذلك كله أعظم من كراهته للقتل والضرب، ولهذا جعل النبي ﷺ من علامات وجود حلاوة الإيمان أن يكره أن يرجع إلى الكفر بعد أن أنقذه الله كما يكره أن يلقى في النار.

وقال يوسف عليه السلام: (رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه).

سئل ذوالنون المصري: متى أحب ربي ؟ قال: إذا كان ما يكرهه أمرّ عندك من الصبر. وقال غيره: ليس من أعلام المحبة أن تحب ما يكرهه حبيبك.

وكثير من الناس يمشي على العوائد دون ما يوجبه الإيمان ويقتضيه، فلهذا كثير منه لو ضرب ما أفطر في رمضان لغير عذر، ومن جهالهم من لا يفطر لعذر ولو تضرر بالصوم مع أن الله يحب منه أن يقبل رخصته جريا على العادة، وقد اعتاد مع ذلك ما حرم الله من الزنا وشرب الخمر وأخذ الأموال والأعراض أو الدماء بغير حق، فهذا يجري على عوائده في ذلك كله لا على مقتضى الإيمان، ومن عمل بمقتضى الإيمان صارت لذته في مصابرة نفسه عما تميل نفسه إليه إذا كان فيه سخط الله، وربما يرتقي إلى أن يكره جميع ما يكره الله منه، وينفر منه وإن كان ملائما للنفوس. كما قيل:

إن كان رضاكم في ... فسلام الله على

وقال آخر:

عذابه فيك عذاب ... وبعده فيك قرب

وأنت عندي ... بل أنت منها أحب

حسبي من الحب ... لما تحب أحب

الوجه الثاني: إن الصيام سر بين العبد وربه لا

يطلع عليه غيره، لأنه مركب من نية باطنة لا يطلع عليها إلا الله، وترك لتناول الشهوات التي يستخفى بتناولها في العادة، ولذلك قيل: لا تكتبه الحفظة. وقيل: إنه ليس فيه رياء. كذا قاله الإمام أحمد وغيره. وفيه حديث مرفوع مرسل، وهذا الوجه اختيار أبي عبيد وغيره، وقد يرجع إلى الأول فإن من ترك ما تدعوه نفسه إليه لله عز وجل حيث لا يطلع عليه غير من أمره ونهاه دل على صحة إيمانه، والله تعالى يحب من عباده أن يعاملوه سرا بينهم وبينه، وأهل محبته يحبون أن يعاملوه سرا بينهم وبينه، بحيث لا يطلع على معاملتهم إياه سواه حتى كان بعضهم يود لو تمكن من عبادة لا تشعر بها الملائكة الحفظة. وقال بعضهم: لما اطلع على بعض سرائره إنما كانت تطيب الحياة لما كانت المعاملة بيني وبينه سرا ثم دعا لنفسه بالموت فمات. المحبون يغارون من اطلاع الأغيار على الأسرار التي بينهم وبين من يحبهم ويحبونه.

نسيم صبا نجد متى تحيتهم فاطو
ولا تذع السر أغار على ذكر

وقوله: (ترك شهوته وطعامه وشرابه من أجلي): فيه إشارة إلى المعنى الذي ذكرناه، وأن الصائم تقرب إلى الله بترك ما تشتهيه نفسه من الطعام والشراب والنكاح، وهذه أعظم شهوات النفس، وفي التقرب بترك هذه الشهوات بالصيام فوائد:

منها: كسر النفس، فإن الشبع والري ومباشرة النساء تحمل النفس على الأشر والبطر والغفلة.

ومنها تخلي القلب للفكر والذكر، فإن تناول هذه الشهوات قد تقسي القلب وتعميه، وتحول بين العبد وبين الذكر والفكر، وتستدعي الغفلة، وخلو الباطن من الطعام والشراب ينور القلب، ويوجب رقته، ويزيل قسوته، ويخليه للذكر والفكر.

ومنها: أن الغني يعرف قدر نعمة الله عليه بإقداره له على ما منعه كثيرا من الفقراء من فضول الطعام والشراب والنكاح، فإنه بامتناعه من ذلك في وقت مخصوص، وحصول المشقة له بذلك يتذكر به من منع من ذلك على الإطلاق، فيوجب له ذلك شكر نعمة الله

عليه بالغنى، ويدعوه إلى رحمة أخيه المحتاج، ومواساته بما يمكن من ذلك.

ومنها: أن الصيام يضيق مجاري الدم التي هي مجاري الشيطان من ابن آدم، فإن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، فتسكن بالصيام وساوس الشيطان، وتنكسر سورة الشهوة والغضب، ولهذا جعل النبي (الصوم وجاء) لقطعه عن شهوة النكاح.

واعلم أنه لا يتم التقرب إلى الله تعالى بترك هذه الشهوات المباحة في غير حالة الصيام إلا بعد التقرب إليه، بترك ما حرم الله في كل حال من الكذب والظلم والعدوان على الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، ولهذا قال النبي –: (من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه) خرجه البخاري وفي حديث آخر: (ليس الصيام من الطعام والشراب إنما الصيام من اللغو والرفث). قال الحافظ أبوموسى المديني: على شرط مسلم. قال بعض السلف: أهون الصيام ترك الشراب والطعام. وقال جابر: إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك عن الكذب والمحارم، ودع أذى الجار، وليكن عليك وقار وسكينة يوم صومك، ولا تجعل يوم صومك ويوم فطرك سواء.

إذا لم يكن في وفي بصري غض
فحظي إذا من فإن قلت إني

وقال النبي : (رب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش، ورب قائم حظه من قيامه السهر) وسر هذا: أن التقرب إلى الله تعالى بترك المباحات لا يكمل إلا بعد التقرب إليه بترك المحرمات، فمن ارتكب المحرمات ثم تقرب إلى الله تعالى بترك المباحات كان بمثابة من يترك الفرائض ويتقرب بالنوافل، وإن كان صومه مجزئا عند الجمهور، بحيث لا يؤمر بإعادته لأن العمل إنما يبطل بارتكاب ما نهي عنه فيه لخصوصه دون ارتكاب ما نهي عنه لغير معنى يختص به. هذا هو قول جمهور العلماء.

وفي مسند الإمام أحمد: أن امرأتين صامتا في

عهد النبي فكادتا أن تموتا من العطش فذكر ذلك للنبي فأعرض، ثم ذكرتا له فدعاهما فأمرهما أن تتقيآ، فقاءتا ملء قدح قيحا ودما وصديدا ولحما عبيطا، فقال النبي : (إن هاتين صامتا عما أحل الله لهما، وأفطرتا على ما حرم الله عليهما، جلست إحداهما إلى الأخرى فجعلتا تأكلان في لحوم الناس).

ولهذا المعنى والله أعلم ورد في القرآن بعد ذكر تحريم الطعام والشراب على الصائم بالنهار ذكر تحريم أكل أموال الناس بالباطل، فإن تحريم هذا عام في كل زمان ومكان، بخلاف الطعام والشراب فكان إشارة إلى أن من امتثل أمر الله في اجتناب الطعام والشراب في نهار صومه، فليمتثل أمره في اجتناب أكل الأموال بالباطل، فإنه محرم بكل حال لا يباح في وقت من الأوقات.

وقوله : (وللصائم فرحتان: فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه) أما فرحة الصائم عند فطره، فإن النفوس مجبولة على الميل إلى ما يلائمها من مطعم ومشرب ومنكح، فإذا منعت من ذلك في وقت من الأوقات ثم أبيح لها في وقت آخر، فرحت بإباحة ما منعت منه، خصوصا عند اشتداد الحاجة إليه، فإن النفوس تفرح بذلك طبعا. فإن كان ذلك محبوبا لله كان محبوبا شرعا، والصائم عند فطره كذلك فكما أن الله تعالى حرم على الصائم في نهار الصيام تناول هذه الشهوات فقد أذن له فيها في ليل الصيام، بل أحب منه المبادرة إلى تناولها في أول الليل وآخره، فأحب عباده إليه أعجلهم فطرا، والله وملائكته يصلون على المتسحرين، فالصائم ترك شهواته لله بالنهار تقربا إلى الله وطاعة له، وبادر إليها في الليل تقربا إلى الله وطاعة له، فما تركها إلا بأمر ربه، ولا عاد إليها إلا بأمر ربه، فهو مطيع له في الحالين.

ولهذا نهى عن الوصال في الصيام، فإذا بادر الصائم إلى الفطر تقربا إلى مولاه، وأكل وشرب وحمد الله فإنه يرجى له المغفرة أو بلوغ الرضوان بذلك. وفي الحديث: (إن الله ليرضى عن عبده أن

يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها) وربما استجيب دعاؤه عند ذلك كما جاء في الحديث المرفوع الذي خرجه ابن ماجه: (إن للصائم عند فطره دعوة ما ترد، وإن نوى بأكله وشربه تقوية بدنه على القيام والصيام كان مثابا على ذلك، كما أنه إذا نوى بنومه في الليل والنهار التقوّي على العمل كان نومه عبادة) وفي حديث مرفوع: (نوم الصائم عبادة). قالت حفصة بنت سيرين: قال أبوالعالية: الصائم في عبادة ما لم يغتب أحدا وإن كان نائما على فراشه، فكانت حفصة تقول: يا حبذا عبادة وأنا نائمة على فراشي. خرجه عبد الرزاق.

فالصائم في ليله ونهاره في عبادة، ويستجاب دعاؤه في صيامه وعند فطره، فهو في نهاره صائم صابر، وفي ليله طاعم شاكر. وفي الحديث الذي خرجه الترمذي وغيره: (الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر) ومن فهم هذا الذي أشرنا إليه لم يتوقف في معنى فرح الصائم عند فطره، فإن فطره على الوجه المشار إليه من فضل الله ورحمته، فيدخل في قول الله تعالى: (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) ولكن شرط ذلك أن يكون فطره على حلال، فإن كان فطره على حرام كان ممن صام عما أحل الله، وأفطر على ما حرم الله، ولم يستجب له دعاء كما قال النبي في الذي يطيل السفر، يمد يديه إلى السماء: يا رب! يا رب! ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذّي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك!).

فرحة الصائم عند لقاء ربه

وأما فرحه عند لقاء ربه: فيما يجده عند الله من ثواب الصيام مدخرا، فيجده أحوج ما كان إليه كما قال تعالى: (وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا) وقال تعالى: (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا) وقال: (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره) وقد تقدم قول ابن عيينة: أن ثواب الصيام لا يأخذه الغرماء في المظالم، بل يدخره الله عنده للصائم حتى يدخله به الجنة. وفي المسند

عن عقبة بن عامر عن النبي قال: (ليس من عمل يوم إلا يختم عليه).

وعن عيسى عليه السلام قال: إن هذا الليل والنهار خزانتان فانظروا ما تضعون فيهما، فالأيام خزائن للناس ممتلئة بما خزنوه فيها من خير وشر، وفي يوم القيامة تفتح هذه الخزائن لأهلها، فالمتقون يجدون في خزائنهم العز والكرامة، والمذنبون يجدون في خزائنهم الحسرة والندامة.

والصائمون على طبقتين: إحداهما: من ترك طعامه وشرابه وشهوته لله تعالى، يرجو عنده عوض ذلك في الجنة، فهذا قد تاجر مع الله وعامله والله تعالى (لا نضيع أجر من أحسن عملا) ولا يخيب معه من عامله بل يربح عليه أعظم الربح، وقال رسول الله : (إنك لن تدع شيئا اتقاء الله إلا آتاك الله خيرا منه) خرجه الإمام أحمد. فهذا الصائم يعطى في الجنة ما شاء الله من طعام وشراب ونساء. قال الله تعالى: (كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية) قال مجاهد وغيره: نزلت في الصائمين.

قال يعقوب بن يوسف الحنفي: بلغنا أن الله تعالى يقول لأوليائه يوم القيامة: يا أوليائي طالما نظرت إليكم في الدنيا وقد قلصت شفاهكم عن الأشربة، وغارت أعينكم، وجفت بطونكم، كونوا اليوم في نعيمكم، وتعاطوا الكأس فيما بينكم: (كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية). وقال الحسن: تقول الحوراء لولي الله وهو متكئ معها على نهر العسل تعاطيه الكأس: إن الله نظر إليك في يوم صائف بعيد ما بين الطرفين، وأنت في ظمأ هاجرة من جهد العطش، فباهى بك الملائكة وقال: انظروا إلى عبدي ترك زوجته وشهوته ولذته وطعامه وشرابه من أجلي، رغبة فيما عندي، اشهدوا إني قد غفرت له، فغفر لك يومئذ وزوجنيك.

وفي الصحيحين عن النبي قال: (إن في الجنة بابا يقال له الريان، يدخل منه الصائمون لا يدخل منه غيرهم) وفي رواية: (فإذا دخلوا أغلق) وفي رواية: (من دخل منه شرب ومن شرب لم يظمأ أبدا) وفي

حديث عبد الرحمن بن سمرة عن النبي في منامه الطويل قال: ورأيت رجلا من أمتي يلهث عطشا، كلما ورد حوضا منع منه، فجاءه صيام رمضان فسقاه وأرواه) خرجه الطبراني وغيره.

وروى ابن أبي الدنيا بإسناد فيه ضعف، عن أنس مرفوعا: (الصائمون ينفح من أفواههم ريح المسك، ويوضع لهم مائدة تحت العرش يأكلون منها والناس في الحساب).

وعن أنس موقوفا: إن لله مائدة لم تر مثلها عين، ولم تسمع أذن، ولا خطر على قلب بشر، لا يقعد عليها إلا الصائمون) وعن بعض السلف قال: بلغنا أنه يوضع للصوام مائدة يأكلون عليها والناس في الحساب. فيقولون: يا رب نحن نحاسب وهم يأكلون. فيقال: إنهم طالما صاموا وأفطرتم، وقاموا ونمتم.

رأى بعضهم بشر بن الحارث في المنام وبين يديه مائدة وهو يأكل. ويقال له: كل يا من لم يأكل، واشرب يا من لم يشرب.كان بعض الصالحين قد صام حتى انحنى وانقطع صوته فمات، فرآه بعض أصحابه في المنام فسئل عن حاله فضحك، وأنشد:

قد كسي حلة بأباريق حوله
ثم حلي وقيل يا فلعمري لقد براك

اجتاز بعض الصالحين بمناد ينادي على السحور في رمضان: يا ما خيأنا للصوام، فتنبه بهذه الكلمة وأكثر من الصيام. رأى بعض العارفين في منامه كأنه أدخل الجنة فسمع قائلا يقول له: هل تذكر أنك صمت لله يوما قط؟ فقال: نعم. قال: فأخذتني صواني النثار من الجنة، من ترك لله في الدنيا طعاما وشرابا وشهوة مدة يسيرة عوضه الله عنده طعاما وشرابا لا ينفذ، وأزواجا لا يمتن أبدا. شهر رمضان فيه يزوج الصائمون في الحديث: (إن الجنة لتزخرف وتنجد من الحول إلى الحول لدخول رمضان، فتقول الحور: يا رب اجعل لنا في هذا الشهر من عبادك أزواجا تقرّ أعيننا بهم، وتقرّ أعينهم بنا) وفي حديث آخر (أن الحور ينادين في شهر رمضان: هل من خاطب إلى الله فنزوجه)

مهور الحور العين: طول التهجد، وهو حاصل في

شهر رمضان أكثر من غيره. كان بعض الصالحين كثير التهجد والصيام، فصلى ليلة في المسجد ودعا فغلبته عيناه فرأى في منامه جماعة علم أنهم ليسوا من الآدميين، بأيديهم أطباق عليها أرغفة، بياض الثلج فوق كل رغيف، درّ كأمثال الرمان، فقالوا: كل. فقال: إني أريد الصوم. قالوا له: يأمرك صاحب هذا البيت أن تأكل. قال: فأكلت وجعلت آخذ ذلك الدر لاحتمله، فقالوا له: دعه نغرسه لك شجرا ينبت لك خيرا من هذا. قال: أين ؟ قالوا: في دار لا تخرب، وثمر لا يتغير، وملك لا ينقطع، وثياب لا تبلى فيها رضوى، وعينا، وقرة أعين، أزواج رضيات مرضيات، راضيات لا يَغرن ولا يُغرن، فعليك بالانكماش فيما أنت، فإنما هي غفوة حتى ترتحل، فتنزل الدار. فما مكث بعد هذه الرؤيا إلا جمعتين حتى توفي. فرآه ليلة وفاته في المنام بعض أصحابه الذين حدثهم برؤياه وهو يقول: لا تعجب من شجر غرس لي في يوم حدثتك وقد حمل. فقال له: ما حمل ؟ قال: لا تسأل، لا يقدر أحد على صفته، لم ير مثل الكريم إذا حل به مطيع.

يا قوم ألا خاطب في هذا الشهر إلى الرحمن! ألا راغب فيما أعده الله للطائعين في الجنان! ألا طالب لما أخبر به من النعيم المقيم مع أنه ليس الخبر كالعيان!.

من يرد ملك الجنان ... فليدع عنه التواني
وليقم في ظلمة ... ل إلى نور القرآن
وليصل صوما ... إن هذا العيش
إنما العيش جوار ... ه في دار الأمان

الطبقة الثانية من الصائمين: من يصوم في الدنيا عما سوى الله، فيحفظ الرأس وما حوى، ويحفظ البطن وما وعى، ويذكر الموت والبلى، ويريد الآخرة فيترك زينة الدنيا، فهذا عيد فطره يوم لقاء ربه وفرحه برؤيته:

أهل الخصوص من ... صون اللسان عن
والعارفون وأهل ... صون القلوب عن

العارفون لا يسليهم عن رؤية مولاهم قصر، ولا

يرويهم دون مشاهدته نهر، هممهم أجلّ من ذلك:

كبرت همة عبد طمعت في أن

من يصم عن فصيامي عمن

من صام عن شهواته في الدنيا أدركها غدا في الجنة، ومن صام عما سوى الله فعيده يوم لقائه، من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت.

وقد صمت عن ويوم لقاكم ذاك

رؤي بشر في المنام فسئل عن حاله ؟ فقال: علم قلة رغبتي في الطعام فأباحني النظر إليه. وقيل لبعضهم: أين نطلبك في الآخرة ؟ قال: في زمرة الناظرين إلى الله. قيل له: كيف علمت ذلك ؟ قال: بغض طرفي له عن كل محرم، وباجتنابي فيه كل منكر ومأثم، وقد سألته أن يجعل جنتي النظر إليه.

يا حبيب القلوب ارحم اليوم مذنبا

ليس لي في غير أني أريدها

يا معشر التائبين صوموا اليوم عن شهوات الهوى لتدركوا عيد الفطر يوم اللقاء، لا يطولن عليكم الأمل باستبطاء الأجل، فإن معظم نهار الصيام قد ذهب، وعيد اللقاء قد اقترب.

إن يوما جامعا ذاك عيدي ليس لي

وقوله: (ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك)، خلوف الفم: رائحة ما يتصاعد منه من الأبخرة لخلو المعدة من الطعام بالصيام، وهي رائحة مستكرهة في مشام الناس في الدنيا، لكنها طيبة عند الله، حيث كانت ناشئة عن طاعته، وابتغاء مرضاته، كما أن دم الشهيد يجيء يوم القيامة يثغب دما، لونه لون الدم، وريحه ريح المسك، وبهذا استدل من كره السواك للصائم، أولم يستحبه من العلماء. وأول من علمناه استدل بذلك عطاء بن أبي رباح، وروي عن أبي هريرة: أنه استدل به لكن من وجه لا يثبت. وفي المسألة خلاف مشهور بين العلماء. وإنما كرهه من كرهه في آخر نهار الصوم، لأنه وقت خلو المعدة وتصاعد الأبخرة. وهل وقت الكراهة بصلاة العصر ؟ أو بزوال الشمس ؟ أو بفعل صلاة الظهر

في أول وقتها ؟ على أقوال ثلاثة: والثالث: هو المنصوص عن أحمد.

وفي طيب ريح خلوف الصائم عند الله عز وجل معنيان:

أحدهما: أن الصيام لما كان سرا بين العبد وبين ربه في الدنيا أظهره الله في الآخرة علانية للخلق، ليشتهر بذلك أهل الصيام، ويعرفون بصيامهم بين الناس جزاء لإخفائهم صيامهم في الدنيا. وروى أبوالشيخ الأصبهاني بإسناد فيه ضعف عن أنس مرفوعا: (يخرج الصائمون من قبورهم يعرفون بريح أفواههم، أفواههم أطيب من ريح المسك) حكي عن سهل بن عبد الله التستري الزاهد رحمه الله: أنه كان يواظب على الصيام، فمرّ يوما بثمار، وبين يديه رطب حسن، فاشتهت نفسه فردّ شهوتها فقالت نفسه: فعلت بي كل بلية من سهر الليالي، وظمأ الهواجر، فأعطني هذه الشهوة واستعملني في الطاعة كيف شئت. فاشترى سهل من الرطب وخبز الحواري وقليل شوى ودخل موضعا ليأكل، فإذا رجلان يختصمان فقال أحدهما: إني محقّ وأنت مبطل، أتريد أن أحلف لك أني محق؟ وأن الأمر على ما زعمت؟ قال: بلى! فحلف قال: وحق الصائمين إني محق في دعواي. فقال: هذا مبعوث الحق تعالى إلى هذا السوط بي، ثم أخذ بلحيته وقال: يا سهل! بلغ من شرفك وشرف صومك حتى يحلف العباد بصومك فيقول: وحق الصائمين! فيقول: وحق الصائمين ثم تفطر أنت على قليل رطب. والله أعلم.

قال مكحول: يروح أهل الجنة برائحة فيقولون: ربنا ما وجدنا ريحا منذ دخلنا الجنة أطيب من هذه الريح. فيقال: هذه رائحة أفواه الصوام، وقد تفوح رائحة الصيام في الدنيا وتستنشق قبل الآخرة. وهو نوعان:

أحدهما: ما يدرك بالحواس الظاهرة، كان عبد الله بن غالب من العبّاد المجتهدين في الصلاة والصيام، فلما دفن كان يفوح من تراب قبره رائحة المسك، فرؤي في المنام فسئل عن تلك الرائحة التي توجد من قبره؟ فقال: تلك رائحة التلاوة والظمأ.

والنوع الثاني: ما تستنشقه الأرواح والقلوب،

فيوجب ذلك للصائمين المخلصين المودة والمحبة في قلوب المؤمنين. وحديث الحارث الأشعري عن النبي ﷺ: أن زكريا عليه السلام قال لبني إسرائيل: آمركم بالصيام، فإن مثل ذلك كمثل رجل في عصابة معه صرة فيها مسك، فكلهم تعجبه ريحه، وأن ريح الصيام أطيب عند الله من ريح المسك) خرجه الترمذي وغيره.

لما كان أمر المخلصين بصيامهم لمولاهم سرا بينه وبينهم أظهر الله سرّهم لعباده، فصار علانية، فصار هذا التجلّي والإظهار جزاء لذلك الصون والإسرار. في الحديث: (ما أسرّ أحد سريرة إلا ألبسه الله رداءها علانية) قال يوسف بن أسباط: أوحى الله تعالى إلى نبي من الأنبياء: قل لقومك يخفون لي أعمالهم وعليّ إظهارها لهم.

تذلل أرباب الهوى وفقرهم نحوي
وسترهم فيه وغير تلاف النفس

والمعنى الثاني: أن من عبد الله وأطاعه وطلب رضاه في الدنيا بعمل، فنشأ من عمله آثار مكروهة للنفوس في الدنيا، فإن تلك الآثار غير مكروهة عند الله، بل هي محبوبة له وطيبة عنده، لكونها نشأت عن طاعته واتباع مرضاته، فإخباره بذلك للعاملين في الدنيا فيه تطييب لقلوبهم، لئلا يكره منهم ما وجد في الدنيا. قال بعض السلف: وعد الله موسى ثلاثين ليلة أن يكلمه على رأسها فصام ثلاثين يوما، ثم وجد من فيه خلوفا، فكره أن يناجي ربه على تلك الحال، فأخذ سواكا فاستاك به، فلما أتى لموعد الله إياه قال له: يا موسى أما علمت إن خلوف فم الصائم أطيب عندنا من ريح المسك، ارجع فصم عشرة أخرى.

ولهذا المعنى كان دم الشهيد ريحه يوم القيامة كريح المسك، وغبار المجاهدين في سبيل الله ذريرة أهل الجنة.

ورد في حديث مرسل. كل شيء ناقص في عرف الناس في الدنيا حتى إذا انتسب إلى طاعته ورضاه، فهو الكامل في الحقيقة.

خلوف أفواه الصائمين له أطيب من ريح المسك،

عري المحرمين لزيارة بيته أجمل من لباس الحلل، نوح المذنبين على أنفسهم من خشيته أفضل من التسبيح، انكسار المخبتين لعظمته هو الجبر، ذل الخائفين من سطوته هو العز، تهتك المحبين في محبته أحسن من الستر، بذل النفوس للقتل في سبيله هو الحياة، جوع الصائمين لأجله هو الشبع، عطشهم في طلب مرضاته هو الريّ، نصب المجتهدين في خدمته هو الراحة.

ذِل الفتى في وخضوعه لحبيبه

هبت اليوم على القلوب نفحة من نفحات نسيم القرب، سعى سمسار المواعظ للمهجورين في الصلح، وصلت البشارة للمنقطعين بالوصل، وللمذنبين بالعفو، والمستوجبين النار بالعتق، لما سلسل الشيطان في شهر رمضان، وخمدت نيران الشهوات بالصيام انعزل سلطان الهوى، وصارت الدولة لحاكم العقل بالعدل، فلم يبق للعاصي عذر.

يا غيوم الغفلة عن القلوب تقشعي، يا شموس التقوى والإيمان اطلعي، يا صحائف أعمال الصائمين ارتفعي، يا قلوب الصائمين اخشعي، يا أقدام المتهجدين اسجدي لربك واركعي، يا عيون المجتهدين لا تهجعي، يا ذنوب التائبين لا ترجعي، يا أرض الهوى ابلعي ماءك ويا سماء النفوس أقلعي، يا بروق العشاق للعشاق المعي، يا خواطر العارفين ارتعي، يا همم المحبين بغير الله لا تقنعي، يا جنيد اطرب، يا شبلي احضر، يا رابعة اسمعي، قد مدت في هذه الأيام موائد الإنعام للصوام، فما منكم إلا من دعي، (يا قومنا أجيبوا داعي الله) ويا همم المؤمنين اسرعي، فطوبى لمن أجاب فأصاب، وويل لمن طرد عن الباب وما دعي.

ليت شعري إن أم تراهم عن بابهم

أم تراني إذا وقفت يأذنوا بالدخول أم

المجلس الثاني:

في فضل الجود في رمضان وتلاوة القرآن

في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي أجود الناس وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن،

وكان جبريل يلقاه كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فرسول الله حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة) وخرجه الإمام أحمد بزيادة في آخره وهي: (لا يسأل عن شيء إلا أعطاه) الجود: هو سعة العطاء وكثرته والله تعالى يوصف بالجود وفي الترمذي من حديث سعد بن أبي وقاص عن النبي : (إن الله جواد يحب الجود كريم يحب الكرم) وفيه أيضا من حديث أبي ذر رضي الله عنه عن النبي : (عن ربه قال: يا عبادي لو أن أولكم وأخركم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم اجتمعوا في صعيد واحد، فسأل كل إنسان منكم ما بلغت أمنيته فأعطيت كل سائل منكم ما نقص ذلك من ملكي إلا كما لو أن أحدكم مر بالبحر فغمس فيه إبرة ثم رفعها إليه، ذلك بأني جواد واجد ماجد أفعل ما أريد، عطائي كلام وعذابي كلام إنما أمري لشيء إذا أردت أن أقول له: كن فيكون).

وفي الأثر المشهور عن فضيل بن عياض: أن الله تعالى يقول كل ليلة: أنا الجواد ومني الجود أنا الكريم ومني الكرم. فالله سبحانه وتعالى أجود الأجودين، وجوده يتضاعف في أوقات خاصة كشهر رمضان وفيه أنزل قوله (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان) وفي الحديث الذي خرجه الترمذي وغيره: (أنه ينادي فيه مناديا يا باغي الخير هلم ويا باغي الشرّ أقصر) ولله عتقاء من النار، وذلك في كل ليلة. ولما كان الله عز وجل قد جبل نبيه على أكمل الأخلاق وأشرفها كما في حديث أبي هريرة عن النبي قال: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) وذكره مالك في الموطأ بلاغا: (فكان رسول الله أجود الناس كلهم) وخرج ابن عدي بإسناد فيه ضعف من حديث أنس مرفوعا: (ألا أخبركم بالأجود الأجود، الله الأجود الأجود، وأنا أجود بني آدم وأجودهم من بعدي رجل علم علما فنشر علمه، يبعث يوم القيامة أمة وحده، ورجل جاد بنفسه

في سبيل الله) فدل هذا على أنه أجود بني آدم على الإطلاق، كما أنه أفضلهم وأعلمهم وأشجعهم وأكملهم في جميع الأوصاف الحميدة. وكان جوده بجميع أنواع الجود من بذل العلم والمال وبذل نفسه لله تعالى في إظهار دينه وهداية عباده وإيصال النفع إليهم بكل طريق من إطعام جائعهم ووعظ جاهلهم وقضاء حوائجهم وتحمل أثقالهم، ولم يزل على هذه الخصال الحميدة منذ نشأ، ولهذا قالت له خديجة في أول مبعثه: والله لا يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم، وتقري الضيف، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق، ثم تزايدت هذه الخصال فيه بعد البعثة وتضاعفت أضعافا كثيرة.

وفي الصحيحين عن أنس قال: (كان رسول الله أحسن الناس وأشجع الناس وأجود الناس) وفي صحيح مسلم عنه قال: (ما سئل رسول الله على الإسلام شيئا إلا أعطاه، فجاء رجل فأعطاه غنما بين جبلين فرجع إلى قومه فقال: يا قوم أسلموا فإن محمدا يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة) وفي رواية: (أن رجلا سأل النبي غنما بين جبلين فأعطاه إياه فأتى قومه فقال: يا قوم أسلموا فإن محمدا يعطي عطاء ما يخاف الفقر) قال أنس: إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا فما يمسي حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها. وفيه أيضا عن صفوان بن أمية قال: لقد أعطاني رسول الله ما أعطاني وأنه لمن أبغض الناس إليّ فما برح يعطيني حتى إنه لأحبّ الناس إليّ) قال ابن شهاب: أعطاه يوم حنين مائة من النعم ثم مائة ثم مائة، وفي مغازي الواقدي: أن النبي أعطى صفوان يومئذ واديا مملوء إبلا ونعما، فقال صفوان: أشهد ما طابت بهذا إلا نفس نبي.

وفي الصحيحين عن جبير بن مطعم: أن الأعراب علقوا بالنبي مرجعه من حنين يسألونه أن يقسم بينهم فقال: لو كان لي عدد هذه العضاة نعما

لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلا ولا كذوبا ولا جبانا) وفيهما عن جابر قال: ما سئل رسول الله ﷺ شيئا فقال: لا وإنه قال لجابر: لو جاءنا مال البحرين لقد أعطيتك هكذا وهكذا وهكذا وقال: بيديه جميعا) وخرج البخاري من حديث سهل بن سعد: إن شملة أهديت للنبي ﷺ فلبسها وهو محتاج إليها، فسأله إياها رجل فأعطاه، فلامه الناس وقالوا: كان محتاجا إليها وقد علمت أنه لا يرد سائلا. فقال: إنما سألتها لتكون كفني فكانت كفنه).

وكان جوده ﷺ كله لله وفي ابتغاء مرضاته، فإنه كان يبذل المال إما لفقير أو محتاج أو ينفقه في سبيل الله أو يتألف به على الإسلام من يقوي الإسلام بإسلامه، وكان يؤثر على نفسه وأهله وأولاده فيعطي عطاء يعجز عنه الملوك مثل كسرى وقيصر، ويعيش في نفسه عيش الفقراء، فيأتي عليه الشهر والشهران لا يوقد في بيته نار وربما ربط على بطنه الحجر من الجوع، وكان قد أتاه سبي مرة فشكت إليه فاطمة ما تلقي من خدمة البيت، وطلبت منه خادما يكفيها مؤنة بيتها. فأمرها أن تستعين بالتسبيح والتكبير والتحميد عند نومها وقال: (لا أعطيك وأدع أهل الصفة تطوي بطونهم من الجوع) وكان جوده ﷺ يتضاعف في شهر رمضان على غيره من الشهور، كما أن جود ربه تضاعف فيه أيضا، فإن الله جبله على ما يحبه من الأخلاق الكريمة، وكان على ذلك من قبل البعثة، وذكر ابن إسحاق عن وهب بن كيسان عن عبيد بن عمير قال: كان رسول الله ﷺ يجاور في حراء من كل سنة شهرا، يطعم من جاءه من المساكين حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله به ما أراد من كرامته من السنة التي بعثه فيها، وذلك الشهر شهر رمضان خرج إلى حراء كما يخرج لجواره معه أهله حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله تعالى برسالته، ورحم العباد بها. جاءه جبريل من الله عز وجل ثم كان بعد الرسالة جوده في رمضان أضعاف ما كان قبل ذلك، فإنه كان يلتقي هو وجبريل عليه

السلام وهو أفضل الملائكة وأكرمهم ويدارسه الكتاب الذي جاء به إليه وهو أشرف الكتب وأفضلها وهو يحث على الإحسان ومكارم الأخلاق، وقد كان رسول الله هذا الكتاب له خلقا بحيث يرضى لرضاه، ويسخط لسخطه ويسارع إلى ما حث عليه ويمتنع مما زجر عنه.

فلهذا كان يتضاعف جوده وإفضاله في هذا الشهر لقرب عهده بمخالطة جبريل عليه السلام وكثرة مدارسته له هذا الكتاب الكريم الذي يحث على المكارم والجود، ولا شك إن المخالطة تؤثر وتورث أخلاقا من المخالطة.

كان بعض الشعراء قد امتدح ملكا جوادا فأعطاه جائزة سنية فخرج بها من عنده وفرقها كلها على الناس فأنشد:

لمست بكفي كفه ولم أدر أن الجود
فبلغ ذلك الملك فأضعف له الجائزة.

وقد قال بعض الشعراء يمتدح بعض الأجواد ولا يصلح أن يكون ذلك إلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

تعود بسط الكف ثناها لقبض لم
تراه إذا ما جئته كأنك تعطيه الذي
هو البحر من أي فلجته المعروف
ولو لم يكن في كفه لجاد بها فليتق الله

سمع الشبلي قائلا يقول: يا الله يا جواد، فتأوّه وصاح وقال: كيف يمكنني أن أصف الحق بالجود ومخلوق يقول في شكله، فذكر هذه الأبيات ثم بكى وقال: بلى! يا جواد فإنك أوجدت تلك الجوارح، وبسطت تلك الهمم، فأنت الجواد كل الجود، فإنهم يعطون عن محدود، وعطاؤك لا حد له ولا صفة، فيا جوادا يعلو كل جواد وبه جاد كل من جاد.

وفي تضاعف جوده في شهر رمضان بخصوصه فوائد كثيرة:

منها: شرف الزمان ومضاعفة أجر العمل فيه، وفي الترمذي عن أنس مرفوعا: (أفضل الصدقة صدقة رمضان).

ومنها: إعانة الصائمين والقائمين والذاكرين على طاعتهم، فيستوجب المعين لهم مثل أجرهم، كما أن من جهز غازيا فقد غزا، ومن خلفه في أهله فقط غزا، وفي حديث زيد بن خالد عن النبي قال: (من فطر صائما فله مثل أجره من غير أن ينقص من أجر الصائم شيء) خرجه الإمام أحمد والنسائي والترمذي وابن ماجه وخرجه الطبراني من حديث عائشة وزاد: (وما عمل الصائم من أعمال البر إلا كان لصاحب الطعام ما دام قوة الطعام فيه). وخرج ابن خزيمة في صحيحه من حديث سلمان مرفوعا حديثا في فضل شهر رمضان وفيه:(وهو شهر المواساة، وشهر يزاد فيه في رزق المؤمن، من فطّر فيه صائما كان مغفرة لذنوبه، وعتق رقبته من النار، وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شيء. قالوا: يا رسول الله! ليس كلنا يجد ما يفطر الصائم ؟ قال: يعطي الله هذا الثواب لمن فطر صائما على مذقة لبن أو تمرة أو شربة ماء، ومن أشبع فيه صائما سقاه الله من حوضي شربة لا يظمأ بعدها حتى يدخل الجنة).

ومنها: أن شهر رمضان شهر يجود الله فيه على عباده بالرحمة والمغفرة والعتق من النار، لا سيما في ليلة القدر، والله تعالى يرحم من عباده الرحماء كما قال : (إنما يرحم الله من عباده الرحماء) فمن جاد على عباد الله جاد الله عليه بالعطاء والفضل، والجزاء من جنس العمل.

ومنها: أن الجمع بين الصيام والصدقة من موجبات الجنة كما في حديث علي رضي الله عنه عن النبي قال: (إن في الجنة غرفا يُرى ظهورها من بطونها، و بطونها من ظهورها قالوا: لمن هي يا رسول الله ؟ قال: لمن طيب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلى بالليل والناس نيام) وهذه الخصال كلها تكون في رمضان، فيجتمع فيه للمؤمن الصيام والقيام والصدقة وطيب الكلام، فإنه ينهى فيه الصائم عن اللغو والرفث. والصيام والصلاة والصدقة توصل صاحبها إلى الله عز وجل. قال بعض السلف:

الصلاة توصل صاحبها إلى نصف الطريق، والصيام يوصله إلى باب الملك، والصدقة تأخذ بيده فتدخله على الملك.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي أنه قال: (من أصبح منكم اليوم صائما ؟ قال أبوبكر: أنا. قال: من تبع منكم اليوم جنازة ؟ قال أبوبكر: أنا. قال: من تصدق بصدقة ؟ قال أبوبكر: أنا. قال: فمن عاد منكم مريضا ؟ قال أبوبكر: أنا. قال: ما اجتمعن في امرىء إلا دخل الجنة).

ومنها: أن الجمع بين الصيام والصدقة أبلغ في تكفير الخطايا واتقاء جهنم والمباعدة عنها، وخصوصا إن ضم إلى ذلك قيام الليل، فقد ثبت عن رسول الله أنه قال: (الصيام جُنة) وفي رواية: (جُنة أحدكم من النار كجُنته من القتال). وفي حديث معاذ عن النبي قال: (الصدقة تطفيء الخطيئة كما يطفيء الماء النار، وقيام الرجل من جوف الليل) يعني أنه يطفيء الخطيئة أيضا وقد صرح بذلك في رواية الإمام أحمد وفي الحديث الصحيح عنه أنه قال: (اتقوا النار ولو بشق تمرة) كان أبوالدرداء يقول: صلوا في ظلمة الليل ركعتين لظلمة القبور، صوموا يوما شديدا حره لحر يوم النشور، تصدقوا بصدقة لشر يوم عسير.

ومنها: أن الصيام لا بد أن يقع فيه خلل أو نقص، وتكفير الصيام للذنوب مشروط بالتحفظ مما ينبغي التحفظ منه، كما ورد ذلك في حديث خرجه ابن حبان في صحيحه وعامة صيام الناس لا يجتمع في صومه التحفظ كما ينبغي، ولهذا نهى أن يقول الرجل: صمت رمضان كله أو قمته كله، فالصدقة تجبر ما فيه من النقص والخلل. ولهذا وجب في آخر شهر رمضان زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث. والصيام والصدقة لهما مدخل في كفارات الإيمان ومحظورات الإحرام وكفارة الوطء في رمضان، ولهذا كان الله تعالى قد خير المسلمين في ابتداء الأمر بين الصيام وإطعام المسكين، ثم نسخ ذلك

وبقي الإطعام لمن يعجز عن الصيام لكبره، ومن أخّر قضاء رمضان حتى أدركه رمضان آخر فإنه يقضيه ويضم إليه إطعام مسكين لكل يوم تقوية له عند أكثر العلماء، كما أفتى به الصحابة وكذلك من أفطر لأجل غيره كالحامل والمرضع على قول طائفة من العلماء.

ومنها: أن الصائم يدع طعامه وشرابه لله فإذا أعان الصائمين على التقوي على طعامهم وشرابهم كان بمنزلة من ترك شهوة لله وآثر بها أو واسى منها، ولهذا يشرع له تفطير الصوام معه إذا أفطر، لأن الطعام يكون محبوبا له حينئذ فيواسي منه حتى يكون من أطعم الطعام على حبه، ويكون في ذلك شكر لله على نعمة إباحة الطعام والشراب له ورده عليه بعد منعه إياه، فإن هذه النعمة إنما عرف قدرها عند المنع منها، وسئل بعض السلف: لم شرع الصيام ؟ قال: ليذوق الغني طعم الجوع فلا ينسى الجائع.

وهذا من بعض حِكم الصوم وفوائده، وقد ذكرنا فيما تقدم حديث سلمان وفيه: (وهو شهر المواساة) فمن لم يقدر فيه على درجة الإيثار على نفسه فلا يعجز عن درجة أهل المواساة. كان كثير من السلف يواسون من إفطارهم أو يؤثرون به ويطوون. كان ابن عمر يصوم ولا يفطر إلا مع المساكين فإذا منعه أهله عنهم لم يتعش تلك الليلة، وكان إذا جاءه سائل وهو على طعامه أخذ نصيبه من الطعام وقام فأعطاه السائل، فيرجع وقد أكل أهله ما بقي في الجفنة، فيصبح صائما ولم يأكل شيئا.

واشتهى بعض الصالحين من السلف طعاما، وكان صائما فوضع بين يديه عند فطوره فسمع سائلا يقول: من يقرض الملي الوفي الغني ؟ فقال عبده المعدم من الحسنات فقام فأخذ الصحفة فخرج بها إليه وبات طاويا. وجاء سائل إلى الإمام أحمد فدفع إليه رغيفين كان يعدهما لفطره، ثم طوى وأصبح صائما. وكان الحسن يطعم إخوانه وهو صائم تطوعا، ويجلس يروحهم وهم يأكلون، وكان ابن المبارك يطعم إخوانه في السفر الألوان من الحلواء وغيرها وهو صائم.

سلام الله على تلك الأرواح، رحمة الله على تلك

الأشباح، لم يبق منهم إلا أخبار وآثار، كم بين من يمنع الحق الواجب عليه وبين أهل الإيثار.

لا تعرضن لذكرنا ليس الصحيح إذا

وله فوائد أخر; قال الشافعي رضي الله عنه: أحب للرجل الزيادة في الجود في شهر رمضان اقتداء برسول الله ولحاجة الناس فيه إلى مصالحهم ولتشاغل كثير منهم بالصوم والصلاة عن مكاسبهم. وكذا قال القاضي أبويعلى وغيره من أصحابنا أيضا. ودل الحديث أيضا على استحباب دراسة القرآن في رمضان والاجتماع على ذلك، وعرض القرآن على من هو أحفظ له، وفيه دليل على استحباب الإكثار من تلاوة القرآن في شهر رمضان وفي حديث فاطمة رضي الله عنها عن أبيها : (أنه أخبرها أن جبريل عليه السلام كان يعارضه القرآن كل عام مرة، وأنه عارضه في عام وفاته مرتين) وفي حديث ابن عباس أن المدارسة بينه وبين جبريل كان ليلا يدل على استحباب الإكثار من التلاوة في رمضان ليلا، فإن الليل تنقطع فيه الشواغل، وتجتمع فيه الهمم، ويتواطأ فيه القلب واللسان على التدبر كما قال تعالى: (إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا) وشهر رمضان له خصوصية بالقرآن كما قال تعالى: (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن) وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنه أنزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في ليلة القدر، ويشهد لذلك قوله تعالى: (إنا أنزلناه في ليلة القدر) وقوله: (إنا أنزلناه في ليلة مباركة) وقد سبق عن عبيد بن عمير: أن النبي بديء بالوحي ونزول القرآن عليه في شهر رمضان) وفي المسند عن واثلة بن الأسقع عن النبي : أنه قال: (نزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من شهر رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان، وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة من رمضان، وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان) وقد كان النبي يطيل القراءة في قيام رمضان بالليل أكثر من غيره، وقد صلى معه

حذيفة ليلة في رمضان قال: فقرأ بالبقرة ثم النساء ثم آل عمران لا يمر بآية تخويف إلا وقف وسأل، فما صلى الركعتين حتى جاءه بلال فآذنه بالصلاة) خرجه الإمام أحمد وخرجه النسائي وعنده أنه ما صلى إلا أربع ركعات. وكان عمر قد أمر أبيّ بن كعب وتميما الداري أن يقوما بالناس في شهر رمضان، فكان القاريء يقرأ بالمائتين في ركعة، حتى كانوا يعتمدون على العصي من طول القيام، وما كانوا ينصرفون إلا عند الفجر، وفي رواية: أنهم كانوا يربطون الحبال بين السواري ثم يتعلقون بها. وروي أن عمر جمع ثلاثة قراء فأمر أسرعهم قراءة أن يقرأ بالناس ثلاثين، وأوسطهم بخمس وعشرين، وأبطأهم بعشرين، ثم كان في زمن التابعين يقرؤون بالبقرة في قيام رمضان في ثمان ركعات فإن قرأ بها في اثنتي عشرة ركعة رأوا أنه قد خفف قال ابن منصور: سئل إسحاق بن راهوية كم يقرأ في قيام شهر رمضان؟ فلم يرخّص في دون عشر آيات، فقيل له: إنهم لا يرضون ؟ فقال: لا رضوا فلا تؤمنهم إذا لم يرضوا بعشر آيات من البقرة، ثم إذا صرت إلى الآيات الخفاف فبقدر عشر آيات من البقرة، يعني في كل ركعة. وكذلك كره مالك أن يقرأ دون عشر آيات.

وسئل الإمام أحمد عما روي عن عمر كما تقدم ذكره في السريع القراءة والبطيء؟ فقال: في هذا مشقة على الناس، ولا سيما في هذه الليالي القصار، وإنما الأمر على ما يحتمله الناس. وقال أحمد لبعض أصحابه وكان يصلي بهم في رمضان: هؤلاء قوم ضعفى اقرأ خمسا ستا سبعا، قال: فقرأت فختمت ليلة سبع وعشرين.

وقد روى الحسن: أن الذي أمره عمر أن يصلي بالناس كان يقرأ خمس آيات ست آيات، وكلام الإمام أحمد يدل على أنه يراعي في القراءة حال المأمومين فلا يشق عليهم، وقاله أيضا غيره من الفقهاء من أصحاب أبي حنيفة وغيرهم، وقد روي عن أبي ذر أن النبي قام بهم ليلة ثلاث وعشرين إلى ثلث الليل، وليلة خمس وعشرين إلى نصف

الليل، فقالوا له: لو نفلتنا بقية ليلتنا؟ فقال: (إن الرجل إذا صلى مع الإمام حتى ينصرف كتب له بقية ليلته) خرجه أهل السنن وحسنه الترمذي. وهذا يدل على أن قيام ثلث الليل ونصفه يكتب به قيام ليلة لكن مع الإمام. وكان الإمام أحمد يأخذ بهذا الحديث ويصلي مع الإمام حتى ينصرف، ولا ينصرف حتى ينصرف الإمام. وقال بعض السلف: من قام نصف الليل فقد قام الليل وفي سنن أبي داود عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي قال: (من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين) ـ يعني أنه كتب له قنطار من الأجر ـ ويروى من حديث تميم وأنس مرفوعا:(من قرأ بمائة آية في ليلة كتب له قيام ليلة) وفي إسنادهما ضعف.

وروي حديث تميم موقوفا عليه وهو أصح وعن ابن مسعود قال: من قرأ ليلة خمسين آية لم يكتب من الغافلين، ومن قرأ بمائة آية كتب من القانتين، ومن قرأ ثلاثمائة آية كتب له قنطار، ومن أراد أن يزيد في القراءة ويطيل وكان يصلي لنفسه فليطوّل ما شاء كما قاله النبي وكذلك من صلى بجماعة يرضون بصلاته، وكان بعض السلف يختم في قيام رمضان في كل ثلاث ليال، وبعضهم في كل سبع منهم قتادة. وبعضهم في كل عشر منهم أبورجاء العطاردي. وكان السلف يتلون القرآن في شهر رمضان في الصلاة وغيرها، كان الأسود يقرأ في كل ليلتين في رمضان. وكان النخعي يفعل ذلك في العشر الأواخر منه خاصة وفي بقية الشهر في ثلاث، وكان قتادة يختم في كل سبع دائما، وفي رمضان في كل ثلاث، وفي العشر الأواخر كل ليلة. وكان للشافعي في رمضان ستون ختمة يقرؤها في غير الصلاة. وعن أبي حنيفة نحوه. وكان قتادة يدرس القرآن في شهر رمضان. وكان الزهري إذا دخل رمضان قال: فإنما هو تلاوة القرآن، وإطعام الطعام. قال ابن عبد الحكم: كان مالك إذا دخل رمضان يفرّ من قراءة الحديث، ومجالسة أهل العلم، وأقبل على تلاوة القرآن من المصحف. قال عبد الرزاق: كان سفيان

الثوري: إذا دخل رمضان ترك جميع العبادة وأقبل على قراءة القرآن.

وكانت عائشة رضي الله عنها تقرأ في المصحف أول النهار في شهر رمضان، فإذا طلعت الشمس نامت. وقال سفيان: كان زبيد اليامي إذا حضر رمضان أحضر المصاحف وجمع إليه أصحابه. وإنما ورد النهي عن قراءة القرآن في أقل من ثلاث على المداومة على ذلك، فأما في الأوقات المفضلة كشهر رمضان خصوصا الليالي التي يطلب فيها ليلة القدر أوفي الأماكن المفضلة كمكة لمن دخلها من غير أهلها، فيستحب الإكثار فيها من تلاوة القرآن اغتناما للزمان والمكان. وهو قول أحمد وإسحاق وغيرهما من الأئمة، وعليه يدل عمل غيرهم كما سبق ذكره.

واعلم أن المؤمن يجتمع له في شهر رمضان جهادان لنفسه: جهاد بالنهار على الصيام، وجهاد بالليل على القيام، فمن جمع بين هذين الجهادين ووفى بحقوقهما وصبر عليهما وفّى أجره بغير حساب. قال كعب ينادي يوم القيامة مناد بأن كل حارث يعطى بحرثه، ويزاد غير أهل القرآن والصيام يعطون أجورهم بغير حساب، ويشفعان له أيضا عند الله عز وجل، كما في المسند عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: (الصيام والقيام يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام: أي رب منعته الطعام والشراب بالنهار، ويقول بالقرآن: منعته النوم بالنهار فشفعني فيه فيشفعان) فالصيام يشفع لمن منعه الطعام والشهوات المحرمة كلها سواء كان تحريمها يختص بالصيام كشهوة الطعام والشراب والنكاح ومقدماتها أو لا يختص به كشهوة فضول الكلام المحرم، والنظر المحرم والسماع المحرم والكسب المحرم، فإذا منعه الصيام من هذه المحرمات كلها فإنه يشفع له عند الله يوم القيامة، ويقول: يا رب منعته شهواته فشفعني فيه، فهذا لمن حفظ صيامه ومنعه من شهواته، فأما من ضيّع صيامه ولم يمنعه مما حرمه الله عليه فإنه جدير أن يضرب به وجه صاحبه، ويقول له: ضيّعك الله كما ضيّعتني، كما ورد مثل ذلك في الصلاة، قال بعض

السلف: إذا احتضر المؤمن يقال للملك: شمّ رأسه. قال: أجد في رأسه القرآن، فيقال شمّ قلبه. فيقول: أجد في قلبه الصيام. فيقال: شمّ قدميه فيقول: أجد في قدميه القيام. فيقال: حفظ نفسه حفظه الله عز وجل. وكذلك القرآن إنما يشفع لمن منعه من النوم بالليل، فأما من قرأ القرآن وقام به فقد قام بحقه، فيشفع له. وقد ذكر النبي ﷺ رجلا فقال: ذاك لا يتوسد القرآن ـ يعني لا ينام عليه فيصير له كالوسادة ـ وخرج الإمام أحمد من حديث بريدة مرفوعا: (أن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حتى ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب، فيقول: هل تعرفني أنا صاحبك الذي أظمأتك في الهواجر وأسهرت ليلك. وكل تاجر من وراء تجارته، فيعطي الملك بيمينه، والخلد بشماله، ويوضع على رأسه تاج الوقار، ثم يقال له: اقرأ واصعد في درج الجنة وغرفها، فهو في صعود ما دام يقرأ هذا كان أو ترتيلا) وفي حديث عبادة بن الصامت الطويل: (إن القرآن يأتي صاحبه في القبر، فيقول له: أنا الذي كنت أسهر ليلك، وأظميء نهارك، وأمنعك شهوتك، وسمعك وبصرك، فستجدني من الأخلاء خليل صدق، ثم يصعد فيسأل له فراشا ودثارا، فيؤمر له بفراش من الجنة، وقنديل من الجنة، وياسمين من الجنة، ثم يدفع القرآن في قبلة القبر فيوسع عليه ما شاء الله من ذلك). قال ابن مسعود: ينبغي لقاريء القرآن أن يعرف بليله إذا الناس نائمون، ونهاره إذا الناس يفطرون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبورعه إذا الناس يخلطون، وبصمته إذا الناس يخوضون، وبخشوعه إذا الناس يختالون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، قال محمد بن كعب: كنا نعرف قاريء القرآن بصفرة لونه. يشير إلى سهره وطول تهجده، قال وهيب بن الورد: قيل لرجل ألا تنام ؟ قال: إن عجائب القرآن أطرن نومي. وصحب رجل رجلا شهرين فلم يره نائما، فقال: مالي لا أراك نائما قال: إن عجائب القرآن أطرن نومي، ما أخرج من أعجوبة إلا وقعت في أخرى. قال أحمد بن أبي الحواري: إني لأقرا القرآن وأنظر في آية فيحير عقلي بها، وأعجب من

حفاظ القرآن كيف يهنيهم النوم ويسعهم أن يشغلوا بشيء من الدنيا وهم يتلون كلام الله، أما إنهم لو فهموا ما يتلون وعرفوا حقه وتلذذوا به واستحلوا المناجاة به لذهب عنهم النوم فرحا بما قد رزقوا. أنشد ذو النون المصري:

منع القرآن بوعده ... مقل العيون بليلها

فهموا عن الملك ... فهما تذل له

فأما من كان معه القرآن فنام عنه بالليل ولم يعمل به بالنهار فإنه ينتصب القرآن خصما له يطالبه بحقوقه التي ضيعها. وخرج الإمام أحمد من حديث سمرة: أن النبي رأى في منامه رجلا مستلقيا على قفاه، ورجل قائم بيده فهر أو صخرة فيشدخ به رأسه فيتدهده الحجر، فإذا ذهب ليأخذه عاد رأسه كما كان، فيصنع به مثل ذلك فسأل عنه ؟ فقيل له: هذا رجل آتاه الله القرآن فنام عنه بالليل ولم يعمل به بالنهار، فهو يفعل به ذلك إلى يوم القيامة) وقد خرجه البخاري بغير هذا اللفظ وفي (حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي : يمثل القرآن يوم القيامة رجلا، فيؤتى بالرجل قد حمله فخالف أمره، فيتمثل له خصما فيقول: يا رب حملته إياي فبئس حامل تعدّى حدودي وضيّع فرائضي، وركب معصيتي وترك طاعتي، فما يزال يقذف عليه بالحجج حتى يقال شأنك به، فيأخذ بيده فما يرسله حتى يكبه على منخره في النار، ويؤتى بالرجل الصالح كان قد حمله وحفظ أمره، فيتمثل خصما دونه، فيقول: يا رب حملته إياي فخير حامل، حفظ حدودي، وعمل بفرائضي، واجتنب معصيتي، واتبع طاعتي، فلا يزال يقذف له بالحجج حتى يقال: شأنك به فيأخذه بيده فما يرسله حتى يلبسه حلة الإستبرق، ويعقد عليه تاج الملك، ويسقيه كأس الخمر).

يا من ضيّع عمره في غير الطاعة، يا من فرّط في شهره بل في دهره وأضاعه، يا من بضاعته التسويف والتفريط، وبئست البضاعة، يا من جعل خصمه القرآن، وشهر رمضان، كيف ترجو ممن جعلته خصمك الشفاعة.

ويل لمن شفعاؤه والصور في يوم

رب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش، وقائم حظه من قيامه السهر، كل قيام لا ينهى عن الفحشاء والمنكر لا يزيده صاحبه إلا بعدا، وكل صيام لا يصان عن قول الزور والعمل به لا يورث صاحبه إلا مقتا وردا، يا قوم أين آثار الصيام؟ أين أنوار القيام؟.

إن كنت تنوح يا للبين فأين شاهد
أجفانك للدموع أم لا يقبل مدع بلا

هذا عباد الله شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن، وفي بقيته للعابدين مستمتع، وهذا كتاب الله يتلى فيه بين أظهركم ويسمع، وهو القرآن الذي لو أنزل على جبل لرأيته خاشعا يتصدع، ومع هذا فلا قلب يخشع، ولا عين تدمع، ولا صيام يصان عن الحرام فينفع، ولا قيام استقام فيرجى في صاحبه أن يشفع، قلوب خلت من التقوى، فهي خراب بلقع، وتراكمت عليها ظلمة الذنوب، فهي لا تبصر ولا تسمع، كم تتلى علينا آيات القرآن وقلوبنا كالحجارة أو أشد قسوة!، وكم يتوالى علينا شهر رمضان وحالنا فيه كحال أهل الشقوة!، لا الشاب منا ينتهي عن الصبوة، ولا الشيخ ينزجر عن القبيح فيلتحق بالصفوة، أين نحن من قوم إذا سمعوا داعي الله أجابوا الدعوة! وإذا تليت عليهم آيات الله جلّت قلوبهم جلوة! وإذا صاموا صامت منه الألسنة والأسماع والأبصار! أفما لنا فيهم أسوة ؟ كما بيننا وبين حال الصفا أبعد مما بيننا وبين الصفا والمروة! كلما حسنت منا الأقوال ساءت الأعمال! فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وحسبنا الله.

يا نفس فاز وأبصروا الحق
يا حسنهم والليل ونورهم يفوق نور
ترنموا بالذكر في فعيشهم قد طاب
قلوبهم للذكر قد دموعهم كلؤلؤ
أسحارهم بهم لهم وخلع الغفران خير
ويحك يا نفس ألا ينفع قبل أن تزل

مضى الزمان في فاستدركي ما قد

المجلس الثالث:
في ذكر العشر الأوسط من شهر رمضان وذكر نصف الشهر الأخير.

في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يعتكف في العشر الأوسط من رمضان، فاعتكف عاما حتى إذا كانت ليلة إحدى وعشرين، وهي الليلة التي يخرج في صبيحتها من اعتكافه، قال: (من كان اعتكف معي فليعتكف العشر الأواخر، وقد أريت هذه الليلة ثم أنسيتها، وقد رأيتني أسجد في ماء وطين من صبيحتها، فالتمسوها في العشر الأواخر، والتمسوها في كل وتر، فمطرت السماء تلك الليلة، وكان المسجد على عريش فوكف المسجد، فبصرت عيناي رسول الله ﷺ على جبهته أثر الماء والطين من صبح إحدى وعشرين).

هذا الحديث يدل على أن النبي ﷺ كان يعتكف العشر الأوسط من شهر رمضان لابتغاء ليلة القدر فيه، وهذا السياق يقتضي أن ذلك تكرر منه، وفي رواية في الصحيحين في هذا الحديث: أنه اعتكف العشر الأول ثم اعتكف العشر الأوسط ثم قال: (إني أتيت فقيل لي: إنها في العشر الأواخر، فمن أحب منكم أن يعتكف فليعتكف) فاعتكف الناس معه. وهذا يدل على أن ذلك كان منه قبل أن يتبين له أنها في العشر الأواخر، ثم لما تبين له ذلك اعتكف العشر الأواخر حتى قبضه الله عز وجل، كما رواه عنه عائشة وأبو هريرة وغيرهما، وروي أن عمر جمع جماعة من الصحابة فسألهم عن ليلة القدر، فقال بعضهم: كنا نراها في العشر الأوسط، ثم بلغنا أنها في العشر الأواخر. وسيأتي الحديث بتمامه في موضع آخر إن شاء الله وخرج ابن أبي عاصم في كتاب الصيام وغيره من حديث خالد بن محدوج، عن أنس أن النبي ﷺ قال: (التمسوها في أول ليلة أوفي تسع أوفي أربع عشرة) وخالد هذا فيه ضعف، وهذا يدل على أنها تطلب في ليلتين من العشر الأول،

وفي ليلة من العشر الأوسط، وهي أربع عشرة، وقد سبق من حديث واثلة بن الأسقع مرفوعا: (أن الإنجيل أنزل لثلاث عشرة من رمضان) وقد ورد الأمر بطلب ليلة القدر في النصف الأواخر من رمضان، وفي أفراد ما بقي من العشر الأوسط من هذا النصف، وهما ليلتان ليلة سبع عشرة وليلة تسع عشرة.

أما الأول: فخرجه الطبراني من حديث عبد الله بن أنيس أنه سأل النبي ﷺ عن ليلة القدر؟ فقال: رأيتها ونسيتها فتحرّها في النصف الأواخر، ثم عاد فسأله؟ فقال: التمسها في ليلة ثلاث وعشرين تمضي من الشهر) ولهذا المعنى والله أعلم كان أبيّ بن كعب يقنت في الوتر في ليالي النصف الأواخر، لأنه يرجى فيه ليلة القدر، وأيضا فكل زمان فاضل من ليل أو نهار فإن آخره أفضل من أوله، كيوم عرفة ويوم الجمعة، وكذلك الليل والنهار عموما آخره أفضل من أوله، ولذلك كانت الصلاة الوسطى صلاة العصر كما دلت الأحاديث الصحيحة عليه، وآثار السلف الكثيرة تدل عليه، وكذلك عشر ذي الحجة والمحرم آخرهما أفضل من أولهما.

وأما الثاني: ففي سنن أبي داود عن ابن مسعود مرفوعا: (اطلبوها ليلة سبع عشرة من رمضان، وليلة إحدى وعشرين، وليلة ثلاث وعشرين، ثم سكت).

وفي رواية ليلة تسع عشرة وقيل: إن الصحيح وقفه على ابن مسعود، فقد صحّ عنه أنه قال: (تحرّوا ليلة القدر ليلة سبع عشرة صباحية بدر أو إحدى عشرين)، وفي رواية عنه قال: (ليلة سبع عشرة، فإن لم يكن ففي تسع عشرة) وخرج الطبراني من رواية أبي المهزم وهو ضعيف عن أبي هريرة مرفوعا قال: (التمسوا ليلة القدر في سبع عشرة أو تسع عشرة أو إحدى وعشرين أو ثلاث وعشرين أو خمس وعشرين أو سبع وعشرين أو تسع وعشرين). ففي هذا الحديث التماسها في إفراد النصف الثاني كلها، ويروى من حديث عائشة: أن النبي ﷺ كان إذا كان ليلة تسع عشرة من رمضان شدّ المئزر، وهجر الفراش

حتى يفطر) قال البخاري تفرّد به عمر بن مسكين ولا يتابع عليه. وقد روي عن طائفة من الصحابة أنها تطلب ليلة سبع عشرة، وقالوا: إن صبيحتها كان يوم بدر، روي عن علي وابن مسعود وزيد بن أرقم وزيد بن ثابت وعمرو بن حريث ومنهم من روي عنه أنها ليلة تسع عشرة روي عن علي وابن مسعود وزيد بن أرقم.

والمشهور عند أهل السير والمغازي: أن ليلة بدر كانت ليلة سبع عشرة، وكانت ليلة جمعة، وروي ذلك عن علي وابن عباس وغيرهما وعن ابن عباس رواية ضعيفة أنها كانت ليلة الاثنين. وكان زيد بن ثابت لا يحيي ليلة من رمضان كما يحيي ليلة سبع عشرة، ويقول: إن الله فرق في صبيحتها بين الحق والباطل، وأذلّ في صبيحتها أئمة الكفر. وحكى الإمام أحمد هذا القول عن أهل المدينة: أن ليلة القدر تطلب ليلة سبع عشرة، قال في رواية أبي داود فيمن قال لامرأته: أنت طالق ليلة القدر، قال: يعتزلها إذا أدخل العشر. وقيل: العشر أهل المدينة يرونها في السبع عشرة إلا أن المثبت عن النبي في العشر الأواخر.

وحكي عن عامر بن عبد الله بن الزبير أنه كان يواصل ليلة سبع عشرة، وعن أهل مكة أنهم كانوا لا ينامون فيها ويعتمرون. وحكي عن أبي يوسف ومحمد صاحبي أبي حنيفة أن ليلة القدر في النصف الأواخر من رمضان من غير تعيين لها بليلة، وإن كانت في نفس الأمر عند الله معيّنة، وروي عن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام قال: ليلة القدر ليلة سبع عشرة، ليلة جمعة، خرجه ابن أبي شيبة.

وظاهره: أنها إنما تكون ليلة القدر إذا كانت ليلة جمعة لتوافق ليلة بدر. وروى أبو الشيخ الأصبهاني بإسناد جيد عن الحسن قال: إن غلاما لعثمان بن أبي العاص قال له يا سيدي: إن البحر يعذب في الشهر في ليلة القدر، قال: فإذا كانت تلك الليلة فأعلمني. قال: فلما كانت تلك الليلة أذنه، فنظروا فوجدوه عذبا، فإذا هي ليلة سبع عشرة. وروي من حديث جابر قال: كان رسول الله يأتي قباء صبيحة سبع

عشرة من رمضان أي يوم كان) خرجه أبو موسى المديني.

وقد قيل: إن المعراج كان فيها أيضا ذكر ابن سعد عن الواقدي عن أشياخه أن المعراج كان ليلة السبت لسبع عشرة خلت من رمضان قبل الهجرة إلى السماء، وأن الإسراء كان ليلة سبع عشرة من ربيع الأول قبل الهجرة بسنة إلى بيت المقدس. وهذا على قول من فرّق بين المعراج والإسراء، فجعل المعراج إلى السماء كما ذكر في سورة النجم والإسراء إلى بيت المقدس خاصة، كما ذكر في سورة سبحان. وقد قيل: إن ابتداء نبوة النبي كان في سابع عشر رمضان. قال أبو جعفر محمد بن علي الباقر: نزل جبريل على رسول الله ليلة السبت وليلة الأحد، ثم ظهر له بحراء برسالة الله عز وجل يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من رمضان، وأصح ما روي في الحوادث في هذه الليلة أنها ليلة بدر. كما سبق أنها كانت ليلة سبع عشرة. وقيل تسع عشر. والمشهور أنها كانت ليلة سبع عشرة كما تقدم. وصبيحتها هو يوم الفرقان، لأن الله تعالى فرق فيه بين الحق والباطل، وأظهر الحق وأهله على الباطل وحزبه، وعلت كلمة الله وتوحيده، وذل أعداؤه من المشركين وأهل الكتاب، وكان ذلك في السنة الثانية من الهجرة، فإن النبي قدم المدينة في ربيع الأول في أول سنة من سني الهجرة، ولم يفرض رمضان في ذلك العام ثم صام عاشوراء، وفرض عليه رمضان في ثاني سنة، فهو أول رمضان صامه، وصامه المسلمون معه، ثم خرج النبي لطلب عير من قريش قدمت من الشام إلى المدينة في يوم السبت لاثنتي عشرة ليلة خلت من رمضان، وأفطر في خروجه إليها. قال ابن المسيب قال عمر: غزونا مع رسول الله غزوتين في رمضان يوم بدر ويوم الفتح، وأفطرنا فيهما.

وكان سبب خروجه حاجة أصحابه خصوصا المهاجرين: (الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم

يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله، أولئك هم الصادقون) وكانت هذه العير معها أموال كثيرة لأعدائهم الكفار الذين أخرجوهم من ديارهم وأموالهم ظلما وعدوانا، كما قال الله تعالى: (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله) الآية. فقصد النبي أن يأخذ أموال هؤلاء الظالمين المعتدين على أولياء الله وحزبه وجنده، فيردها على أولياء الله وحزبه المظلومين المخرجين من ديارهم وأموالهم، ليتقووا بها على عبادة الله، وطاعته وجهاد أعدائه، وهذا مما أحله الله لهذه الأمة، فإنه أحل لهم الغنائم ولم تحل لأحد قبلهم، وكان عدة أصحاب بدر رضي الله عنهم ثلاثمائة وبضعة عشر، وكانوا على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، وما جاوزه معه إلا مؤمن.

وفي سنن أبي داود من حديث عبد الله بن عمرو قال: خرج رسول الله يوم بدر في ثلاثمائة وخمسة عشر من المقاتلة، كما خرج طالوت فدعا لهم رسول الله حين خرجوا فقال: (اللهم إنهم حفاة فاحملهم، وإنهم عراة فاكسهم، وإنهم جياع فأشبعهم) ففتح الله يوم بدر، فانقلبوا حين انقلبوا وما فيهم رجل إلا وقد رجع بجمل أو جملين، واكتسووا وشبعوا. وكان أصحاب النبي حين خرجوا على غاية من قلة الظهر والزاد، فإنهم لم يخرجوا مستعدين لحرب ولا لقتال، إنما خرجوا لطلب العير فكان معهم نحو سبعين بعيرا يعتقبونها بينهم كل ثلاثة على بعير، وكان للنبي زميلان، فكانوا يعتقبون على بعير واحد، فكان زميلاه يقولان له: اركب يا رسول الله حتى نمشي عنك، فيقول: (ما أنتما بأقوى على المشي مني، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما) ولم يكن معهما إلا فرسان، وقيل: ثلاثة. وقيل: فرس واحد للمقداد.

وبلغ المشركين خروج النبي لطلب العي، فأخذ

أبو سفيان بالعير نحو الساحل، وبعث إلى مكة يخبرهم الخبر، ويطلب منهم أن ينفروا لحماية عيرهم، فخرجوا مستصرخين، وخرج أشرافهم ورؤساؤهم وساروا نحو بدر، واستشار النبي المسلمين في القتال، فتكلم المهاجرون، فسكت عنهم، وإنما كان قصده الأنصار، لأنه ظن أنهم لم يبايعوه إلا على نصرته على من قصده في ديارهم، فقام سعد بن عبادة فقال: إيانا تريد ـ يعني الأنصار ـ والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد، لفعلنا، وقال له المقداد: لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) ولكن نقاتل عن يمينك وشمالك وبين يديك ومن خلفك. فسر النبي بذلك وأجمع على القتال، وبات تلك الليلة ليلة الجمعة سابع عشر رمضان قائما يصلي ويبكي، ويدعو الله ويستنصره على أعدائه.

وفي المسند عن علي بن أبي طالب قال: لقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله تحت شجرة يصلي ويبكي حتى أصبح) وفيه عنه أيضا قال: أصابنا طش من مطر، يعني ليلة بدر، فانطلقنا تحت الشجر والحجف نستظل بها من المطر، وبات رسول الله يدعو ربه ويقول: إن تهلك هذه الفئة لا تعبد) فلما طلع الفجر نادى: الصلاة عباد الله! فجاء الناس من تحت الشجر والحجف، فصلى بنا رسول الله وحث على القتال، وأمد الله تعالى نبيه والمؤمنين بنصر من عنده، وبجند من جنده، كما قال تعالى: (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين * وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله) وفي صحيح البخاري: (أن جبريل قال للنبي : ما تعدون أهل بدر فيكم ؟ قال: من أفضل المسلمين أو كلمة نحوها، قال: وكذلك من شهد بدرا من الملائكة) وقال الله تعالى: (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة) وقال:

(فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى).

وروي أن النبي ﷺ لما رآهم قال: (اللهم إن هؤلاء قريش قد جاءت بخيلائها، يكذبون رسولك، فأنجز لي ما وعدتني، فأتاه جبريل فقال: خذ قبضة من تراب فارمهم بها، فأخذ قبضة من حصباء الوادي، فرمى بها نحوهم وقال: شاهت الوجوه، فلم يبق مشرك إلا دخل في عينيه ومنخره وفمه شيء ثم كانت الهزيمة) وقال حكيم بن حزام: سمعنا يوم بدر صوتا وقع من السماء، كأنه صوت حصاة على طست فرمى رسول الله ﷺ تلك الرمية فانهزمنا. ولما قدم الخبر على أهل مكة قالوا لمن أتاهم بالخبر: كيف حال الناس؟ قال: لا شيء، والله إن كان إلا أن لقيناهم فمنحناهم أكتافنا يقتلونا ويأسرونا كيف شاؤوا، وأيم الله مع ذلك ما لمت الناس، لقينا رجالا على خيل بُلق بين السماء والأرض ما يقوم لها شيء.

وقتل الله صناديد كفار قريش يومئذ، منهم عتبة بن ربيعة وشيبة والوليد بن عتبة وأبوجهل وغيرهم، وأسروا منهم سبعين. وقصة بدر يطول استقصاؤها وهي مشهورة في التفسير وكتب الصحاح والسنن والمسانيد والمغازي والتواريخ وغيرها، وإنما المقصود ههنا التنبيه على بعض مقاصدها، وكان عدو الله إبليس قد جاء إلى المشركين في صورة سراقة بن مالك، وكانت يده في يد الحارث بن هشام، وجعل يشجعهم ويعدهم ويمنيهم، فلما رأى الملائكة هرب وألقى نفسه في البحر، وقد أخبر الله عن ذلك بقوله تعالى: (وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب).

وفي الموطأ حديث مرسل عن النبي ﷺ قال: (ما رؤي الشيطان أحقر ولا أدحر ولا أصغر من يوم عرفة إلا ما رأى يوم بدر، قيل: ما رأى يوم بدر ؟ قال: رأى جبريل يزع الملائكة). فإبليس عدو الله يسعى في إطفاء نور الله وتوحيده ويغري بذلك أولياءه من

الكفار والمنافقين فلما عجز عن ذلك بنصر الله نبيه وإظهار دينه على الدين كله رضي بإلقاء الفتن بين المسلمين واجتزى منهم بمحقرات الذنوب حيث عجز عن ردهم عن دينهم، كما قال النبي : (إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم) خرجه مسلم من حديث جابر، وخرج الإمام أحمد والنسائي والترمذي وابن ماجه من حديث عمرو بن الأحوص قال: سمعت النبي يقول في حجة الوداع: (ألا إن الشيطان قد أيس أن يعبد في بلدكم هذا أبدا، ولكن سيكون له طاعة في بعض ما تحتقرون من أعمالكم فيرضى بها).

وفي صحيح الحاكم عن ابن عباس أن النبي خطب في حجة الوداع فقال: (إن الشيطان قد أيس أن يعبد بأرضكم، ولكنه يرضى أن يطاع فيما سوى ذلك، في بعض ما تحتقرون من أعمالكم فيرضى بها، فاحذروا يا أيها الناس إني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به، فلن تضلوا أبدا كتاب الله وسنة نبيه)

ولم يعظم على إبليس شيء أكبر من بعثة محمد وانتشار دعوته في مشارق الأرض ومغاربها، فإنه أيس أن تعود أمته كلهم إلى الشرك الأكبر، قال سعيد بن جبير: (لما رأى إبليس النبي قائما بمكة يصلي رنّ، ولما افتتح النبي مكة رنّ رنّة أخرى اجتمعت إليه ذريته فقال: ايئسوا أن تردوا أمة محمد إلى الشرك بعد يومكم هذا، ولكن افتنوهم في دينهم، وافشوا فيهم النوح والشعر) خرجه ابن أبي الدنيا.

وخرج الطبراني بإسناده عن مجاهد عن أبي هريرة قال: إن إبليس رنّ لما أنزلت فاتحة الكتاب، وأنزلت بالمدينة. والمعروف هذا عن هذا عن مجاهد من قوله قال: رنّ إبليس أربع رنات حين لعن، وحين أهبط من الجنة، وحين بعث محمد، وحين أنزلت فاتحة الكتاب وأنزلت بالمدينة. خرجه وكيع وغيره. وقال بعض التابعين لما أنزلت هذه الآية: (والذين إذا فعلوا

فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم) الآية. بكى إبليس يشير إلى شدة حزنه بنزولها لما فيها من الفرح لأهل الذنوب، فهو لا يزال في هم وغم وحزن منذ بعث النبي ﷺ لما رأى منه ومن أمته ما يهمه ويغيظه، قال ثابت: لما بعث النبي ﷺ قال إبليس لشياطينه: لقد حدث أمر فانظروا ما هو؟ فانطلقوا ثم جاؤوه، فقالوا: ما ندري ؟ قال إبليس: أنا أنبئكم بالخبر، فذهب وجاء بالخبر، قال: قد بعث محمد ﷺ فجعل يرسل شياطينه إلى أصحاب النبي ﷺ فيجيؤا بصحفهم ليس فيها شيء، فقال: ما لكم لا تصيبون منهم شيئا ؟ قالوا: ما صحبنا قوما قط مثل هؤلاء، نصيب منهم ثم يقومون إلى الصلاة فيمحى ذلك! قال: رويدا إنهم عسى أن يفتح الله لهم الدنيا، هنالك تصيبون حاجتكم منهم. وعن الحسن قال: قال إبليس سولت لأمة محمد المعاصي فقطعوا ظهري بالاستغفار، فسولت لهم ذنوبا لا يستغفرون منها ـ يعني الأهواء ـ ولا يزال إبليس يرى في مواسم المغفرة والعتق من النار ما يسوؤه، فيوم عرفة لا يرى أصغر ولا أحقر ولا أدحر فيه منه، لما يرى من تنزل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام إلا ما رؤي يوم بدر. وروي إنه لما رأى نزول المغفرة للأمة في حجة الوداع يوم النحر بالمزدلفة أهوى يحثي على رأسه التراب ويدعو بالويل والثبور، فتبسم النبي ﷺ مما رأى من جزع الخبيث، وفي شهر رمضان يلطف الله بأمة محمد فيغل فيه الشياطين ومردة الجن حتى لا يقدروا على ما كانوا يقدرون عليه في غيره من تسويل الذنوب. ولهذا تقل المعاصي في شهر رمضان في الأمة لذلك، ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:(إذا دخل رمضان فتحت أبواب السماء وغلقت أبواب جهنم وسلسلت الشياطين) ولمسلم: (فتحت أبواب الرحمة). وله أيضا عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (إذا جاء رمضان فتحت أبواب

الجنة، وأغلقت أبواب النار، وصفدت الشياطين). وخرج منه البخاري ذكر فتح أبواب الجنة. وللترمذي وابن ماجه عنه عن النبي ﷺ قال: (إذا كان أول ليلة من شهر رمضان صفدت الشياطين ومردة الجن، وغلقت أبواب النار فلم يفتح منها باب، وفتحت أبواب الجنة فلم يغلق منها باب، وينادي مناد: يا باغي الخير أقبل، ويا باغي الشر أقصر، ولله عتقاء من النار وذلك كل ليلة) وفي رواية للنسائي: (تغل فيه مردة الشياطين) وللإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: أعطيت أمتي في رمضان خمس خصال لم تعطه أمة قبلهم، خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وتستغفر لهم الملائكة حتى يفطروا، ويزين الله كل يوم جنته، ثم يقول: يوشك عبادي الصالحون أن يلقوا عنهم المؤونة والأذى، ويصيروا إليك وتصفد مردة الشياطين، فلا يخلصون فيه إلى ما كانوا يخلصون إليه في غيره يغفر لهم في آخر ليلة. قيل: يا رسول الله! أهي ليلة القدر ؟ قال: لا ولكن العامل إنما يوفى أجره إذا قضى عمله).

وفي ليلة القدر تنتشر الملائكة في الأرض، فيبطل سلطان الشياطين، كما قال الله تعالى: (تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر * سلام هي حتى مطلع الفجر) وفي المسند عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: (الملائكة تلك الليلة في الأرض أكثر من عدد الحصى) وفي صحيح ابن حبان عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (في ليلة القدر لا يخرج شيطانها حتى يخرج فجرها)

وفي المسند من حديث عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ أنه قال: (في ليلة القدر لا يحل لكوكب أن يرمى به حتى يصبح، وإن أمارتها أن الشمس تخرج صبيحتها مستوية ليس لها شعاع مثل القمر ليلة البدر، لا يحل للشيطان أن يخرج معها يومئذ) وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: إن الشيطان يطلع مع الشمس كل يوم إلا ليلة القدر، وذلك أنها تطلع لا

شعاع لها. وقال مجاهد في قوله تعالى: (سلام هي حتى مطلع الفجر) قال: سلام أن يحدث فيها داء أو يستطيع شيطان العمل فيها. وعنه قال: ليلة القدر ليلة سالمة لا يحدث فيها داء، ولا يرسل فيها شيطان. وعنه قال: هي سالمة لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءا ولا يحدث فيها أذى. وعن الضحاك عن ابن عباس قال: في تلك الليلة تصفد مردة الجن، وتغل عفاريت الجن، وتفتح فيها أبواب السماء كلها، ويقبل الله فيها التوبة لكل تائب، فلذلك قال: (سلام هي حتى مطلع الفجر). ويروى عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: لا يستطيع الشيطان أن يصيب فيها أحدا بخبل أو داء أو ضرب من ضروب الفساد، ولا ينفذ فيها سحر ساحر، ويروى بإسناد ضعيف عن أنس مرفوعا أنه لا تسري نجومها ولا تنبح كلابها. وكل هذا يدل على كفّ الشياطين فيها عن انتشارهم في الأرض، ومنعهم من استراق السمع فيها من السماء.

ابن آدم! لو عرفت قدر نفسك ما أهنتها بالمعاصي، أنت المختار من المخلوقات، ولك أعدت الجنة، إن اتقيت فهي إقطاع المتقين، والدنيا إقطاع إبليس، فهو فيها من المنظرين، فكيف رضيت لنفسك بالإعراض عن إقطاعك، ومزاحمة إبليس على إقطاعه، وأن تكون غدا معه في النار من جملة أتباعه، إنما طردناه عن السماء لأجلك، حيث تكبّر عن السجود لأبيك، وطلبنا قربك لتكون من خاصتنا وحزبنا، فعاديتنا ووالیت عدونا: (أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا).

رعى الله من نهوى حفظنا له العهد
وصاحبت قوما كنت وحقك ما أبقيت

أبشروا يا معاشر المسلمين! فهذه أبواب الجنة الثمانية في هذا الشهر لأجلكم قد فتحت، ونسماتها على قلوب المؤمنين قد نفحت، وأبواب الجحيم كلها لأجلكم مغلقة، وأقدام إبليس وذريته من أجلكم موثقة، ففي هذا الشهر يؤخذ من إبليس بالثأر، وتستخلص العصاة من أسره، فما يبقى لهم

عنده آثار كانوا فراخه، قد غذاهم بالشهوات في أوكاره فهجروا اليوم تلك الأوكار، نقضوا معاقل حصونه بمعاول التوبة والاستغفار، خرجوا من سجنه إلى حصن التقوى والإيمان، فأمنوا من عذاب النار، قصموا ظهره بكلمة التوحيد فهو يشكو ألم الانكسار، في كل موسم من مواسم الفضل يحزن، ففي هذا الشهر يدعو بالويل لما يرى تنزل الرحمة، ومغفرة الأوزار، غلب حزب الرحمن حزب الشيطان، فما بقي له سلطان إلا على الكفار، عزل سلطان الهوى، وصارت الدولة لسلطان التقوى: (فاعتبروا يا أولي الأبصار).

يا نداماى صحا ... فاطردوا عني
هزم العقل جنودا ... فاسدي لا تعجبوا
زجر الحق فؤادي ... وأفاق القلب مني
بادروا التوبة من ... فمناديه يناديا

عباد الله! هذا شهر رمضان قد انتصف، فمن منكم حاسب نفسه فيه لله وانتصف، من منكم قام في هذا الشهر بحقه الذي عرف، من منكم عزم قبل غلق أبواب الجنة أن يبني له فيها غرفا من فوقها غرف؟ ألا إن شهركم قد أخذ في النقص. فزيدوا أنتم في العمل فكأنكم به، وقد انصرف فكل شهر فعسى أن يكون منه خلف، وأما شهر رمضان فمن أين لكم منه خلف؟!.

تنصف الشهر ... واختص بالفوز
وأصبح الغافل ... مثلي فيا ويحه يا
من فاته الزرع في ... تراه يحصد إلا الهم
طوبى لمن كانت ... في شهره وبحبل